

حافظ إبراهيم

دراسة تحليلية لسيرته وشعره

دكتور

السعيد محمود عبد الله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إهداء

إلى زوجتي وابنتي...
عِرفاناً لجهودهما في إعداد هذا البحث.

مُقَدِّمَةٌ

تألّق نجم شاعر النيل حافظ إبراهيم وسط كوكبة من أعلام الأدب فى عصره. نال من الشهرة وذىوع الصيت ما عوّضه عما لقى فى حياته من غنت، ثم رحل تخلفاً وراءه سيرةً مليئةً بالمفارقات والطرائف لا تقل شهرةً عما خلف من شعر.

فى عصره تفتحت نوافذ كثيرة للثقافة، وأقبل مُحبّو الأدب على موارده المختلفة عربية وغربية، ينهلون منها قدر استطاعتهم، يعينهم على ذلك نشاط حركة الترجمة، ونشر الكثير من ذخائر التراث، وقلة ما يتلهّون به فى أوقات فراغهم. وفى هذا العصر نبغ رجال كثيرون فى نواحٍ عديدة، أثروها علماً وفناً، وكانوا روّاداً مهّدوا السبيل لأجيال بعدهم.

سطع نجم حافظ فى تلك الظروف، وصار شاعر النيل على رقة حاله قسيماً فى الشهرة لأمر الشعراء، يلقي الاهتمام فى أندية الأدب، والترحيب من ذوى الجاه وأصحاب السلطان. وكان استمرار شهرته دليلاً على أن إبداعه يحوى الكثير من عناصر التفوق، وعلى أنه لم يكتسب هذه الشهرة - كما يذهب بعضهم - بفضل تزكية ذوى الجاه له، فقد ظلّ نجمه عالياً بعد رحيل أولئك الذين نُسب إليهم الفضل فى ذىوع اسمه.

وكان ظهور حافظ وشوقى فى عصر زدات فيه معرفة شباب النقاد بالأدب، ماهيته ورسالته، سبباً فى أن تعرّضا لكثير من النقد. لكن كثيراً من هذا النقد انصب على شخصيهما لا على إبداعهما، وكان الأولى أن ينظر أولئك النقاد إلى إبداعهما فى ضوء معايير موضوعية تميز الخبيث من الطيب. وبعد رحيل الشاعرين عاد من يقى حياً من أولئك النقاد ليصوّب ما سلف له من نظر فى أمرهما، وليعلن بعضهم أسفه على ما صاحب نقده من حدة الشباب واندفاعه.

ولم يحظ حافظ بدراسات تكافىء مكانته وشهرته، ولا يُذكر ما دار حوله منها، إذا قُوبل بما جرى حول شوقي، حياته وشعره. وأرى أن ذلك لأمرين:

فأما الأول، فهو أن صلة شوقي بالقصر كانت تستفز خصومه وأشياعه للكتابة عنها. وأما الثانى، فهو أن إبداع شوقي أوسع رقعة وأكثر تنوعاً من إبداع حافظ، وهذا يساعد على ظهور بحوث شتى ودراسات متنوعة، لا يسمح بها إبداع حافظ.

ومع هذا لا تزال حياة حافظ وشعره فى حاجة إلى نظرات جديدة لا تتأثر كثيراً بما كتبه معاصروه، لئلا تكون صدى لحديثهم ورجعا لآرائهم. ولو تأملنا أشهر الدراسات التى جرت حول حافظ وشوقي، لوجدنا أنها قد خرجت من بين دفتى "حافظ وشوقي" للدكتور طه حسين، لا تكاد تخالفه فى رأى انتهى إليه. ونحن لا ندعو إلى المخالفة، ولكن ندعو إلى تحرير العقل فى النظر إلى الأشياء، وطه حسين نفسه إمام هذا الاتجاه فى تاريخ أدبنا العربى الحديث. ومن يتأمل كتاب الدكتور طه حسين يجد أن الحديث فيه أقرب إلى روح التنظير، بمعنى أنه كان يضع نظريات عامة فى قضايا مختلفة تتعلق بالشاعرين، وهذه النظريات تستمد كثيراً مما انطبع فى نفسه عنهما من خلال المعاصرة. ولاشك فى أن كل نظرة عامة أو نظرية تحتاج إلى تحديد وبراهين تؤكد صحتها وصوابها.

وبعد تأمل طويل فى شعر حافظ، وقراءة ما كُتب عنه، ازددت يقيناً بأن فى حياة هذا الشاعر وفنه ما يحتاج إلى طرح جديد ومعالجة أخرى، ولهذا عقدت هذه الفصول الخمسة، راجياً أن أكون قد وُفقت فى التوصل إلى رأى معقول وكلمة مقبولة.

والله الموفق

المؤلف

الفصل الأول

حياته

نشأته :

فى جنوب مصر وعلى سطح ذهبية ترسو فوق صفحة النيل ، كان مولد حافظ إبراهيم . كان محمود باشا سليمان رجلاً واسع الثراء عظيم الجاه . وكانت أراضيها الواسعة التى تشغل مساحات كبيرة من صعيد مصر فى حاجة إلى ماء وفير لاستنباتها واستخراج كنوزها . وهو أمر يتطلب عناية خاصة من القائمين على توزيع حصص المياه . وهذا ما حدا بالرجل الثرى إلى استمالة إبراهيم أفندى فهمى أحد المشرفين على الري بقناطر ديروط التى تضخ الماء فى أوردة الأرض العطشى، بأن أغدق عليه ، وأسكنه هذه الذهبية التى شهدت مولد شاعر النيل^(١).

أسمته أمه (محمد حافظ) ، لكنه لم يكن يعرف إلا بـ(حافظ) ، وبـ(شاعر النيل)، اللقب الذى بقى له واشتهر به من بين ألقاب أخرى خلعت عليه^(٢).

ولا توجد وثائق رسمية تحدد تاريخ مولد حافظ ، لكنه يصير على تأكيد مولده فى فبراير ١٨٧٢م ، ولا يلقى إصراره هذا موافقة المقربين منه ، إذ يرون أنه كان أكبر سنًا مما يذكر ، ويقدمون على ذلك أدلة منطقية يمكن الأخذ بها ، والتعويل عليها^(٣). لم يُقدّر للطفل أن ينعم طويلاً بعطف أبيه وحُسن رعايته ، إذ تُوفى والده وهو فى الرابعة من عمره ، فاضطرت حياة الأسرة لرحيل ربّها وعائلها . ومما زاد من هموم الأم أن رُزقت قبيل رحيل زوجها بطفلة ضاعفت إحساسها بفلاحة الخطب ، وعظم المسئولية . ووجدت هذه الأم نفسها مضطرة إلى مغادرة (الذهبية) ، عش الزوجية الحالم، لتعيش بالقاهرة فى كنف أخيها المهندس محمد نيازى .

ويسط الأخ لأخته يد العون ، ويحوظ ولديها بما يقدر عليه من رعاية . لكنّ ما قدر عليه لم يكن سياجًا كافيًا لحماية الناشئ الصغير وحُسن تعهده فى هذه السن المبكرة ، التى يحتاج فيها الأطفال حذب الآباء ورعايتهم المستمرة . ولعل هذا القصور كان أهم الأسباب التى أدت إلى إخفاق الصبى فى تعليمه ، فهو يتنقل بين المدارس بخطوات سريعة لا يصير على تلقى العلم بواحدة منها ، أهلية كانت أم

حكومية ، ولا يروق له من الدروس المتنوعة التي كانت تقدم إليه في هذه المدارس غير دروس اللغة العربية ، وبخاصة الإنشاء وإنشاد الشعر^(٤).

وفي الشارع قضى الصبي من الوقت أكثر مما قضاءه في المدرسة . ولأنه كان مجباً للأدب ، ولو عاباً بحفظ الشعر ، سعى إلى حوانيت الورّاقين بجى الأزهر يفتش عن دواوين الشعر العربي وينكبّ عليها يستوعب ويحفظ ، غير مبالٍ بالمدرسة وبما كان يؤتمل له فيها من مستقبل ينعم فيه برزق مضمون في أحد دواوين الحكومة^(٥) .

وتنتقل الأسرة إلى مدينة (طنطا) وراء عائلها . ويترك محمد نيازي ابن أخته هملاً يجوب الشوارع بعد أن يئس من إصلاحه ، باللين تارة وبالشدة تارة أخرى^(٦) . ولعل الفتى قد فرح بهذا الإهمال الذي يتيح له أن يقرأ ما يحب من كتب الأدب ودواوين الشعر ، وأن يتخذ من الأصدقاء من يشاركه هوايته ، فيجلس إليهم يطرحهم الشعر ويسمعهم بواكير نظمه . ولأنه حلوا النادرة ، حاضر البديهة ، التف حوله كثير من طلاب المعهد الأحمدي ، يأنسون بعدوبة كلامه وشعره وطرائفه ، وهو مغتبط بما يلقي من اهتمامهم . ويدفعه هذا إلى زيادة التنقيب والاطلاع ، فيزداد حفظاً وعلماً يوماً بعد يوم . يصف الشيخ عبد الوهاب النجار حافظاً في هذه المرحلة الدقيقة من حياته ، وقد تعرّف إليه في عام ١٨٨٨م حين كان يطلب العلم بالمعهد الأحمدي بطنطا ، وكانت سن حافظ آنذاك نحو ستة عشر عاماً، يصفه بقوله:

” عندما عدت من (القرشية) إلى طنطا في شعبان من تلك السنة رأيت إخواني وأصدقائي يلوذون بفتى غض الإهاب ، جديد الشباب ، وقد أسرعوا بتقديمي إليه وتقديمه إلى باسم الأديب الشاعر (محمد حافظ إبراهيم) . ولم تمر عشيّة أو ضحاها حتى أحسست من نفسي ميلاً إليه بجاذب من الأدب الذي كان نُهمة نفسي ، حتى آل ذلك إلى غرام بأدبه وما يشتمل عليه من ظرف ولطف محاضرة ، وبديهة مطاوعة وسرعة خاطر وحضور نادرة... وقد قضينا رمضان من هذه السنة نصلي المغرب والعشاء والتراويح معاً ، ثم نلبث في سمر ممتع ومطارحة للشعر ومذاكرة في نوادر

الأدب وما كان يطرفنى به مما يقف عليه من جيد القريض إلى أن يأتى وقت السحور، ثم نعود بعد السحور إلى ما كنا فيه إلى انبثاق الفجر ، فنؤديه ثم نخرج بقلس إلى خارج المدينة ، ثم نعود وقد آذنت الشمس بالطلوع ، فيذهب كل منا إلى بيته « (٧) .

هذا حديث واحد من أصدقاء حافظ فى غضاضة عمره . وهذه الصورة التى رسمها لمجلس حافظ ولرفقته فى ذلك الطور المبكر من عمره ، لم تتغير طوال حياته ، وإن طرأت عليها ملامح جديدة بحكم تبدل البيئة ، ومرور الزمن . فجالسه فى القاهرة يؤمها كثيرون من محبى أدبه وظرفه ولطيف دعابته ، وتظل متعقدة من العشاء حتى طلوع الفجر .

لم يكن أمام حافظ وقد انقطع عن الدراسة ، وصارحه أهله بضجرهم من حياته التى تضى بلا هدف - لم يكن أمامه إلا أن يبحث عن عمل يقات منه ويحفظ له ماء وجهه . ويقع اختياره على مهنة المحاماة، أنسب الأعمال وأكثرها موافقة لمواهبه ، من طلاقة لسان ، وحضور ذهن ومهارة فى الحجاج ، فضلاً عن أنها لم تكن تشترط لدى المشتغل بها شهادة علمية . وفى مكتب (الشمى) بطنطا بدأ مزاولته العمل ، راجياً أن يُصيب من النجاح ما يعرضه عن فشله فى التعليم . يرى بعض كتاب سيرته أنه نجح فى عمله ، فشجعه بنجاحه على الانتقال إلى مكنتين آخريين من مكاتب المحاماة بحثاً عن الأفضل ، ويرى آخرون أنه فشل ، وأن خلافاً دب بينه وبين الشمى بسبب ذلك ، ترك على أثره العمل عنده ، معبراً عن تعاسة حظه التى تلاحقه بهذين البيتين^(٨) :

جراب حظي قد أفرغته طمعاً يباب أستاذنا الشمى ولاعجبا

فعاد لى وهسو مملوء فقلت له مما؟ فقال من الحسرات والحربا

وأرى أن تنقله بين ثلاثة مكاتب للمحاماة فى وقت قصير ، يشبه تماماً تنقله بين المدارس ، ويؤكد إخفاقه فى استيعاب هذه المهنة والصبر عليها ، كما أخفق فى الصبر على قاعة الدرس وتلقى العلم . والمحاماة تتطلب - كما يذكر الأستاذ أحمد أمين -

صبراً وجهداً في مراجعة كتب القانون والفقہ وكتابة المذكرات^(٩)، ومن أين لحافظ بالصبر وبذل الجهد ، وهو ملول بطبعه لا يصبر على عمل مُنظَّم منتظم . وهى طبيعة لازمته حتى وفاته ، يشهد بها أناس عاشروه وصاحبوه في عمله وسمره^(١٠).

هجر حافظ المحاماة ، وفتش حوالبه عن عمل ، ثم وجد أن المدرسة الحربية تكفل له منصباً حكومياً ، كما تحقق له ما تهبو إليه نفسه من وجهة اجتماعية ، فالتحق بها وتخرج فيها برتبة ملازم ثان عام ١٨٩١م وقد قارب العشرين . ولم تكن المدارس الحربية في عصر الشاعر تقدم لطلابها علماً عسكرياً جيداً أو مدنياً نافعا ؛ إذ عمد الإنجليز إلى إضعاف مناهجها وإبعاد الأساتذة الأكفاء عن ساحتها ، لئلا تساهم في الارتقاء بمعارف المصريين ، فأصبحت هذه المدارس نتيجةً لهذه السياسة الخرقاء - كما يصف الشاعر في (ليالى سطيح) - مثل مصانع الدجاج ، يدخل فيها التلميذ فلا يسلم ستة أشهر حتى يغدو وعلى جنبه سيف صقيل ، ولم يزدد علمه عما كان عليه يوم خروجه من بطن أمه . وما آلة التصوير الشمسى في رأيه بأسرع في أخذ الصور من هذه المدارس في تهيئة التلاميذ لدخول الجيش^(١١).

أيًا ما كان الأمر ، فقد أصبح حافظ ضابطاً بوزارة الحربية . ولم تمضِ على تعيينه سنوات ثلاث حتى يُرقى إلى رتبة ملازم أول في ١ / ٨ / ١٨٩٣م . وتستعين وزارة الداخلية بضباط من وزارة الحربية ، فيتولّى حافظ وظيفة معاون بوليس . لكن وزارة الداخلية لا تلبث أن تستغنى عن خدماته وتعيده إلى وزارة الحربية ، التي تفضل هى الأخرى الاستغناء عنه لإهماله وتراخيه في أداء واجبه ، فيُحال إلى الاستبداع فى ١٨٩٥م . ولولا حاجة الجيش المصرى إلى ضباط يرافقون (كتشنر) فى فتح السودان ، ما عاد حافظ إلى إدارة التعيينات بوزارة الحربية ، ليعمل تحت إمرة هذا القائد الإنجليزي فى حملته . وفى السودان عانى الشاعر من صلف رؤسائه الإنجليزي ، ومن معيشته القاسية فى الخيام وبيوت الطين ، تحت وهج الشمس الحارق ، ثم من زملائه الذين أجبرته الظروف على مجالستهم ومعاشتهم ، على ما بينه وبينهم من تنافر

الطباع والميول ، حتى أنه ليفكر كل يوم في تقديم استقالته رغم حاجته إلى راتبه .
يقول :

” لما كنت في السودان كنت أكتب الاستقالة من عملي في الجيش ظهراً ،
حتى إذا أقبل الأصيل بنسائه مزقت الاستقالة “ (١٢) .

ويرسل حافظ إلى الإمام محمد عبده وقد توطدت علاقته به ، يشكو سوء حاله
ويلتمس منه السعى لإرجاعه إلى مصر قبل أن تزهق روحه : (١٣)

يا من تيمنت الفتيا بطلعته أدرك فتاك فقد ضاقت به الحال
وفي رسالة بعث بها إليه من السودان ، يصف تعلق آماله به في كشف هذه
الغمة ، فيقول :

” أناديه نداء الأخيذة في عمورية شجاع الدولة العباسية . وأمد صوتي بذكر
إحسانه مدّ المؤذن صوته في أذانه . وأعتمد عليه في البعد والقرب اعتماد الملاح على
نجمة القطب

وقال أصيحابي وقد هالني النوى وهالهم أمرى : متى أنت قافلُ !؟

فقلت : إذا شاء الإمام فأوبتي قريباً، وربعي بالسعادة أهلُ

وها أنا متماسك حتى تنحسر هذه الغمة ، وينطوى أجل تلك الفترة ، وينظر لي
سيدي نظرة ترفعني من ذات الصدع إلى ذات الرجح ، وتردني إلى وكري الذي فيه
درجت ، ردّ الشمس قطرة المزن إلى أصلها ، ورد الأمانات إلى أهلها... إلخ “ (١٤) .

ويتحول ضيق صدره أمام زملائه إلى سخرية وتهكم على قاداته الإنجليز
والمصريين ؛ فيشتد حنقهم عليه ، ويكتب (كتشنر) فوق ملفه ” لا يُرْفَت ولا يُرْقَى “ ،
رغبة في التنكيل به . ثم يُتهم حافظ مع آخرين بتحريض الضباط على العصيان
والتمرد ، فيحال مرة أخرى للاستيداع سنة ١٩٠٠ م ، وراتبه لا يتجاوز أربع
جنيهات . وفي القاهرة يسعى حافظ إلى وظيفة مدنية تدر عليه دخلاً إضافياً يساعده
على الوفاء بمطالب أسرته ، لكنه يخفق ويظل يخبط في مضطرب الحياة الواسع ،
يتكسب بشعره تارة ، وتمتد إليه بالعون أيدي الوجهاء والأصدقاء تارة أخرى . لقد

ندم حافظ آنذاك على تفريطه في دراسته ، فلو أنه أتمها وحصل على إحدى الشهادات العلمية ، لكان بمقدوره الحصول على عمل يقيه ذل الفقر والتكفف الذي يمارسه وهو يمد يده لتناول ما يقدم إليه من نفحات . يصف لنا حرج موقفه بعد إحالته للاستيداع فيقول :

” هأنذا وليس وراء ما بسى من سوء الحال غاية . ولو لم أكن متخرّجاً في المدرسة الحربية لكفاني العلم ذلة الفقر والسؤال . ولكنني خرجت منها كأني المعنى بقول من قال :

الجهل شخصٌ ينادى فوق قامته لا تسأل الربع ما في الربع من أحدٍ^(١٥)

ويكابد الشاعر قسوة الحياة حتى يفترّ له فم الدنيا عن ابتسامة عريضة في عام ١٩١١م ، فقد سعى أحمد حشمت باشا في تعيينه بـ(دار الكتب) بمرتبة يفيض عن حاجته وحاجة أسرته . ولم يتوقف عطاء هذا الرجل عند هذا الحد، فسعى أيضاً لتكريم حافظ بمنحه درجة (الباكوية) ثم بمنحه نيشان النيل . فليس غريباً أن نسمع الشاعر يثنى على الرجل في أكثر من موضع ومناسبة ، ويعدد ما له من أياد عنده^(١٦):

إليك ”أبا حسن“ أنمى فما زلّ مولى إليك انتسبُ
عرفتَ مكاني فأدنيتنى وشرفتَ قدرى بدار الكتبُ
فشكراً لصنعك شكر النباتِ ببطن الفلاة لقطر السُّحْبُ

وتطيب حياة حافظ في ظل وظيفته الجديدة، وتمتد إلى أن يحال إلى التقاعد سنة ١٩٣٢م، فيبدأ إحساسه بالوهن والشينخوخة ، ويلزم معظم الوقت داره لا يغادرها إلا لضرورة . ويقبل عليه الليل بهوموم ، فيقلّب صفحات ماضيه ، ويندم على حياته الزوجية التي لم تستمر سوى أربعة أشهر من عام ١٩٠٦م ، ولسان حاله يردد حسرة الفرزدق:

ندمت ندامة الكُسعَى لَمَّا غدت منى مطلقَةَ نَوارُ

فلو كان بالبيت زوجة تؤنس وحدته ، وأبناء ينشغل بهم عن همومه ، ما أحس بكل

ما يحس به من فتور الهمة ووهن الجسد ، وبما تصوّبهُ جدران البيت المقرورة إلى صدره من سهام باردة . يقول فى إجدى نوبات الندم التى كانت تعاودة ، كلما لفّه السكون ، وشمله الإحساس بالوحدة^(١٧) :

قالوا: تحررتَ من قيد الملاح فعشْ حُرّاً فى الأسر ذلُّ كنت تأباهُ
فقلتُ : يا ليته دامت صرامتُه ما كان أرفقه عندي وأحنتاهُ

ولم يمض على تقاعده سوى أربعة أشهر ونصف ، حتى صعدت روحه إلى بارئها . وكان ذلك فى الساعة الخامسة من صباح يوم ٢١ يوليو ١٩٣٢م ، بعد حياة مليئة بالبؤس والخوف والرجاء واليأس ، وبعد أن حفر اسمه فى صدور الناس ، بظرفه وبما صدحت به لهاته من شعر ، عمرت به الصحف واهتزت له المنابر ، وتعلقته النفوس مدّة طويلة من الزمان^(١٨) :

ثقافته :

يتبين لنا من العرض السابق ، أن حافظ إبراهيم لم يحصل من المدارس التى تنقل بينها علماً يُذكر ، كما أن المدرسة الحربية التى تخرّج فيها لم تفده علماً مدنياً أو عسكرياً ذا قيمة . وثقافته التى حصلها راجعة إلى جهوده الذاتية فى مطالعة الموسوعات الأدبية ودواوين الشعر العربى . ويُذكر أن همّته فى التزود من مصادر الأدب العربى فترت بعد التحاقه بدار الكتب على عكس ما كان متوقّعا . فبدلاً من أن يُكب على أوعية العلم والأدب التى تحيط به فى هذه الدار ، أدار لها ظهره لا يُلوى على واحد منها يُجيل الطرف فيه . يقول أحمد محفوظ وكان زميلاً له فى هذه الدار : ” إن حافظاً بعد أن التحق بالوظيفة فى دار الكتب ترك الكتب . فكأن هذه الأسفار المتجمعة الكثيرة العدد وراء الزجاج السميك فى مخازن لا أول لها ولا آخر ، ألفت فى نفسه السأم، فهو لا يقربها . كالطباخ الذى يطهو أصناف الطعام وينظر إليها ويحركها بيده ، ويضعها فى أوانيتها ، ثم لا تشره نفسه إليها ولا يشتهيها . لم يقرأ حافظ من عام ١٩١١م إلى ١٩٣٢م كتاباً ذا قيمة... ولولا ذاكرته العجيبة وقوة

حفظه لما استطاع أن يتصيد هذا الكلام البليغ المرصوص في شعره ونثره ، لأن عهده بالنظر في كتب الأدب البليغة، كان قد طال ومرّت عليه السنون . وهو لم يقرأ من عهد بعيد شعراً جزلاً ولا كلاماً بليغاً»^(١٩).

فالكاتب يعزو بلاغة حافظ التي تطالعنا في شعره ونثره إلى قوة ذاكرته ، وما وعت من مطالعته الكثيرة قبل التحاقه بالوظيفة .

أما الدكتور طه حسين ، فيرى أن ثقافة حافظ وفقهه العربية كانا محدودين ، إذ قصر اهتمامه على كتاب الأغاني ودواوين الشعر . فلم يحسن علوم العرب ولم يفهم فلسفتهم . كما يرى أن ذاكرته القوية الغنية كانت عوناً له في صياغة شعره، فمن الواقع الذي يعيشه يستمد مضمونه ومن ذاكرته يستمد صورته^(٢٠).

ويحدثنا محقق ديوانه عن هذه الذاكرة الحافظة الواعية فيقول :

” إذا جلست إليه أخذ يسمعك من محفوظه ما يبهرك ، حتى لقد خيّل إليّ أنه لو دوّن ما يحفظه لفاق أبا تمام في اختياره (ديوان الحماسة) ، إذ كان حافظ يتخيّر بذوق العصر وروح العصر ، وكان له حافظه قوية تسعف ذوقه وتلبى اختياره . فما يختار جيداً من القول ، حتى يرتسم في حافظته ويبقى في ذاكرته ، ثم يتجلى ذلك في شعره “^(٢١).

أما ثقافته الأجنبية، فيرى معاصروه أنها ضحلة إن لم تكن معدومة ، لأن معرفته البسيطة باللغة الفرنسية لم تكن لتمكّنه من الاطلاع على الأدب الغربي ، برغم ما يُقال عن ترجمته كتاب (البؤساء) ليفيكتور هوجو ، وكتاب عن الاقتصاد بمشاركة خليل مطران . يقول الدكتور طه حسين : ” كان حافظ يلم بالفرنسية ولكنه لم يكن يتقنها لا نطقاً ولا فهماً . ستقول ولكنه ترجم البؤساء ، واشترك في ترجمة كتاب في علم الاقتصاد مع صديقة مطران . وهذا حق فقد ترجم البؤساء أو مقداراً من البؤساء ولكن في أي مشقة ومع أي جهد ! رحم الله حافظاً ، لقد لقي في ترجمة البؤساء عناء عظيماً ، عناء في الفهم ، عناء في استشارة المعاجم ، وعناء في الصيغة العربية نفسها . وكثيراً ما كان حافظ يعجز عن فهم فيكتور هوجو فيقيم نفسه مقامه... أما

كتاب الاقتصاد فسل صديقه مطران ينبئك بالخبر اليقين . لم يستفد حافظ إذن لأدبه وشعره من اللغة الفرنسية شيئاً يذكر " (٢٢).

ويعبر الأستاذ العقاد عن مثل رأى الدكتور طه حسين، حين يرى أنه لا يوجد بين العارفين باللغات الأجنبية أحد أشبه من حافظ بمن يجهلونها ، ولا يوجد بين جاهليها أحد أشبه منه بمن يعرفونها ، فهو شاعر يصافح بيديه الأنتين هؤلاء وهؤلاء (٢٣).

وما ذهب إليه طه حسين ، والعقاد يؤكده أحمد محفوظ، فنراه يشكك فى قدرة حافظ على الترجمة عن الفرنسية ؛ وينعى عليه تشويبه كتاب هوجو ، لعدم فهمه دقائق هذه اللغة وبلاغتها (٢٤).

ولقد حصل حافظ قدراً من ثقافته وعلمه عن طريق المجالس العامة التى كان يؤمها . ومجالس حافظ نوعان : الأول ، يلقي فيه علماء وشعراء ومفكرين وساسة مثل : الشيخ محمد عبده ومصطفى كامل وسعد زغلول والسيد توفيق البكرى وحفنى ناصف والباردوى وإسماعيل صبرى وقاسم أمين والشيخ على يوسف... إلخ ، وهؤلاء وأضرابهم يطرحون عادة فى مجالسهم قضايا جادة ومسائل متنوعة ، يدلى كل واحد منهم فيها برأيه وعلمه ، فيتحصل للمستمع زاد وفير من العلم والخبرة ، يساعده على توسيع أفقه وإثراء فكره . وأما النوع الثانى من مجالسه فهو للترويح عن النفس بالمداعبة والطرفة والنكات المستملحة . وهذه المجالس كانت تنعقد عادة فى المقاهى والملاهى والحانات ، ويلتقى فيها حافظ مع بعض الظرفاء مثل محمد البابلى وإمام العبد . وكان لحافظ فيها باع طويل وحضور قوى (٢٥) . وقد تسلفت روح الدعابة التى كانت تشيع فى هذه المجالس إلى شعر حافظ ، وهذا ما سنبينه فى فصل تال.

جوانب من حياته وشخصه :

لا يُعد الحديث عن جوانب معينة فى شخصية الأديب فضلاً من الكلام ، فهو

مذهب هام فى دراسة أعمال الأدباء مازال يلقى اهتمام النقاد والدارسين . فمعرفة خصائص نفس الشاعر وطباعه ، وحتى ملامحه الجسدية ، مما يساعد على تعليل مواقفه من الأحداث وآرائه فى القضايا التى يتناولها ، ومما يعين على تحليل رؤاه ، وما يعلق به خياله من صور قد تكون ذات علاقة قوية بباطنه وما استودع من أسرار حياته . وإنى لأكتفى فى هذا المقام بما أراه فى حياته وشخصه من معالم بارزة تسهم فى فهم طبيعة نفسه ، أو فى دراسة شعره . أما باقى جوانب حياته وشخصه فلن أنطرق إليه ، إذ يمثل عبئاً على هذه الدراسة .

أولاً : ازدواج شخصيته :

لقد لقي حافظ من عنت الحياة وقسوتها الكثير . يكفى أن يستهل حياته يتيمًا لا يجد الأب الحانى الذى يضمه تحت جناحه ، ويمسح بكفه فوق رأسه . لا بد أن إحساسًا ممضًا باليتم . كان يعاوده ويلذع نفسه ، منذ أصبح صبيًا يافعًا يدرك ما يدور حوله ، ويعى من حقائق حياته المرّة ما كان من قبل خافيًا عنه . فلم يكن ليغيب عن ذهنه أنه وأمّه وأخته عيال على خاله يتسقطونه ، فيحزن ويكتم حزنه . لكن هذا الحزن والإحساس بالذلة والانكسار ، ما لبث أن أعلن عن نفسه بقوة ، يوم توعدّه خاله بالطرد . فلم يتردد الفتى فى أن يجبه خاله قائلاً^(٢٦) :

ثقلت عليك مؤونتى إنى أراها واهية
فافرّح ، فإنى ذاهبٌ متوجّه فى داهية

ولا بد أيضًا أنه خلا إلى نفسه مرّات كثيرة ، يتأمل ما هو فيه من تشردّ وضياع ، بعد أن انقطعت أسبابه بالتعليم وبالعمل ، وصار عاطلاً يُسلمه شارع إلى آخر ، فيأسى لسوء حاله ويندب حظه ويتعجل جمامه ليريح من حوله ، ويستريح من وطأة الإحساس بالتشردّ وذلة النفس . يذكر الشيخ عبد الوهاب النجار أبياتًا لحافظ تعبر عن خواطره السوداء وشعوره الدامى فى هذه المرحلة الحرجة من حياته ، منها قوله

يتعجل الموت^(٢٧) :

عجبت لعمرى كيف مُدَّ فطالا وما أثرت فيه الهموم زوالاً
وللموت، ما لي قد أراه مباعداً وجُلَّ مرادى أن أوسد حلالاً
فللموت خيراً من حياة أرى بها ذليلاً، وكنتُ السيد المفضالاً

ويوم التحق حافظ بالمدرسة الحربية ، ظن أنه ودع حياة الشقاء . لكن حياته العسكرية التي انتهت بتجربته المريرة فى السودان ، جعلته يوقن أن التحس يلازمه ، وأن المقادير تعاكسه، فانتهى به إحساسه هذا إلى حالة من التشاؤم جعلته يصاحب أبا العلاء المعرّى ويعتق أفكاره ، ويكثر من ترديد شعره ، يسرى به عن نفسه . يصف لنا إحدى حالات الأرق التي كانت تعاوده وتقض مضجعه ، فيقول :

” أخذت مضجعى وجعلت أعالج النوم، ولكن طافت بالرأس طائفة من الأفكار، فباعدت ما بين الجفنين وأرعت ما بين الجنبين. فأقض على المضجع وحرار بي الفراش، فقممت إلى الشمعة فأشعلتها، وإلى (لزوميات) أبى العلاء ففتحتها. فوقع نظرى فيها على قوله :

أيا دار الحسار ألا خلاصاً فأذهب للجنوب أو الشمال
وظلم أن أحاول فيك رجماً ولم أخرج إليك برأس مالٍ

فاستشعرت نفسى الراحة وسرّى عنى ما كنت أجده من الغم....“^(٢٨) .

وفى موضع آخر يقول :

” أخذت مضجعى فعاودنى أرق الليلة الغابرة ، فقلت : ما لهذا الأرق من دواء إلا (لزوميات) أبى العلاء، فقممت إليها وفتحتها فأخذ نظرى فيها قوله :

الروح والجسم من قبل اجتماعهما كانا وديعين، لاهماً ولا سقماً
تفرّد المرء خيراً من تألفه بغيره وتجرح الألفة النقماً

ثم قرأت قوله :

اسمع نصيحة ذى لبّ وتجربة يُفدك في اليوم ما في دهره عِلما
إذا أصاب الفتى خطبٌ يضرُّ به فلا يظن جهول أنه ظُلما
قد طال عمرى طولَ الظرفاتصلت به الأداة وكان الحظّ لو قُلما

فقلت : إى والله لقد صدق الفيلسوف . تعاف النفوس لقاء شعوب وتطلب
السلامة من عاديّات الخطوب . والأعمار كالأظفار ، كلما طالت تخلّلتها الأقدار ،
واستبشعت رؤيتها الأبصار «(٢٩) .

وهكذا كان حافظ كلما ضاق صدره وعزب صبره، ينهض إلى (لزوميات) أبى
العلاء التى يصفها بأنها ” ربيع الأرواح ومسرح النفوس “ ، يقرب صفحاتها ولا تحط
عيناه فيها إلا على ما يناسب حالته من آراء صاحبها ومعتقده ؛ يطوى بها الأوهام
ويعحو بها الآلام (٣٠) .

واعتقاد الإنسان مجافاة المقادر له وسوء طالعه فى الحياة إذا طال أمده ولم يزل
بزوال دواعيه ، كثيراً ما يتحول عند صاحبه إلى حالة من الشعور بعبث الحياة
والسخرية منها . وقد يسلك الإنسان إذا بلغ هذا الحد سبيلاً أخرى فى معيشته يطلب
فيها اللهو والمتعة الآنية التى تغتتم اللحظة الحاضرة . وقارئ شعر حافظ يجد له
شخصيتين : الأولى قائمة الملامح ، شاكية، ساخطة ، والثانية طليقة الأسارى مقبلة
على الحياة . أما الشخصية الأولى فلا يلقى بها حافظ إلا حافظاً ، كلما أوى إلى داره
ونحلا إلى نفسه ، وراح يُعمل ذهنه فى ماضيه وحاضره ومستقبل أيامه ، وينظر فى
حصاد ما مضى من عمره فيجد يده صفراً . وأما الشخصية الثانية فيلتقى بها حافظ
جلساءه الذين يخفون إلى رؤيته رغبة فى ظرفه وعذوبة حديثه وطريف نواذره . ومن
ير حافظاً فى المجالس وهو يُشيع فيها الفكاهة والدعابة ، لا يظن أن مثله يضم بداخله
إحساساً بمرارة العيش ، أو أن ظاهره يخفى تحته باطناً جهماً يمور بمشاعر آسية . ولولا
ظرف حافظ وعذوبة حديثه ما وجد سبيله ميسرة إلى مجالس الوجهاء والعلماء وقادة
الفكر وكبار الساسة ، وما تقاطر عليه آخرون من رواد المقاهى والملاهى يخفون

بمقعدته ويسعدون بالسمر معه . والأستاذ أحمد أمين على صواب حين قال يصف هذه الشخصية التي يناقض باطنها ظاهرها :

” إن طبيعة حافظ كانت مخالفة تمام المخالفة لمظهره الخارجى . كان مظهره الخارجى ضحوكاً مرحاً ، لا يراه الرائي حتى يضحك من ضحكته . ولا يكون فى مجلس حتى يملأه سروراً وضحكاً ، ولكنه فى أعماق نفسه حزين ، كالشمعة تضىء وهى تحترق ، أو كالممثل يجيد تمثيل دور الضاحك وهو فى نفسه يذوب حسرات “(٣١) .

لكننى لا أراه محققاً فيما ذهب إليه من أن روح حافظ المرحمة المحبة للدعابة لا تظهر فى شعره وليس لها فيه مجال . يقول :

” من قرأ شعره وحده ولم يعرف شيئاً من صفاته ، لا يشعر بأنه كان فكها مزاحاً ، وسبب ذلك أن الأديب فى كثير من الأحيان تكون له شخصيتان أو أكثر: فله فى حياته العامة شخصية خاصة . فإذا أراد أن يصوغ شعره أو نشره انصبّ فى قالب خاص وتقمص شخصية أخرى . ولو قد أتيح له أن يدخل كثيراً من فكاهته فى شعره، لربحنا من وراء ذلك الشيء الكثير “(٣٢) .

ولعل الدكتور عبد الحميد سند الجندى قد تأثر برأى الأستاذ أحمد أمين حيث يقول : ” إننا نلاحظ أن شعر حافظ قد خلا أو كاد من الفكاهة التى عُرف بها فى المجالس والسوامر . ولا نجد لهذه الروح أثراً فى شعره إلا أثاراً قليلة جداً أشبه بالدعابة الخفيفة منها بالنكتة والفكاهة “(٣٣) .

وحيث يقول :

” إن أشعاره التى تسرى فيها روح الدعابة لا تكاد تعدو بضع مقطوعات قليلة تعد على أصابع اليد الواحدة “(٣٤) .

وهى أحكام جانبها الصواب فى نظرى لأمرين :

الأول : أنها لم تؤسس - كما يفهم من بعضها - على استقرار تام لشعر حافظ، تُستشف منه روح الدعابة والفكاهة التى تتخلل تعبيراته وصوره المتناثرة فى أثناء هذا الشعر وتضاعيفه ، ما كان منها جاداً وما كان هازلاً .

الثانى : أن أصحاب هذه الآراء كانوا يريدون لروح حافظ المرحمة المحبة للفكاهة، أن تشيع في كل أعماله أو أغلبها ، على اختلاف مقامات القول وموضوعاته ، أو كان بعضهم يريد لدعابته أن تتخذ في شعره شكلاً أكثر حدة ينتزع القهقهة والضحك الصاخب . يقول د. عبد الحميد سند معلقاً على نماذج من دعابة حافظ : ” وتكاد دعاباته كلها تنحصر في هذه القصائد التي أشرنا إليها . وهى لا تعتبر من أنماط الفكاهة التى تقوم على ما نسميه نحن بـ(القفشات) التى تدور حول التورية والمفارقات ، وتصدر عن بديهة حاضرة وخاطر لماح كان يعرف بهما حافظ . والدعابة أخف ألوان الفكاهة، وهى فكاهة الذين يعتصمون بـ(التوقر) ، ولا تنتزع من السامعين إلا الابتسام الخفيف لا القهقهة والضحك الصاخب “(٣٥).

وهذا فهم غير صحيح لمفهوم الدعابة: يُفسد جو الصياغة الشعرية . وقد عاب المازنى على حافظ أن بلغت مداعبته أصحابه فى بعض شعره حدًا ينكره الذوق ويأباه الحياء^(٣٦). وقد أعجب العقاد بمقطوعات قليلة لأمير الشعراء تحمل روح الدعابة ، وعدّها الجانب المتميز الوحيد فى شعره ، الذى ينم عن شخصيته الحقيقية : فما بالنا بدعابة حافظ التى شغلت معظم باب (الإخوانيات) فى شعره ، وتعدته إلى مواضع أخرى من هذا الشعر^(٣٧).

ومن شاء أن يلتمس روح الدعابة عند حافظ ، فليطالع قصيدته فى تكريم حبنى ناصف التى بدأها جاداً ثم عطف على الهزل ليصوغ فيه أكثر من ثلاثة وثلاثين بيتاً . وقد أحس بإسرافه فقال :^(٣٨)

أسرفت فى المرح فاصفح يا سيدي واعف عني

وممازحته للدكتور محبوب ثابت مشهورة . وكان محبوب ثابت يكثر من حرف القاف فى حديثه ، فجعل حافظ هذه الظاهرة موضوعاً لمداعبة جاء فيها :^(٣٩)

يُرغى ويُزبد بالقافات تحسبها قصف المدافع في أفق البساتين
من كل قاف كأن الله صورها من مارج النار تصوير الشياطين
.... إلخ

وله دعابة رد بها على صديق، وقد حذف المحقق منها أبياتاً تجاوزت حد المزاح الخفيف ، منها قوله عن هذا الصديق في آخر قصيدته :^(٤٠)

ولقد عجبتُ لبخله ولكفه المتحجر
لا يصرف السحتوت إل لا وهو غير مخير
لو أن في إمكانه عيشاً بغير تضرر
لاختار سد الفتحتي من وقال يا جيب احذر

وفي القصيدة أبيات لو أنها قيلت في مقام هجاء ، لكانت هجواً قاسياً .

ولم تكن روح حافظ المحبة للدعابة مقصورة على مجال الإخوانيات ، فها هو يتحدث إلى رداء جديد له أكسبه توقيير الناس واحترامهم ، فتشيع في حديثه روح الدعابة وهو يدعو لهذا الرداء بطول العمر :^(٤١)

يا ردائي وأنت خير رداءٍ أرتجيه لزينة وازدهاءٍ
لا أحالت لك الحوادث لونا وتعدتك ناسجات الجواء
غفلت عنك للبلبي نظراتٌ وتخطتْك إبرة الرفاء
ويستمر على هذا النحو إلى أن يقول :

قعد الفضل بي وقمت بعزّي بين صحبي، جُزيتَ خير الجزاء

وفي بعض المواقف الجادة لا تفارقه هذه الروح ، ونراه يخلط جدّ القول بهزله. من ذلك قوله في حفل للبرّ دعا إليه سليم سر كيس^(٤٢) :

لولا (سليم) لم يقل قائلٌ ولم يجدْ مَنْ جادَ بالأمسِ
لله ما أشجعُه إنهُ ذومِرّةٌ فينا وذو بأسِ
يقوم في مشروعه نافذاً كأنه (عنزةُ العَبْسِي)

تلقاه فى الجـد كما تبتغى وتارة تلقاه فى (الهـلس)
 (سركيس)، إن راقك ما قلته فى معرض الهزل فقل (مرسى)

فهو يثنى على الرجل أمام الناس فى هذا الموقف الجاد ثناء المازحين ، ويُسمعه على
الملا ما اعتاد أن يُسمعه إذا خلا به أو ضمهما مجلس للهو أو لسمر . ولاشك فى أن
قوله هذا قد أضحك الحضور وأولهم سليم سركيس نفسه .

بل يقف حافظ موقفاً لا يقبل إلا الجـد ، فتطفر من فمه الذى اعتاد فى مخاطبة
الإخوان على المداعبة ، عبارة ذات دلالة قوية على تمكّن روح المزاح من نفسه :
فنسمعه يرثى (ملك ناصف) ويصف ذهول أبيها لوفاتها ، بقوله^(٤٣) :

لا كان يومك يوم لا ح الحزن مختلف الصور
علمت هاتفة القصور ر نواح هاتفة الشجر
وتركت شيخك لا يعى (هل غاب زيداً أو حضر)

يقصد بالشيخ أباهـا حفى ناصف وكان عالماً بالنحو مشتغلاً بتدريسه . ولأن مدار
الأمثلة فى دروس النحو القديمة على (زيد وعمرو) ، راح حافظ يزوج بأحدهما فى
هذا المقام الجاد ، ولم ير وسيلة أخرى للتعبير عن تفجّع الأب وذهوله غير هذه الكناية
التي ترسم البسمة قسراً على شفاه حاضرى العزاء .

ولتنظر إلى القصة العجيبة التي ابتدعها له خياله الهازل ، وصدر بها واحدة من
قصائده . والقصيدة مدحة فى محمود سامى البارودى ، اصطنع حافظ فى مقدمتها
الغزلية زيارة لمحبوته ، تعمّد أن تكون فى ليلة قمراء تغرى به الرقباء ، الذين ما إن
رأوه مقبلاً نحوهم كالموت ، حتى تظاهروا بالنوم اتقاء شرّه . وإمعاناً منه فى إظهار
جرأته ، صمم على أن يبطأ أحشاهم متخذاً سبيله إلى محبوبته . وهى قصة نسج
خيوطها خيال هازل ، أراد مخالفة الشعراء القدامى فيما يدونه فى هذه الزيارة من
حذر وتهيب ، فكانت هذه القصة الطريفة الفكهة^(٤٤) .

لقد كان حافظ إبراهيم كما يصفه الأستاذ أحمد أمين : ” زينة المجلس وبهجة

النادى»^(٤٥). وكان لشخصيته المرححة حضور قوى فى شعره ، كما كان لها فى مجالسه . ولعل ما ذكرناه من أمثلة قليلة كافٍ للتدليل على ذلك . وقد كان حافظ يعلم هذه الميزة فى شخصه ، التى تفتح له الأبواب وتفسح له مكاناً واسعاً فى الصنف . فنجدده يقف بباب سعد زغلول قائلاً لحاجبه :^(٤٦)

قل للرئيس أدام الله دولته بأن شاعره بالباب منتظرٌ
إن شاء حدثه أو شاء أطربه بكل نادرة تُجلى بها الفكرُ

ثانياً : خوفه :

يبدو أن الفقر الذى عانى منه حافظ طويلاً ، تجسّد له وانتصب أمام عينيه شبحاً مخيفاً يتهدهده ويسد عليه مسالكه ، ويملى عليه فى المواقف من الأقوال ما لا يتوقع الناس منه ، وما لا يرضى هو عنه فى قرارة نفسه . وهذا الخوف من أن يعاوده الفقر جعله يجمال الإنجليز الذين يمجّتهم إلى حد امتداحهم والثناء على سياستهم ، وهو (شاعر النيل)، بل (شاعر الوطنية الأول) كما لقبته جريدة اللواء ، منير مصطفى كامل ، وصوت الشعب المصرى المجاهد . ولست الآن بصدد تقديم الشواهد والأدلة، فهى ذائعة فى شعره ، وسأعرض لها فى موطن آخر من الدراسة . لكننى أردت تعليل ما يجده القارئ فى شعر حافظ إبراهيم من مفارقات عجيبة ، كان هذا الخوف من الفقر مصحوباً بالخوف من بطش الإنجليز أهم أسبابها. هذه المفارقة التى تصل أحياناً إلى حد التناقض ، مما يعرض وطنيته للتساؤل ، والاتهام . لم يبلغ حافظ وظيفته بدار الكتب التى كفلت له راتباً يضمن له معيشة كريمة ، إلا بعد أن كَلَّت قدماه من السعى، وكاد -على حد قوله- يتتعل الدّما^(٤٧) :

سعىتُ إلى أن كدتُ أنتعل الدّما وعُدتُ وما أعقبتُ إلا التندّما

وكان طوال سعيه يستقدم الموت ويتعجله، يراه منقذاً له مما هو فيه من ذل العوز:

سلام على الدنيا، سلام مُودّع رأى فى ظلام القبر أنسا ومغنا
فهبى رياح الموت نُكبا وأطفئى سراج حياتى قبل أن يتحطما
ولم يكن حافظ يكتنم خوفه من الإنجليز والسلطة القائمة فيما يكتب أو يتحدث
فراه يصرّح بضعفه وبأنه لا يأوى بين الناس إلى ركن شديد يقيه ويذود عنه^(٤٨) :

* ضعيفٌ وما لى فى الحياة نصيرٌ *

ونجده فى (ليالى سطيح) يذكر موقفاً له وهو بالسودان ، جرّب فيه مصارحة
بعض الإنجليز برأى له فى سياستهم ، ويذكر أنه اضطر إلى تغيير موقفه فى الحال حين
لمح فى أعينهم إنكاراً خاف عاقبته ، بأن تمحلّ فى تأويل رأيه بما قلب سخطهم عليه
إلى رضا عنه^(٤٩).

ولكم عبّر الشاعر عن الصراع القائم فى نفسه ، بين رغبته فى إبداء رأيه
ومعتقده ، وبين خوفه من أن يعرضه ذلك لأذى لا يحتمله^(٥٠) :

إذا نطقتُ ففقا ع السجن متكأً وإن سكتُ فإن النفس لم تطبِ

والخوف بذرة خبيثة ، متى تفتقت وأورقت فى صدر الإنسان ، لا يقف نموّها
عند حد ، بل تضرب بجذورها وتمد فروعها فى كل نواحي حياته ، وتكيف له أفعاله
وأقواله . فإذا كانت هذه البذرة ترتوى من حرص الإنسان على الحياة وضرورات
هذه الحياة ، كان تأثيرها أعتى وأشد . وأصحاب حافظ وجلساؤه يعرفون شدة تمكن
الخوف من نفسه وتأثيره الشديد فى سلوكه ، ويتخذون ذلك سبباً لممازحته أو
للتندر عليه . يقص علينا الدكتور طه حسين أنه طلب من حافظ إذاعة بعض شعره
الوطنى فى الصحف ، وأنه أبدى له استعداده فى حال نشره لتقريظه والثناء عليه .
لكنّ حافظاً رفض هذا الطلب قائلاً :

” اذمنى ما شئت فى غير تحفظ فلن أنشر هذا الشعر لأنى لا أريد أن أحوال على
المعاش الآن “^(٥١).

لهذا يرى الدكتور طه حسين أن تعيينه بدار الكتب كان نعمة عليه ونقمة على
الشعب ، إذ حُرّم هذا الشعب شاعره . يقول : ” أسند إليه منصب فى دار الكتب... ”

فاضطر إلى أن يصانع ويدارى ويحسب للقول حساباً ، ويكظم نفسه على ما تكره ، ويترك شعبه من غير ترجمان . رحم الله حشمت باشا ، أراد أن يبرّ بصنديقه ويحميه من البؤس والشقاء ويمهد له حياة ناعمة راضية ، فحرم أمته شاعرها ، وطمر أو كاد يطمر هذا النبوع الصافى العذب «(٥٢)» .

وماذا لو لم يستطع حافظ كظم غيظه ، واضطر إلى إبداء رأيه والإعلان عن معتقده فى سياسة الإنجليز وعسفهم؟! كان الحل جاهزاً ، وهو أن يجهر بالرأى ثم يعزوه إلى الآخرين ، فينقله من الخصوص إلى العموم وينجو من تحمّل للمسئولية ، لأنه ناقل ، مجرد ناقل . فنسمعه بعد أن يعدّد سوءات كرومر يقول له (٥٣) :

فهذا حديث الناس، والناس ألسنٌ إذا قال هذا، صاح ذاك مفئداً
ولو كنتُ من أهل السياسة بينهم لسجّلتُ لى رأياً وبلّغتُ مقصداً
ولكننى فى معرض القول شاعرٌ أضاف إلى التاريخ قولاً مخلداً

ولم يدفعه حرصه وحذره إلى التنصّل من هذه الآراء بنسبتها إلى الناس فحسب، بل دفعه أيضاً إلى أن يستلّ نفسه من السّاسة أصحاب الرأى ، ليعد عنه بذلك ما قد يعلق به من اتهام .

ولا ينبغى لدارسٍ أن يحمّل حافظاً من أمره عسراً، فينحى عليه باللوم ، أو يجردّه من وطنيته ، لأنه لم يقارع الإنجليز ولم يندد بفساد السلطنة فى مصر . فلم يكن سليل أسرة ثرية وعريقة الجذور فى المجتمع المصرى ، يستمد من ثرائها ضمناً لقوّته ، ومن أشياعها الكُثُر حماية وقوة . كما أنه لم يكن يحظى بمثل ما يحظى به الزعماء من التفاف الشعوب حولهم وزيادها عنهم ، فتذهب عن نفسه مهابة النزال ، ويلقى خصمه، لا بقوّته وإنما بقوة الشعب من حوله . كان شوقى يسند ظهره إلى القصر ويحس أنه قادر على أن يدرأ عنه عادية الانتقام ، فكان جريئاً فى بعض المواقف . أمّا حافظ فحسبه وهو الفرد الضعيف أنه كان يجهر بغيظه الإنجليز أحياناً . علينا أن نتعامل معه بوصفه بشراً ، يدور فى فلك البشرية الواسع بكل غرائز البشر

وأحاسيسهم . ولا يوجد إنسان قادر على أن يتسامى فوق حاجات واقعه البشرى على النحو المثالى الذى نريد . الأنبياء فحسب هم القادرون على هذا الارتقاء ، بفضل ما أمدهم الله به من يقين وأمكنهم من قدرة . وإن من الرُّسل من جرّب هذا الضعف البشرى فى مرحلة من مراحل حياته أو أدائه رسالته .

ثالثاً : غريزته للمرأة :

لم يستمر زواج حافظ إبراهيم سوى أربعة أشهر من عام ١٩٠٦م ، وانتهى هذا الزواج دون عقب . وأسباب فشل هذا الزواج غير معروفة يقيناً ، وإن كان أحمد محفوظ وهو مقرب إلى الشاعر ، يذكر من العلل ما يمكن أن يكون وراء هذا الإخفاق . من هذه العلل ، أن حافظاً لم يشاهد عروسه قبل الزفاف نزولاً على تقاليد عصره ، فلما التقاها بيته لم تنزل من قلبه منزلاً حسناً . ومن هذه العلل أيضاً ، أن حافظاً أدركه بعض طبعه القديم من مللٍ ورغبة فى الهروب من تحمّل التبعات ، فأثر حياة الأعزب^(٥٤) .

عاش حافظ بعد هذه التجربة ستاً وعشرين سنة ، دون أن يفكر فى معاودتها لأسباب مجهولة ، غير تلك التى ذكرها أحمد محفوظ ، لعلها الأسباب نفسها التى دفعت به إلى التحرر من الزواج بعد أشهر قصار . أقول مجهولة لأنى لا أعتقد أن روح الملل والضجر التى اتصف بها الشاعر طوال حياته ، كانت قادرة على أن تصرفه عن معاودة التجربة خلال تلك المدة الطويلة ، لو أنّ بداخله رغبة قوية عارمة، تدفع به إلى الاقتران بالأنثى . وكى من رجل مثل حافظ هدّب الزواج طباعه وبدّلها إلى الأفضل ، بسبب حرصه الغريزى على استمرار هذه العلاقة ، التى تشبع حاجاته الروحية والجسدية . كما أن حافظاً لم يكن معسراً طوال هذه الفترة ، فأخباره تؤكد أنه كان بعد تعيينه بدار الكتب موسراً شديداً البذخ . ولو كان الأسلوب التقليدى الذى تزوج حافظ به السبب فى فشل زواجه الأول، فىئنى لا أراه سبباً يمنعه من

معاودة الزواج، وهو يرى كثيرين غيره يتزوجون بهذا الأسلوب وينجحون، ومن لم يوفق منهم مرة، يجرب حظه أجرى تلبية لإلحاح الحاجة لديه .

إذن فالطلاق ثم عزوف الشاعر عن الزواج - فى رأى - لا يمكن أن نعللها بأسباب خارج الطبيعة (البيولوجية) للشاعر ، تلك الطبيعة التى لم تجعله يحس توافقاً فى زواجه الأول ، كما أنها لم تجعله يحس بداخله هذه الرغبة الجارفة التى تدفع بالرجل فى طريق المرأة ، فلم نجده يسعى إليها ثانية وثالثة، والمرء كما ورد فى القول السائر " يسعى لغاريه بطنه وفرجه " . فضلاً عما سبق نجد من القرائن ما يؤكد هذا الرأى ، وهى قرائن إن تكن منفردة لا تنهض دليلاً قوياً على ما نذهب إليه ، فإنها مجتمعة يقوى بعضها بعضاً وتؤكد صحة استنتاجنا . (أولاهما) : أن تجربته الأولى لم تخلف عقبا . و(ثانيتهما) : اختفاء أحاسيسه نحو المرأة تماماً من شعره مثلما اختفت هى بسرعة من حياته . وظاهرة غير مألوفة ، أن تحتفى ملامح المرأة تماماً من ديوان حافظ بينما شعراء جيله كلٌ يرسم لها من الصور ما استطاعت ريشته ويثها عواطفه ما وسع قيثارته . و(ثالثتها)، وهى أقوى القرائن وأشدّها تأكيداً لهذا الرأى : هذه الغريزة المنعكسة والإحساس المقلوب الذى يصفه شعر حافظ وتذكره أخباره . فالشاعر يستبدل بالهيام بالأنثى هياماً بالحسان من الذكور . يكلف بهم ويتغزل بمحاسنهم ، وكأنه يجرب الخطو على طريق أبى نواس . وهذا كل ما له فى الشعر من الغزل .

يحدثنا أحمد محفوظ عن ولع حافظ بالجمال ، وأنه كان موكلاً به يعشقه حيث كان . لكن الروايات التى يرويها عن ولع حافظ تؤكد أمراً واحداً ، وهو أنه لم يكن يطلب هذا الجمال ولا يحسّه إلا عند نظرائه من الذكور ، يستهويه ما يسمع من أنباء حسنهم ، فيجهد نفسه لرؤيتهم . ولعل هذه الغريزة المعكوسة ، التى تحولت عن اتجاهها الصحيح ، هى التى جعلت الشاعر موضع اتهام فى بعض الأحيان ، وإن كان صديقه يدافع عن طهارته ويؤكد أنه لم يرتكب فى حياته شذوذاً ولا غير شذوذ^(٥٥) .

ولئن كان حافظ موكلاً بالجمال كما يذكر أحمد محفوظ ، ورزق ما يُرزق

الرجل عادة من ميل غريزي للمرأة ، فإن محاسن الأنثى لا الذكر أول شيء يستهوى نفسه . فلم لم تتحرك نفسه لوصف امرأة حسناء ، مع أن عينه كانت تقع على النساء كثيراً فيما يرتاد من المنتديات والملاهي والمراقص؟^(٥٦) لم يبدع حافظ للجمال الأنثوى صوراً في شعره ، ولم يصف شيئاً من أشواق الرجل على نحو ما فعل شعراء عصره والشعراء على مر العصور .

ليس البحث في هذا الجانب من شخصية الشاعر فضولاً من القول ، لأن ما نرجّحه من فقدانه الإحساس بالمرأة والرغبة فيها ، كان سبباً في اختفاء ملاحظتها تماماً من شعره وفي عدم ولوجه باب الغزل . وعلينا أن نحمل بعض قوله على هذا العجز ، كقوله في مستهل قصيدة يمدح بها الإمام محمد عبده^(٥٧) :

بلغتك لم أنسب ولم أتغزلٍ ولما أقف بين الهوى والتدليل

فلم يكن باستطاعته المضي في الغزل لو بدأه ، لأن ملامح المرأة لا تتزأى بوضوح لعيني خياله ، ولو سنحت لهما فإنها لا تثبت حتى يتقن عرضها . وهل كانت ملامح ليلي التي وصف شوقي في روايته، وأشواق المجنون التي أسعر بها بيداء نجد فوق سعيرها ، هل كان هذا كله إلا وثبة من وثبات الخيال استطاع شوقي أن يحط بها على الكثير من صور الحسن ومعاني الهيام والحب ، بفضل ما يغذو نفسه من إحساس قوى بالمرأة ، ومن تأصل قديم لغريزة الحب في صدره ١٩ وما أصدق حافظاً مع نفسه حين يقول^(٥٨) :

* وبلغا الغيد عنى سلوة الغيد*

فإن هذا القول يمثل حقاً مذهبه نحو المرأة في حياته وشعره . فقلبه لا يخفق لامرأة ، وخياله لا يكاد يحط على شيء من ملاحظتها . وهو نفسه يؤكد إحساسه هذا في غير موضع من شعره ، فيقول في طور نضجه واكتماله^(٥٩) :

عدمتُ يراعتي إن كان ما بي هوى بين الضلوع له ضرامُ
وما أنا والغرام، وشاب رأسي وغال شبابي الخطبُ الجسامُ

كما يقول^(٦٠) :

فما أنا واقف برسبوم دار أسائلها ولا كلف برؤد
وليس انصراف حافظ عن ذكر المرأة خطة منه ، وإنما هو فن لا يتقنه وإحساس لم
يكن يخالجه .

بعد هذه القرائن مجتمعة ، أستطيع الجزم بأن اختفاء المرأة من حياة حافظ
وشعره، لم يكن للأسباب التي ذكرها أحمد محفوظ ، ولا لأن ضيقه بالحياة وسعيه
وراء الرزق كانا يملآن مجال تفكيره ووجدانه كما يذهب الدكتور عبد الحميد سند
الجندي^(٦١)، وإنما بسبب ما قد يكون قد مئى به من فتور فى ميله الغريزى للأثنى .

رابعا : علاقته بالإمام محمد عبده وأحمد شوقى :

لا ينبغي لدارس يتحدث عن حافظ أن يُغفل هذا الجانب الهام فى حياته ،
فللرجلين فى نفسه تأثير شديد وإن كان مختلفاً ، يجعلنا نفرّد لعلاقته بهما حديثاً
خاصاً.

علاقته بالإمام محمد عبده :

كان الإمام محمد عبده شخصية متميزة، تحظى بحب العامة واحترام الخاصة .
وقد بلغ الرجل هذه المكانة من نفوس الناس بفضل مواقفه الثابتة وآرائه المستنيرة فى
الدين والسياسة وقضايا المجتمع المختلفة . وبرغم ما أثاره من خصومات بسبب جرأته
وفكره المتجدد ، كان خصومه يخشونه ويكبرون قدره . وكان محمد عبده امتداداً طيباً
لـ(جمال الدين الأفغانى) ، إمامه ومثله الأعلى ، فى تحرر الرأى ورباطة الجأش ،
والتصدى لكل مظاهر الزيف .

بدأت صلة حافظ بالإمام فى حلقات الدرس التى كان الإمام يعقدها بالأزهر

عصر كل يوم ، يلقي فيها دروساً في الفقه والتفسير والفلسفة والبلاغة والتاريخ... إلخ، وكان كثير من رجال مصر وشبابها المستنيرين ، مثل سعد زغلول وقاسم أمين ، يختلفون إلى هذه الحلقات ، يفيدون مما يُطرح فيها من موضوعات بأسلوب جديد يخالف ما اعتاده الناس آنذاك لدى علماء العصر . وكان حافظ يوم بدأ يتردد على محاضرات الإمام ضابطاً بالجيش ، وكان حريصاً على متابعة هذه المحاضرات حتى صار وجهاً أليفاً لدى الإمام ، فأدناه منه ، ثم دعاه إلى داره في (عين شمس) ، فاتخذت علاقتهما بذلك طابعاً خاصاً^(٦٢).

ويسافر حافظ إلى السودان ، وتضيق نفسه بما يلقي من سوء معاملة الإنجليز ، ومن قسوة الحياة هناك، فيهيّب بالإمام أن يسعى في إرجاعه إلى مصر قبل أن تزهق روحه^(٦٣) :

يا مَنْ تيمّنت الفُتيا بطلعتِه أدرك فتاك فقدضاقت به الحالُ

ويكتب إليه رسالة يصف فيها نثرًا وشعرًا ما يعانیه ، ويستنجزه وعده بالسعى من أجل إعادته : ” أناديه نداء الأخيذة في عمورية شجاع الدولة العباسية ، وأمدّ صوتي بذكر إحسانه مد المؤذن صوته في أذانه ؛ وأعتمد عليه في البعد والقرب ، اعتماد الملاح على نجمة القطب

وقال أصبحابى وقد هالنى النوى وهالهم أمرى : متى أنت قافلُ ؟

فقلت : إذا شاء الإمام فأوبتى قريبٌ، وربعى بالسعادة أهلى

وها أنا متماسك حتى تنحسر هذه الغمرة وينطوى أجل تلك الفترة ، وينظر لى سيدى نظرة ترفعنى من ذات الصدع إلى ذات الرجوع ، وتردنى إلى وكرى الذى فيه درجت ، ردّ الشمس قطرة المزن إلى أصلها ، ورد الأمانات إلى أهلها...»^(٦٤).

وكان يحلو لحافظ أن يلقب نفسه بـ(فتى الإمام) ، مقتبساً هذا اللقب لنفسه من قوله تعالى فى سورة الكهف : ﴿وَإِذ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾^(٦٥) ، فهو يشبه نفسه من الإمام ييوشع بن نون الذى رافق موسى

عليه السلام يهتدى بهديه ويستنير بعلمه . ونراه يكرر هذا اللقب مؤكداً تواضعه
ومعبراً عما يحس من فضل الرجل عليه . فإذا لم يكن من الإمام كيوشع من موسى ،
كان منه كموسى من الخضر عليهما السلام^(٦٦) :

وكنْتُ كما كان (ابن عمران) ناشئاً وكان كمن في (سورة الكهف) يوصفُ
كأن فوادي إبرة قد تمغطتُ بحبك أنى حُرِّفتُ عنكَ تعطفُ

وبعد عودة حافظ من السودان لزم الإمام خمس سنوات حتى وفاته ، لا يكاد
يفارقه في مجلس أو سفر . فهو معه أينما سار وأينما حل ، يتفياً ظلّه وينعم من رِفده
بما يكفي لحياة كريمة^(٦٧) .

ويشير أحمد محفوظ إلى جفوة حدثت بين الرجلين . لكن الشاعر -وقد كان
السبب فيها- سرعان ما يعود إلى الإمام معتذراً بأجمل قول^(٦٨) :

لقد بتُّ محسوداً عليك لأننى فتاك، وهل غيرُ المنعم يُحسدُ؟!
فلا تُبلغ الحساد منى شماتةً ففعلك محمودٌ، وأنت مُحمَّدُ

ولا يفتأ الشاعر يذكر ما هو فيه من نعمة بقربه من الإمام ، تجلب عليه حسد كثيرين
من ينفسون عليه هذه المكانة^(٦٩) :

أيهذا الإمام أكثرت حساً دى فباتت نفوسهم فى التهابِ
أبصروا موقعى فعزُّ عليهم منك قربى ومن عُلاك انتسابى

ويذكر لنا حافظ فى هذه القصيدة ، سعى بعض الحاسدين للتفريق بينه وبين الإمام ،
لعل هذا يُذهب ما فى نفوسهم من غيظ :

أجمعوا أمرهم عشاء وباتوا يُسمعون السورى طنين القبابِ
ونسوا ربهم وقالوا ضمنا بعده عن رحاب ذاك الجتابِ

لم يكن حافظ ينى فى امتداح الإمام بما كان أهلاً له . فنراه يمتدحه بالتقى والعلم، وبما
يبدله من جهود لإعلاء راية الدين . فإذا ولى أمر الإفتاء نهض يقول له^(٧٠) :

لئن ظفر الإفتاء منك بفاضلٍ لقد ظفر الإسلام منك بأفضلٍ
فما حلَّ عقد المشكلات بحكمةٍ سواك ولا أربى على كلِّ حوّلٍ

ويشبهه وقد حلَّ بدار الإفتاء بـ(الفاروق) عمر بن الخطاب ، تقىً وحكمة وعدلاً
وتواضعاً ، ثم يصوّر الأثر الطيب لتوليّه هذا المنصب الهام فى حياة المسلمين ،
فيقول^(٧١) :

إنى لأبصرُ فى أثناء بردهِ نوراً به تهتدى للحق ضلالاً
رأيت فيها بساطاً جلّ ناسجهُ عليه(فاروق) هذا الوقت يَخْتالُ
بمشية بين صفى حكمةٍ وتقىٍ يُحبها الله، لا تية ولا خالُ
تبسّم المصطفى فى قبره جَدلاً لما سموت إليها وهى معطالُ

ويتعرّض الإمام لمكيدة تنال من سمعته، فيهب حافظ منافحاً عنه ومنذداً بعصبة
الشر التى سعت للنيل منه بنشر صور مزيفة تزرى بقدره^(٧٢) :

إن صوّروك فإنما قد صوّروا تاج الفخار ومطلع الأنوارِ
أو نقّصوك فإنما قد نقّصوا دين النبى محمد المختارِ
سخرّوا من الفضل الذى أوتيته والله يسخر منهم فى النارِ
لا تسجّز عنّ فلست أوّل ماجدٍ كذبت عليه صحائفُ الفجارِ

فلما توفى الإمام محمد عبده ، بكى الشاعر كثيراً الركن الذى كان يأوى إليه
ويحتمى به . ولم يترك يوم رثاه شيئاً من مناقبه إلا ذكره ، ووصف فجيعه الإسلام فيه
فبالغ فى الوصف . لكن يهمنى من شعره فى هذا المقام ، ما أشار فيه إلى خسارته
الشخصية ، وهو قوله^(٧٣) :

بكيّنا على فردٍ وإن بكاءنا على أنفس لله منقطعاتِ
تعهدنا فضل الإمام وحاطها بإحسانه والدهر غير مواتى
فيا منزلاً فى(عين شمس) أظلّنى وأرغم حسّادى وغم عِداتى
عليك سلام الله مالك موحشاً عبوس المغانى مقفّر العرصاتِ

وحافظ أول هذه الأنفس التي كان الإمام يتعهدا برعايته ورفده . وكانت ظروفه آنذاك شديدة المخرج لتعطله عن العمل .

وبقى جرح الإمام بصدر (فتاه)، لا يكاد يهدأ حتى يعاوده ما يهيجه ويدميه . فكلما وقف يشيع راحلاً جديداً، تمثل شخص الإمام فجعل يبكيه ويتحسر على أيامه، ولم تستطع السنون أن تأسو جرحه فيه كما تأسو جراح الآخرين . فهذا هو يرثي قاسم أمين فيقول له^(٧٤) :

قل للإمام إذا التقيت به في الجنتين بأكرم النزل :
إن الحقيقة أصبحت هدفاً للراكبين مراكب الزلل
لله آثارٌ لكم خلدت صاح الزوال بها فلم تزل
لله أيامٌ لكم درجت طالت عوارفها ولم تطل
نعم الظلال لو أنها بقيت أو أن ظلاً غير متقل

وبعد وفاة الإمام بتسع سنوات، يرثي جورجى زيدان ، فلا ينسى أن يقول^(٧٥) :

أفى كل يوم يبضع الحزن بضعة من القلب إنى قد فقدت جتاني
كفانى ما لقيت من لوعة الأسى وما نابنى يوم (الإمام) كفانى

ثم نراه بعد انقضاء سبعة عشر عاماً على رحيله ، يطرى أياديه ويترحم عليه ، ويصف الفراغ الذى خلفه ولا يجد من يعمره . يمثل علمه وحكمته^(٧٦) :

قد مضت عشرٌ وسبعٌ والنهى فى ذبول والأمانى فى نضوب
نرغب الأفق فلا يبدو به لامعٌ من نور هادٍ مستثيب
وننادى كلٌّ مأمولٍ وما غير أصداء المنادى من مجيب
أجذب العلم وأمسى بعده رائد العرفان فى واد جليبي

هذا هو وفاء حافظ إبراهيم ، يبدو أمام القارئ صفحة مشرقة فى سجل العلاقات الإنسانية . ولم يكن تقادم عهده مع (الإمام) ، أو تحسن حاله مع كثرة معارفه وخلانه ، لينسيه ما نال من عوارفه .

علاقته بشوقي :

حافظ وشوقي ، اسمان ارتبطا في أفئدة الناس وعقولهم . فإذا ذكرنا أحدهما تبادر إلى أذهاننا الآخر وتراءى لنا شخصه . كانا صنوين من حيث اهتمام الناس بهما ، وإن لم يكونا كذلك في حياتهما ، فقد فرقت بينهما طباعهما وظروف عيشهما ، حتى كأنهما فيما يعيشان ويسلكان على طريقي نقيض .

قضى شوقي صباه وشبابه منعمًا ، مطمئن النفس ، لا يتهدده فقر أو جوع . واختلف إلى معاهد العلم في الداخل والخارج ، فحصل من ذلك زادًا وفيرًا بواه من القصر الحاكم مكانة مرموقة ، كان يغبطه عليها كثير من سراة مصر ووجهائها . ويكفى شوقي ما حظى به من مودة ساكني هذا القصر وحبهم صغيرًا وكبيرًا ، حتى أن قارئ سيرته يحسب أنه كان معدودًا في أهل هذا القصر ، يجري في عروقه من الدم ما يجري في فروع الشجرة العلوية .

أما حافظ فقد دميت نفسه بأشواك الحياة ، وجرب من غصصها ما جعله - كما سنرى في فصل تال - يؤثر الموت خلاصًا له مما يكابده . وكأني بحافظ قد أراد مقابلة ماضيه البائس بنشأة شوقي المنعمة ، يوم وقف في مهرجان تكريمه يقول له (٧٧):

نمتك ظلالٌ وارفاتٌ وأنعمٌ ولين عيشٍ في مصيفٍ ومربحٍ
ومن كان في بيت الملوك ثاوؤه ينشأ على النعمى ويمرّح ويرتع

كان جيلهما يضم شعراء آخرين ، لكن ما بلغاه من ذبوع الصيت ، أحمّل غيرهما من الشعراء المجيدين ، وجعل صدارة الشعر وقفًا عليهما . وكما احتكر (زيد) و(عمرو) دروس النحو القديمة ، وارتبطا فيها ، ارتبط حافظ وشوقي في مجالس الأدب وعقول طلاب العلم . فإذا طلع أحدهما على الناس بقصيدة في إحدى المناسبات ، انتظروا أن ينشدهم الآخر دون إبطاء في المناسبة نفسها . فإن لم يحدث ، تساءلوا ، واستنكروا ، وراحوا يفسرون ويذهبون في تفسيرهم كل مذهب . وكأنه

صار لزاماً على الشاعرين أن يجتمعا في أحداث الأمة ومناسباتها مثلما اجتمعا في صدور الناس واهتمامهم . ولعل الشاعرين أيضاً كانا حريصين على ذلك ، إرضاءً لحاجة الناس ودفعاً لمظنة العجز . يذكر أحمد محفوظ أن حافظاً لم يكتب قصيدته في رثاء (تولستوى) إلا لأن شوقي رثاه ، ولم يكن حافظ يعرف من أمره شيئاً . فقد رثاه حباً في المنافسة^(٧٨) .

وما أكثر ما جمع الدارسون في مؤلفاتهم بين هذين الشاعرين ، أو أفردوا لهما من الأبحاث . ساروا في ذلك على خطة الدكتور طه حسين في كتابه الشهير (ذكرى الشاعرين : حافظ وشوقي) ، وراحوا يقارنون بين حياة الرجلين وإبداعهما .

ويذكر محققو ديوان حافظ ، أن طلاب الجامعة كانوا في حياة الشاعرين يتوزعون إلى فريقين فحسب ، فريق يتعصب لحافظ ويفضله على شوقي ، وفريق ينتصر لشوقي ويرجح كفته . ويقولون : ” كنا نلاحظ أن من فضل حافظاً كان يفضل له لأن شعره غذاء قلبه وغذاء وطنيته ، ومن فضل شوقي فضله لفنه وخياله . فشبيبة الوطنية إمامهم حافظ ، وشبيبة الفن إمامهم شوقي “^(٧٩) .

وفي هذا القول جانب من الصحة ، وهو تفوق شوقي على حافظ فيما كان يحطّ عليه بخياله من بديع الصور . أما ضعف وطنية شوقي ، فتهمة ألصقت به وهو منها براء . لم يتسبب في هذه التهمة - كما يتضح لكل دارس محقق - سوى قرب شوقي من القصر وتقلّبه في نعمائه ، لا يكاد يواجه شيئاً من وعثاء الحياة إلا ما كان من أمر نفيه . استغل بعض النقاد - ومعظمهم خصوم شوقي - هذه الصلة ، فبالغوا في وصف تأثيرها السلبي على الشاعر ، وجعلوها حائلاً بينه وبين الإحساس بمعاناة الأمة . ومن ثم ، فإن حظ شوقي من الوطنية - في نظرهم - قليل ، لا يرقى إلى حظ حافظ ، الفقير المعدم الذي ينتمى إلى بسطاء الشعب ، وكان يجالسهم على المقاهي ويخالطهم في الشوارع والأسواق . وكان الوطنية في نظر هؤلاء إحساس مقصور على كل من عضّه الفقر بناه ، وزاحم بمنكبيه جموع الفقراء . لاشك في أن هذا

معيّار خاطيء ، لأنّ الوطنية غيرّة وإحساس ينشأ بصدر الغنى كما ينشأ بصدر الفقير .
 وكثير من زعماء الحركة الوطنية وقادة النضال كانوا من وجهاء مصر وسرّاتها .
 والشعور الوطني - كغيره من أنواع الشعور - قد يظلّ حبيسًا بصدر صاحبه فلا نعلم
 من أمره شيئًا ، وقد يعبر عن نفسه في فعل أو قول ، فنستدلّ بذلك عليه . فإذا كان
 هذا الأمر الثاني علامة (الوطنية) ، فشرع شوقي ملىء بحماسة وطنية يعز وجودها في
 شعر حافظ . ففى شعر حافظ من المطامنة للإنجليز ما لا نقع عليه فى شعر شوقي ، وما
 تربأ نفس شوقي عنه . وهذا موضوع لا نعالجه تفصيلًا فى هذا المقام ، ونرجئه لفصل
 تال .

يُدى حافظ فى شعره ودًا كثيرًا لشوقي وإعجابًا زائدًا بشعره ، ولا يكاد يترك
 مناسبة لإبداء هذا الشعور إلا اغتمها . فراه يحميه يوم توجه لإلقاء كلمة مصر بمؤتمر
 المستشرقين ، قائلاً له (٨٠) :

يا شاعر الشرق اتعد	ماذا تحاول بعد ذاك ؟
هذى النجوم نظمتها	درر القريض وما كفاك
والبدر قد علمته	أدب المشول إذا رآك
وسموت فى أفق السعو	د فكدت تعثر بالسّماك

كما نسمعه يقول له فى مناسبة الإنعام عليه برتبة علمية (٨١) :

إن هناؤك بها فليست مهناً	إنى عهدتك قبلها محسودا
قد كان قدرك لا يُحدّ نباهة	وسعادةً فغدا بها محدودا

وحيث نقى شوقي إلى أسبانيا ، لم يتخلّ حافظ عنه كما تخلّى آخرون ، وكانت
 بينهما رسائل من نثر وشعر تنم عما يكون بين الصديقين من مودة خالصة . فإذا
 كتب شوقي إلى حافظ يشه أحزانه وحنينه للوطن (٨٢) :

يا ساكنى مصر إنا لانزال على عهد الوفاء - وإن غبنا مقيمينا
هلاً بعثتم لنا من ماء نهركم شيئاً نبل به أحشاء صاديتنا
كل المناهيل بعد النيل آسنه ما أبعد النيل إلا عن أمائنا

رد عليه حافظ بقول حسن يخفف من لواعج نفسه ، فقال له (٨٣) :

عجبت للنيل يدرى أن بلبه صادٍ ويسقى ربا مصر ويسقينا
والله ما طاب للأصحاب مورده ولا ارتضوا بعدكم من عيشهم لنا
لم تنأ عنه وإن فارقت شاطئه وقد نأينا، وإن كنا مقيمينا

ويوم علم حافظ بقرب عودة شوقى من منفاه ، أعد قصيدة ليستقبله بها يوم قدومه . لكن هاجساً تمكن منه وجعله يعجل بنشرها ، مخافة أن يوافيه أجله قبل أن يشهد ذلك اليوم . فى هذه القصيدة الطويلة رحب بعودة شوقى وأثنى على شعره وأعلى منزلته ، ثم راح يهنئ دار شوقى بأوبته ، متمنياً أن تزدان بأعراس الأدب التى أوقفتها ظروف الحرب وغيبة رب الدار (٨٤) :

يا كرمه (المطرية) ابتهجى به واستقبلى الظمان من أخذائه
مدى الظلال على الوفود وجددى عهداً طواه الدهر فى بستائه
كم مجلس للهو فيه شهدته فسكرت من ديوانه ودنائيه
غنى مغنيه فهاج غناؤه شجر الحمام على ذوائب بانه
فالحمد لله الذى قد رده من بعد غربته إلى أوطانه

ويلتقى الشاعران فى مناسبات وطنية واجتماعية كثيرة ، فلا يفوت حافظاً فيما يُلقى من شعر أن يشيد بشوقى ويمتدح مكانته العالية . فإذا كان يوم تكريم شوقى بدار الأوبرا سنة ١٩٢٧ م ، وقف حافظ على رأس الشعراء يُلقى مدحته الطويلة التى استهلها بقوله (٨٥) :

بلابل وادى النيل بالمشرق اسجعي بشعر أمير الدولتين ورجعى
أعيدى على الأسماع ما غرّدت به يراعة شوقى فى ابتداء ومقطع

والقصيدة عبارة عن عرض مختصر لحياة شوقى وبعض روائعه الشعرية ، أعقبه حافظ

مبايعته (شوقى) أميراً للشعراء :

أمير القوافى قد أتيتُ مبايعاً وهذى وفود الشرق قد بايعت معى

كان حافظ يسمع ما يتناقله الناس من أمر تفوق شوقى عليه بقدرته البيانية العالية، وأنه لا يقدر على مجاراته فيما يُهَيِّأُ له من ضروب القول . وكان يحس فى داخله أيضاً بتفوق شوقى فنياً عليه ، فضلاً عن تفوقه اجتماعياً لقربه من سدة الحكم . فاجتمع فى صدر حافظ إحساسه تجاه شوقى بضعف ملكته إلى إحساسه برقة حاله . وكان من جرّاء ذلك ، أن وجدناه يُدى شيئاً من التضاؤل كلما وقف إلى جانب شوقى فى مناسبة ما ، وأن رأيناه يقر -متواضعاً- بفقر ملكته وضعف صنعته إزاء صاحبه ، مسلماً له بالتقدّم عليه . فنسمعه يقول أمام جماعة من كبار العلماء والأدباء ، اجتمعوا على أن يجعلوا للشعر جوائز من أنواع مختلفة تمنح للشعراء بحسب إجادتهم^(٨٦) :

قل للألى جعلوا للشعر جائزةً : فيم الخلافُ ؟ ألم يرشدكم الله ؟

إنى فتحتُ لها صدرًا تليق به إن لم تحلوه فالرحمن حلاه

لم أحشَ من أحد فى الشعر يسبقني

إلا فتى ما له فى السبق إلاه

ذاك الذى حكمتُ فىنا يراعتهُ وأكرم الله و(العباس) مثواه

لم يكن أمام حافظ بعد أن رأى أنه حقيق بالتكريم ، إلا أن يستدرك ويقرّ بسبق شوقى .

ولما صاغ شوقى قصيدة يرثى بها (تولستوى) ، راح حافظ ينسج على منوالها

مقرّاً من أول بيت بسبق شوقى ورجحان كفته^(٨٧) :

رثاك أمير الشعر فى الشرق وانبرى لمحك من كتاب مصر كبير

ولست أبالى حين أرثيك بعده إذا قيل عنى قد رثاه صغير

لا يجد حافظ غضاضة فى أن يقول ذلك لشوقى ، كأنما هو حق له يؤدّيه ، وكأنما لا

يعيبه هو وغيره من الشعراء ، أن يُقرّوا أمام الناس بهذا الحق ، وأن يعلنوا قصرَ قِامتهم إزاءه .

وكان حافظ يُبدى هذا الإحساس تجاه شوقي منذ مرحلة مبكرة في علاقتهما ، وقد بلغ تواضعه آنذاك إلى حد أن اتخذ شعر شوقي نموذجًا يسعى إلى بلوغه ويصوغ خواطره على مثاله . فهو لا يتردد في أن يقول بين يدي الخديوي عباس^(٨٨) :

إلى سُدّة العباس وجّهتُ مدحتي بتهنئة (شوقية) النسج معطارٍ

ولم يكن حديث حافظ مراعاةً لموقع شوقي من القصر فحسب، فقد تكرر كثيرًا على لسان حافظ بعد أن فقد شوقي مكانه ، وأصبح لا يقدر على مكيدة ولا تُخشى له بادرة . وهذا يؤكد أن حافظًا كان موقنًا في داخله بتفوق ملكة شوقي ، وبخاصة خصوبة خياله . وفي قصيدته التي أعدها بمناسبة عودة شوقي من منفاه ، يصرح بذلك فيقول^(٨٩) :

قل للذي قد قام يشأو أحمدًا خلّ القريض فليست من فرسانه
هذا امرؤ قد جاء قبل أوانه إن لم يكن قد جاء بعد أوانه
تخذ الخيال له بُراقًا فاعتلى فوق السُّها ، يستنّ في طيرانه

وهذه حقيقة، فشوقي يأتي بشعره من وراء عينيه وسائر حواسه ، التي كانت تشبه المعمل الكيميائي ، تدخله أفكار الشاعر وخواطره ، فتخرج منه صورًا أخاذة تترامى للقارئ وتخطب أذنيه ، حتى يهيم بلمسها لقوة تجسيدها . أما حافظ فيرد معظم معانيه وخواطره عاريًا مجردًا ، يقف الواحد منها الآخر، فيحس القارئ صنعة شوقي وتفننه في تشكيل فكره وتلوينه ، ولا يحس هذه الميزة في كثير من شعر حافظ .

وقوة خيال شوقي ، ميزة يقرُّ بها جميع النقاد له ، ويجعلونها أهم ما يفرق بين الشعارين . ويرى بعضهم أن حافظًا لو رزق خيال شوقي لجاء عجبًا في شعره^(٩٠) .
وتفوق ملكة الخيال عند شوقي ، فضلًا عن ثقافته الواسعة واطلاعه المستمر ،

كل هذا مكّنه أيضاً من إجادة عرض التاريخ بصورة غير مسبوقه ، لا تقتصر ملاحظتها على رصد الحدث وتسجيله ، وإنما تتجاوز ذلك إلى تأمله وإخراجه إخراجاً شاعرياً يشد انتباه القارئ ، ويحرك نفسه بإحساس جديد نحو ما يقرأ من موضوعات التاريخ التي يعرفها من قبل ، وكأنما يُلمُّ بها لأول مرة . وهذا بلا شك صُنْعُ الخيال الشعري القوي ، الذي ينطلق بقوة من الحقيقة التاريخية والأفكار العامة ، ثم يتعد عنها ويتجاوزها ، فلا تعدو بالنسبة إليه ، كونها مثيرات فنية . وخيال شوقي أيضاً وثقافته هما اللذان هيّاه للإبداع المسرحي ، ولإنشاء هذا الكم الكبير من قصص الحيوان . وقد حاول بعض معاصري شوقي من أبناء جيله ، أن يفعلوا بعض فعله ، فجاءت محاولاتهم مؤكّدة ما بينهم وبين الرجل من فروق كفلت له التميّز .

لكن هل كانت علاقة الشاعرين في حقيقتها على هذا النحو من الود الصافي الذي يصوره شعر حافظ ؟ ألم يكن حافظ يحس تجاه شوقي ما يحسه المعاصرون من العلماء وأهل الفن من غيرة تفضي بهم إلى الحسد والموجدة ؟ إن غيرة العلماء وأهل الفن ، أمر مؤكّد وقديم قديم الإنسان . وهذا الأمر مرده إلى غريزة الإنسان التي بها كثير من الأثرة وحب التميّز . ولئن كان لهذه الغريزة وجه سلبي ، فإن لها وجهاً إيجابياً ، حين تتحول في نفس صاحبها إلى طاقة تدفع به إلى العمل والإجادة لإشباع هذه الرغبة في نفسه .

في (ليالي سطيح) الذي ألفه حافظ إبراهيم بين عامي ١٩٠٧م - ١٩٠٨م ، وظروفه شديدة السوء ، يُبدى شعوراً قوياً بالحسد نحو شوقي ، وينسب إليه من عيوب الصنعة الشعرية ، ما يجعلنا نحسب أنّ كلّ ما سمعناه آنفاً من ثناء له عليه ، صدر عن شخص آخر غير حافظ إبراهيم مؤلف (ليالي سطيح) .

حاول حافظ في كتابه هذا أن يبدو أمام القارئ موضوعياً منصفاً في نقده شعر شوقي ، فنراه يذكر مزاياه ثم يقابلها بعيوبه . لكنه يجتهد في إحصاء العيوب ، فإذا ما أثبت له من حسنات لا يكاد يبلغ ربع ما أحصاه عليه من سيئات . ولم يكتف بذلك ،

فتراه يحمل على الصحف التي تهتم كثيراً به وتمكّن له في نفوس الناس بما تنشر من تقرّظ لشعره .

وقد اتخذ حافظ في الكشف عن إحساسه هذا أسلوب الحوار السائد في (ليالي سطيح) ، فنسمعه يحاور شاعراً بائساً في مثل حالة من التعاسة وسوء الحظ ، ويُنطقه بما ازدحم به صدره هو من غيظ وحقّد . يبدأ الحوار بشكوى هذا الشاعر التعس إلى حافظ من إعراض الصحف عنه رغم إجادته فنه ، ومن عدم اهتمامها بغير ذوى الخطوة من مثل شوقى ، فيقول : ” نحن بحمد الله في بلد لا تنفق فيه سلعة الأديب ما لم يكن أديبها حظيظاً عند تلك الصحف . حتى إذا ظهر أثره في الناس قامت تقرّظه بصنوف المديح والإطراء... ألم تر إليها كيف كانت تقول يوم كانت تقرّظ الشوقيات ، وقد أسندت إلى صاحبها من الألقاب ما تعجز صحف الأستانة عن إسناد بعضه إلى جلالة المتبوع الأعظم... بربك ماذا رأيت فيها من الآيات وما جاء به صاحبها من المعجزات ، اللهم إلا ما يتباصر به علينا من تلك المعانى الغربية التي ما سكنت فى مغنى عربى إلاّ وذهبت بروائه “(٩١).

فردّ حافظ عليه وبدا فى رده كأنما يزود عن شوقى . ولتأمل ما جاء فى جوابه:

” قلت حسبك لا تغضض من شاعر الشرق ولا تنتقض من أدبه ، فتا لله إنه لظريف الوزن لطيف القافية ، خاطره طوع لسانه ، وبيانه أسير بنانه ، كأنما يتناول الشعر من كمّه لسهولة متناوله عليه ، إلاّ أنه مكثار ، وقل أن يسلم المكثار من العثار، فشعره كما قال الأصمعى فى شعر أبى العتاهية ، كساحة الملوك يقع فيها الخزف والذهب “(٩٢).

فرد عليه الشاعر البائس قائلاً :

” إنى لا أرى رأيك فيه، وفى مصر من لو انقطع لصناعة الشعر لوسع الناس

إحسانه فيه ، ولكن قد ثنى الله عنان الكثيرين عنه ، إماماً لشرفٍ يخشى عليه أن يغضب منه ، وإماماً لا اشتغال بشئون للحياة لا تقوم الحياة إلاّ بها . وصاحبكم بفضل ما هو فيه من السعة فارغ للشعر غير مشغول بغيره ، فالعجب أنه لا يجيد ، وأعجب منه أن يقال إنه مكثار ، وقصائده في العام معدودة ، وقوافيها مقدّرة محدودة «(٩٣)» .

ويتضح من الحوار الذي شغل خمس صفحات من (ليالي سطيح) إصرار حافظ على تجريد شوقي من كل فضل ، حتى وهو يوهمنا بأنه يدافع عنه ضد محاوره ، إذ نراه ينتصر له فيذكر بعض مزاياه ، ثم ينقلب عليه - وهو يدافع عنه - فيكشف عن بعض ما كان خافياً من عيوبه ، يضيفه إلى ما جاء على لسان محاوره .

وخلاصة هذا الحوار الطويل ، أن سيئات شوقي في نظر حافظ أكثر من حسناته ، وأن ما يبدو في شعره من حسنات ليس له فضل فيه ، وإنما لحياته المنعمّة ، التي ساعدته على الانقطاع للشعر . "وفي مصر من لو انقطع لصناعة الشعر، لوسع الناس إحسانه" «(٩٤)» . وهكذا يجرد حافظ شوقياً من كل فضل في ذبوع شهرته وارتقاء صنعته .

هذا شعور حافظ تجاه شوقي سنة ١٩٠٨ م ، وقد صرّح به في مرحلة مبكرة من عمره الفني ، ربما قبل أن تتوطد علاقته بشوقي . وقد أتبع آراءه السابقة بعد ذلك بالثناء الحسن ، يتوّج به رأس صاحبه في كل مناسبة ، وكأنه يعتذر إليه عما بدر منه . لكن ، يلفت نظرنا أمر غريب في قصيدة حافظ الطويلة التي ألقاها أمام وفود الأمة العربية التي احتشدت لتكريم شوقي سنة ١٩٢٧ م . وهذا الأمر ينم عن بقايا من الغيرة والحسد ، كانت ماتزال عالقة ساكنة بصدر شاعر النيل ، ثم جاءت هذه المناسبة لتنبشها وتستثيرها . فمن يقرأ الأبيات الثلاثة التالية يلمس هذا الشعور الدفين ، الذي اجتهد حافظ في إخفائه ، يقول «(٩٥)» :

يعيبون شوقى أن يُرى غير مُنشدٍ وما ذاك عن عى به أو ترُقِع
وما كان عاباً أن يجىء بمنشيدٍ لآياته أو أن يجىء بمُسمِع
فهذا كلیم الله قد جاء قبله بهارون، ما يأمره بالوحى يصدع

كان شوقى لسبب ما لا يُلقى شعره فى المحافل . وكان يُنيب من ينهض بذلك عنه . وكان حافظ حسن الإلقاء ، يستميل بجودة إلقاءه أفئدة السامعين . يصف أحمد محفوظ إلقاء حافظ بقوله : ” كان خطيباً حلو الإشارة جهورى الصوت ، يعرف مواقع الكلام وإصابة الهدف فى النفوس المنصتة . كان يلهب الحماس وينال التصفيق “^(٩٦) . ويذكر أن شوقى كان يعهد بإلقاء شعره إلى أناس قد لا يحسون معانيه ويسئون إلقاءه ، فتذهب روعته . هذا فضلاً عما فى شعر شوقى من معانٍ دقيقة غامضة تتطلب المعاودة والالتفات الطويل ، فلا تتبين الأنفس جماله حال سماعه . لهذا لم تكن الجماهير تهتز لشعره رغم تفوقه وسموه ، كما تهتز لشعر حافظ الذى يجمع بين سهولة المعنى وروعة الإلقاء^(٩٧) .

وهذا ما أكدّه كثير من معاصرى الشعارين . يقول عبد العزيز البشرى : ” ولا أحسب شاعراً يجيد الإنشاد كما يجيده حافظ . وإن له لصوتاً جهيراً فحماً رائع المقاطع ، فإذا هو وقف ينشد الجماهير هزّها هزّاً ، ورفع بالترتيل حظ الكلام درجات على درجات “ . ويقول مُطران : ” كان حافظ يلقى شعره بأفصح بيان ممكن ، ويضاعف قيمته بمُحسن إنشاده “ . ويذكر أحمد رامى أن شوقى كان ينفس على حافظ هذه الموهبة التى تنتزع إعجاب الناس وتصفيقهم ، فى حين أنه يعجز عن إلقاء شعره^(٩٨) . وفى كتابه (شعراء مصر وبيئاتهم) ، يذكر لنا العقاد أنه قال لحافظ مازحاً ذات مرة : ” إنك بأن تملأ قوالب الحاكي أحرى منك بطبع صفحات الدواوين “^(٩٩) يرى أن جودة إلقاء حافظ تُضفى على شعره رونقاً أكثر مما يحسه قارئه .

وقد استغل حافظ وجود حشد كبير من أعلام الفكر والأدب والسياسة فى مهرجان تكريم شوقى للتنويه بأفة عجزه عن الإلقاء . ولم يكن المقام يسمح بذلك ،

فهو ليس مقام نقد ، وإنما هو مقام تكريم تُذكر فيه المحامد وتُوارى النقائص . لكن حافظاً وجدها فرصة لأن يغمز شوقي هذه الغمزة التي تذكر الحاضرين أو تنبههم إلى عيب في شوقي هُم في شغل شاغل عنه . وهو حين يلفتهم إلى هذا العيب في شوقي، يلفتهم في الوقت نفسه إلى ما يقابله من ميزة عنده . ولا يخدعنا دفاع حافظ في هذه الأبيات عن عجز شوقي ، فقد كان في حل من ذكره والتطرق إليه . ودفاعه عن شوقي هنا مثل دفاعه عنه في (ليالي سطيح) ، الذي كان قد مضى عليه يوم إلقاء هذه القصيدة عشرون عاماً ، وكان يدس خلاله السُّم في العسل .

ولاشك في أن سلوك حافظ هذا ضرب من التعويض ، يعالج عنده نقصاً نفسياً وإحساساً بالهضم في حياته وفنه ، كما يشبع عنده رغبته في أن يبدو متميزاً بأى شيء في هذا الموقف الذي كان يتمناه لنفسه . ولاشك أيضاً في أن هذا الأمر قد أزعج شوقي ، وكثير ما كان يحسه في هذه المناسبة من صفو نفسه .

ورحل حافظ قبل شوقي بنحو ثلاثة أشهر، فبكاه وهمس لروحه^(١٠٠) :

قد كنتُ أوثر أن تقولَ رثائي يا منصف الموتى من الأحياءِ
لكن سبقتَ وكلُّ طولِ سلامةٍ فسَدَرُ وكلُّ مَنِيَةٍ بلقاءِ

وقد أدى شوقي في مرثيته هذه شيئاً من حقوق حافظ عليه ، وأسمعه ميئاً ما

كان حافظ يحب سماعه منه حياً :

انظر، فأنت كأمسِ شأنكِ باذخٍ في الشرقِ واسمكِ أرفعُ الأسماءِ
ياحافظ الفصحى وحارسٌ مجدها وإمامٌ منْ نبجَلتْ من البُلغَاءِ
جددتِ أسلوب (الوليد) ولفظه وأتيتِ للدنيا بسحر (الطائي)

..... إلخ

ولم تمضِ أشهر ثلاثة حتى لحق أمير الشعراء بشاعر النيل في دار الحق، فخلت محافل الأدب من قيشارتين طالما رفّت أوتارهما في أفراح الأمة العربية وأتراحها. وبموتهما ، تاب إلى نفسه من النقاد من نالهما بأذى ، وراح يُبدي الأسف على ما فرط في حق الرجلين.

هوامش الفصل الأول :

- (^١) أحمد محفوظ، حياة حافظ إبراهيم الشاعر الثائر (القاهرة : مؤسسة نصار للتوزيع والنشر - بدون تاريخ) ص ٣-٦، أحمد أمين (بالاشتراك)، ديوان حافظ إبراهيم (القاهرة : دار الكتب المصرية، ١٩٣٧م) ص ٦.
- (^٢) المرجع السابق، ص ٦. والذي لقبه بـ "شاعر النيل" هو الشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد، ولقبته جريدة "اللواء" صوت الحزب الوطني أيام مصطفى كامل بـ "شاعر الوطنية" و"شاعر الحزب الوطني". انظر المرجع السابق، ص ٥٩، ٧٢.
- (^٣) المرجع السابق، ص ٦ - ٧.
- (^٤) ديوان حافظ إبراهيم، المقدمة ص ٧، حياة حافظ إبراهيم، ص ٩.
- (^٥) ندم حافظ على تفريطه في التعلم يوم أحيل على الاستداع ومكث مدة طويلة بلا عمل لعدم حصوله على مؤهل يمكنه من الالتحاق بإحدى الوظائف المدنية. انظر : حافظ إبراهيم، ليالى سطيح (القاهرة : مطبعة محمد محمد مطر - بدون تاريخ) ص ٧٩.
- (^٦) هدده بحاله مرة بالطرد من المنزل فرد عليه :
- ثقلت عليك مؤزنتى إنى أراها واهية
فافرح فإنى ذاهب متوجه فى داهية
- ديوان حافظ، المقدمة، ص ٨.
- (^٧) المرجع السابق، ص ٨، وحياة حافظ إبراهيم، ص ١٢ - ١٣.
- (^٨) مقدمة ديوان حافظ إبراهيم، ص ١٠، وحياة حافظ إبراهيم، ص ١٨ - ٢٠.
- (^٩) مقدمة ديوان حافظ إبراهيم، ص ١١.
- (^{١٠}) حياة حافظ إبراهيم، ص ٢٣ - ٢٥، ١٥٨ - ١٥٩.
- (^{١١}) ليالى سطيح، ص ٧٩ - ٨٠.
- (^{١٢}) مقدمة ديوان حافظ إبراهيم، ص ١٢ - ١٤، حياة حافظ إبراهيم، ص ٢٤ - ٢٦.
- (١٣) ديوان حافظ إبراهيم، ج ١، ص ٦.
- (^{١٤}) المرجع السابق، ج ٢، ص ١٢٥.
- (^{١٥}) ليالى سطيح، ص ٧٩.
- (^{١٦}) ديوان حافظ إبراهيم، ج ١، ص ١٧٨.
- (^{١٧}) المرجع السابق، ج ٢، ص ١٢١.
- (^{١٨}) حياة حافظ إبراهيم، ص ٢٣٨ - ٢٤٣، ومقدمة ديوان حافظ إبراهيم، ص ٨٦.
- (^{١٩}) حياة حافظ إبراهيم، ص ٢٢٨.
- (^{٢٠}) د. طه حسين، حافظ وشوقي (القاهرة : مكتبة الخانجي، ١٩٦٠م) ص ١٩٧.
- (^{٢١}) ديوان حافظ إبراهيم، المقدمة ص ٢٠.

- (٢٢) حافظ وشوقي، ص ١٩٦.
- (٢٣) عباس محمود العقاد، شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي (القاهرة: مكتبة نهضة مصر سنة ١٩٦٥م) ص ١٧.
- (٢٤) حياة حافظ إبراهيم، ص ٢٣٠.
- (٢٥) انظر المرجع السابق، من ص ٨٠ - ٩٠.
- (٢٦) ديوان حافظ إبراهيم، المقدمة ص ٨.
- (٢٧) المرجع السابق، ص ٩.
- (٢٨) ليالى سطيح، ص ٦ - ٧.
- (٢٩) المرجع السابق، ص ١٣.
- (٣٠) المرجع نفسه، ص ٢٦.
- (٣١) ديوان حافظ إبراهيم، المقدمة ص ٣٨.
- (٣٢) المرجع السابق، ص ١٧.
- (٣٣) د. عبد الحميد سند الجندي، حافظ إبراهيم، ط ٤ (القاهرة: دار المعارف - بدون تاريخ)، ص ١٨٢.
- (٣٤) المرجع السابق، ص ١٨٣.
- (٣٥) المرجع نفسه، ص ١٨٦.
- (٣٦) إبراهيم عبد القادر المازني، شعر حافظ (القاهرة - مطبعة البوسفور، ١٩١٥م) ص ٤٢.
- (٣٧) عباس محمود العقاد، شوقي في الميزان، مجلة الهلال - القاهرة عدد أكتوبر سنة ١٩٥٧م: ص ١٧٩.
- (٣٨) ديوان حافظ إبراهيم، ج ١، ص ١٧٩.
- (٣٩) المرجع السابق، ص ١٨٩.
- (٤٠) المرجع نفسه، ص ١٩١، وانظر أيضًا ص ١٨٤، ١٨٥، ٢٠٤.
- (٤١) المرجع نفسه، ص ٢٠٥.
- (٤٢) المرجع نفسه، ص ٢٩٧.
- (٤٣) المرجع نفسه، ج ٢، ص ١٩٥.
- (٤٤) المرجع نفسه، ج ١، ص ٨.
- (٤٥) المرجع نفسه، المقدمة ص ١٦.
- (٤٦) المرجع نفسه، ج ١، ص ١٨٩.
- (٤٧) المرجع نفسه، ج ٢، ص ١١٤.
- (٤٨) المرجع نفسه، ج ٢، ص ١٦٤.
- (٤٩) ليالى سطيح، ص ١١٩.
- (٥٠) ديوان حافظ إبراهيم، ج ٢، ص ١١٨.
- (٥١) حافظ وشوقي، ص ١٩٤.

- (٥٢) المرجع السابق، ص ٢٠٩.
- (٥٣) ديوان حافظ إبراهيم، ج ٢، ص ٣٠.
- (٥٤) حياة حافظ إبراهيم، ص ٩٣ - ٩٤.
- (٥٥) المرجع السابق، ص ١٦٩.
- (٥٦) انظر المرجع نفسه من ص ٨١ - ٨٧.
- (٥٧) ديوان حافظ إبراهيم، ج ١، ص ٤.
- (٥٨) المرجع السابق، ج ٢، ص ١٣١.
- (٥٩) المرجع نفسه، ص ٥٤.
- (٦٠) المرجع نفسه، ص ٣١.
- (٦١) حافظ إبراهيم، ص ٣٩.
- (٦٢) حياة حافظ إبراهيم، ص ١٠٥.
- (٦٣) ديوان حافظ إبراهيم، ج ١، ص ٦.
- (٦٤) المرجع السابق، ج ٢، ص ١٢٥.
- (٦٥) سورة الكهف، آية ٦٠.
- (٦٦) ديوان حافظ إبراهيم، ج ١، ص ٢١٠.
- (٦٧) حياة حافظ إبراهيم، ص ١٠٨.
- (٦٨) ديوان حافظ إبراهيم، ج ١، ص ١٩٥.
- (٦٩) المرجع السابق، ج ١، ص ٢٥.
- (٧٠) المرجع نفسه، ج ١، ص ٤.
- (٧١) المرجع نفسه، ج ١، ص ٥.
- (٧٢) المرجع نفسه، ج ١، ص ٢٦. ويذكر أحمد محفوظ أن صحيفة اشتهرت بثلب الأعراض والتكسب من ذلك، ظلت يبيعاز من السراى تشهر بالإمام وتسيء إليه حتى أنها دسّت عليه صورة مزيفة توهم الناس أنه كان فى أوربا يشرب الخمر: حياة حافظ إبراهيم، ص ٦٦.
- (٧٣) ديوان حافظ إبراهيم، ج ٢، ص ١٤٨.
- (٧٤) المرجع السابق، ج ٢، ص ١٦٠.
- (٧٥) المرجع نفسه، ج ٢، ص ١٨٤.
- (٧٦) المرجع نفسه، ج ٢، ص ٢٠٥.
- (٧٧) المرجع نفسه، ج ١، ص ١٢١.
- (٧٨) حياة حافظ إبراهيم، ص ١٩٥.
- (٧٩) ديوان حافظ إبراهيم، ج ١، ص ١٩٥.
- (٨٠) المرجع السابق، ج ١، ص ٢٠١.

- (٨١) المرجع نفسه، ص ٥٠.
- (٨٢) أحمد شوقي، الشوقيات، ج ٢ (القاهرة: المكتبة التجارية، ١٩٢٠م)، ص ٦٥.
- (٨٣) ديوان حافظ إبراهيم، ج ١، ص ١٨٦.
- (٨٤) المرجع السابق، ص ١٠٢.
- (٨٥) المرجع نفسه، ص ١١٩.
- (٨٦) المرجع نفسه، ص ٢١٢.
- (٨٧) المرجع نفسه، ج ٢، ص ١٦٤، وانظر أيضًا ج ١، ص ١٠٣.
- (٨٨) المرجع نفسه، ج ١، ص ١١.
- (٨٩) المرجع نفسه، ص ١٠١.
- (٩٠) حياة حافظ إبراهيم، ص ١٩٨. وانظر أيضًا حسن كامل الصيرفي، حافظ وشوقي (القاهرة: مطبعة المقتطف والمقطم، ١٩٤٩م) ص ٦١.
- (٩١) ليالى سطيح، ص ٤٥.
- (٩٢) المرجع السابق، ص ٤٥.
- (٩٣) المرجع نفسه، ص ٤٦.
- (٩٤) انظر الحوار كاملاً فى المرجع السابق من ص ٤٥ - ٤٩.
- (٩٥) ديوان حافظ إبراهيم، ج ١، ص ١٢١.
- (٩٦) حياة حافظ إبراهيم، ص ١٨٨.
- (٩٧) المرجع السابق، ص ١٩٣.
- (٩٨) انظر الأقوال السابقة فى: د. عبد الحميد سند، حافظ إبراهيم، ص ٢١٤.
- (٩٩) شعراء مصر وبيئاتهم، ص ١٥.
- (١٠٠) الشوقيات، ج ٣، ص ٢٢.

الفصل الثاني

الشكوى والنقد الاجتماعي في شعره.

الشكوى :

كثرة الشكوى من المظاهر التي تلفت نظر القارئ في شعر حافظ ، ولعلها أحق الموضوعات بالتقديم عند دراسة هذا الشعر، لأن التعرّض لها وبسط أسبابها ، استكمال لما تقدم في الفصل السابق من حديث عن حياته، وإيضاح لمعالم شخصه . والشكوى التي بدأت مبكرة في حياة حافظ ، يوم وعى وهو صبى واقعه المرير ، لم تنقض حتى وفاته ، إذ ساعد على استمرارها تجدد الأسباب وتنوع العلل . فمع كل مرحلة تنقضى من حياته ، تختفى علة ، لتجدّ أخرى . وقد مرّت بنا فيما ذكرنا من حديث حياته، تلك الأبيات التي جاوب بها خاله يوم هدده بالطرد ، والأبيات التي راح فيها وهو فتى يتعجل الموت ، بينما أترابه يستقبلون الحياة بتفوس راضية مستبشرة.

هذه النفس التي انفتحت فيها هذه الكوة المظلمة ، لم تجد لمدة طويلة من الظروف الحسنة، ما يُغلق باب كهفها المظلم ، وإنما وجدت ما يُغذّي جرثومة الحزن التي تسللت مبكراً إليها، وظلّت تُفرخ وتنتج ، حتى تحول صاحب هذه النفس إلى شخص شكاء بكاء ، لا يقدر على حبس الشكوى وإن اختفت أسبابها في فترة من حياته ، تحسنت فيها ظروفه واستقامت أحواله . وهكذا تتحول شكوى حافظ من ظاهرة لها أسبابها ، إلى طابع مميّز لشخصه ، ووتر أصيل في معزفه . ومن يقرأ ما كُتب عن دعابة حافظ وظرفه ، وحضور نادرته ، وحلو فكاهته ، وتشوّف المجالس إليه ، لا يكاد يصدّق أن هذه النفس ، كانت مرتعاً للحزن ، يضرب بجذوره في أعماقها ، وأن هذه اللّهاة التي كانت تضحك الآخرين وتدخل السعادة إلى قلوبهم ، هي التي سكبت ما في ديوانه من عَبرَات . كم بين ظاهر الإنسان وباطنه أحياناً من تناقض ومفارقة؟! هذه كانت طبيعة حافظ إبراهيم .

لم يظهر لنا من شكوى الشاعر في صباه، سوى تلك الأبيات القلائل التي ذكرنا. وأما حياته العسكرية فقد قضى الشطر الأول منها في مصر، لا يعكّر صفوه شيء.

وأما الشطر الثاني فقد قضاه بالسودان. وبرحيله إلى السودان، انفتح للشعر العربي باب واسع من أبواب الشكوى، فقد صارت وظيفته التي تمنّاها نهايةً لشقائه، أشد أسباب تعاسته. وما لها لا تكون كذلك، وقد جمعت على نفسه مرارة الغربة وسوء الصحبة، وغلظة أولى الأمر!؟

ويتحول إحساس حافظ بذلك كله إلى شعر ينفس به عن صدر حرج، فيستريح إلى حين. ثم تتابع رسائله إلى الأصدقاء. بمصر حاملة هذا الشعر المليء بالضجر والتوجع والحنين إلى سابق العهد^(١) :

سلام الله يا عهد التصابي عليك وفتية العهد القديم

أحسن لهم ودونهم فلاة كأن فسيحها صدر الحليم

ويكثر من وصف وعورة الحياة بهذه الفلاة، ثم يأخذ في بيان تلهفه على الوطن، وتحسره لضعف قدرته، وانعدام حيلته :

فمن لي أن أرى تلك المغانى وما فيها من الحسّن القديم؟

فما حظ (ابن داود) ، كحظي ولا أوتيت من علم العليم

ولا أنا مُطلق كالفكر أسرى فأستبق الضواجك في الغيوم

ولكنّي، مقيدة رحالي بقيد العدم في وادي الهموم

فلو أنه أوتي من قدرة سليمان عليه السلام شيئاً، لاستثار به الجن والريح تحمله إلى مصر! ولو أنه حرّ كسوانح الفكر، لسرى إليها في الفضاء مخلفاً وراءه البروق!

وما أحوج المغترب إلى رسالة تأتيه من قبل أهله وخلّانه، ترطب حرّ أنفاسه، وتضمّد جراحه، بما فيها من مواساة وحث على الصبر، ومن تعليل له بقرب العود. لهذا كانت أحزان حافظ تتضاعف لتأخر رسائل الأصدقاء عليه، أو لانقطاعها عنه؛ فيندفع معاتباً، شاكياً، راجياً أصدقاءه ألا يكونوا عوناً للأيام عليه^(٢) :

كيف تنسى يا (بابليّ) غريباً؟ بات بين الظنون والأوهام

بات تحت البلاء حتى تمنى لو يكون المبيت تحت الرغام

وحسبه من البلاء، ما بات يتمنى الموت خلاصاً منه. واستمرت رسائله تتقاطر على الأصدقاء، مصورة تعاسته ومعبرة عن توجسه الموت غريباً في تلك الفلاة، وأن يصير طعمة للسباع^(٣) :

يا ليت شعري بعد هذا العام
إليكم ترمى بي المرامي
أم ينتويني رائد الحمام
فأنطوي في هذه الآكام
وتولم الضبع على عظامي

وشكواه من حياته القاسية بالسودان كثيرة، وقد اجتزأنا بشيء منها لضيق المقام. ويكفي بياناً لضيق نفسه بها وتبرمه منها، أنه كان يتمنى الموت خلاصاً منها على شدة خوفه منه، وأنه صار يعتقد رأى (المعري)، الذي يعدّ الإنجاب جنابة الآباء على الأبناء. يعتذر إلى نفسه لأنه ألقى بها في تلك المفازة المهلكة، فيقول^(٤) :

رمى بها على هذا التباب وما أوردتها غير السراب
وما حملتها إلا شقاءً تُقاضيني به يوم الحساب
جنيت عليك يا نفسي وقبلى عليك جنى أبي فدعى عتابي

وانطوت صفحة معاناته في السودان بعودته محالاً على الاستيداع في ٣/٥/١٩٠٠م، فانفتحت بطيها للشكوى من الفاقة صفحة أوسع. فماذا يفعل حافظ لأسرته بأربعة جنيهاً هي كل راتبه في الاستيداع؟ عاد حافظ من السودان ليظل عاطلاً إحدى عشرة سنة يتردد فيها بين البيت والمقهى حيث الظرفاء، وليختلف إلى مجالس العلماء ودور الوجهاء. زمنٌ طويل قضاه حافظ في السعي وراء وظيفة تكفل له عيشة كريمة، استعان فيه أناساً كثيرين. وفي كل جولة من مسعاه، كان صدره يخفق باليأس والرجاء. وعقب كل جولة خاسرة، كانت له مع نفسه جلسة، يتذكر فيها ماضيه، ويتأمل حاضره، ويتوجس من غده. يحاور نفسه مرة بصوت ضميره، ويحاورها أخرى

بصوت مسموع، وفي كلتا الحالتين يشكو حظه العائر، فيقول^(٥) :

سَعَيْتُ إِلَى أَنْ كَدْتُ أَنْتَعَلَ الدَّمَ وَعُدْتُ وَمَا أُعْقِبْتُ إِلَّا التَّنَدَّمَ
ويقول^(٦) :

ماذا أصبتَ من الأسفار والنصبِ وطَّيِّكَ العَمْرَيْنِ الوَحْدِ والخَيْبِ !؟

ولقد أورثه هذا الفشل المتلاحق، وطول زمن البطالة، إحساسًا بأن المقادر تعاكسه وتأبى أن يكون كالأخرين الذين يفوقهم بفضائله^(٧) :

أصاب رفاقِي القِدْحَ المُعَلَّى وصادف سهمِي القِدْحَ المُنِيحَا
فلو ساق القضاء إلى نفعًا لقام أخوه معترضًا شحيحًا

ويبلغ تشاؤم حافظ وإحساسه بنكد حظه حدًا بعيدًا، جعله يتصور أن القضاء والقدر اللذين لا يختلفان أبدًا في أمر ما، يختلفان بشأنه. فإذا رُق القضاء لحاله وقضى بشيء في صالحه، اعترض القدر سبيله، وانتقض على صاحبه، إمعانًا في قهره وتكدير عيشه.

وحافظ في شكواه سوء حظه، يؤكد لنا أن عدم تحقيقه رغائبه، ليس لتقصير في السعي، أو فتور في العزم، وإنما لوقوف المقدار له بكل مرصد، يذود عنه ما ينشد من خير^(٨) :

لا تُطعمانيَ أنياب الملام على هذا العثارِ فإني مهبط العجبِ
كم همتُ في البيد والآرامِ قائلَةٌ والشمس ترمي أديم الأرضِ باللهبِ
وكم لبستُ الدجى والتُّربُ ناعسةٌ والليل أهدأ من جأشي لدى النوبِ
لكنني غير مجدودٍ وما فتئتُ يد المقادير تشيني عن الأربِ

ومتى انتهى أمر الإنسان إلى هذا الحد من القنوط الذي يغلق كل منافذ الأمل، نجده عادة يستدبر الدنيا، ويتحوّل إلى الموت، يتعجّل لعلّه يريحه من أسقام روحه. لهذا يتمنى حافظ لو أن أهله وأدوه يوم وُلد، فلا يكابد مرارة العيش^(٩) :

وددتُ لو طرحوا بي يوم جنتهمُ في مسبح الحوتِ، أوفي مسرح العطبِ

وحافظ الذى انقطع رجاؤه فى الأولى، لم يقنط من رحمة الله فى الآخرة. وحسبه ما أعد الله فيها من عظيم الثواب لعباده الصابرين. لعل هذا ما جعله يستحث المنية للقاءه، كما يستحث المشوق مشوقه^(١٠) :

سلام على الدنيا سلام مودع رأى فى ظلام القبر أنسا ومغنا
أضرت به الأولى فهام بأختها فإن ساءت الأخرى فويلاه منهما
فهبى رياح الموت نكبا وأطفئى سراج حياتى قبل أن يتحطما

وقصيدة حافظ هذه من أغرب الشعر منحى وتصرفا فى باب الشكوى، إذ صدق الشاعر ما جال بخواطره، وتصوّر أن الموت قد استجاب لضراعتيه، وأقبل عليه فاتحا ذراعيه الحانيتين ليضم جسده المرهق وروحه المعذبة. وراح وقد صدق أوهامه يخاطب أعضاء جسده واحدا بعد الآخر، يبشرها بقرب الخلاص، ويهيئها لاستقبال هذا المنقذ، الذى سيلمسها بعد قليل بكفه الحانية ويأخذها إلى حيث السكينة والراحة:

فيا قلب لا تجزع إذا عضك الأسى فإنك بعد اليوم لن تتألما
ويا عين قد آن الجمود لمدمعى فلا سيل دمعى تسكين ولا دما
ويا يمد ما كلفتك البسطة مرة لىدى مينة أولى الجميل وأنعما
قله ما أحلاك فى أنملى البلى وإن كنت أحلى فى الطروس وأكرما
ويا قدمى، ما سرت بى لمذلة ولم ترتقى إلا إلى العز سلما
فلا تبطنى سيرا إلى الموت واعلمى بأن كريم القوم من مات مكرما

... الخ

لكن حافظا لا يلبث أن يفيق من وسنته التى طالت، ومن حلمه الجميل بقرب الفرج، ليرتد إلى واقعه المر، وليتبرم من جديد بالحياة، ويسخط على كل من أسهم فى إيذائه. ويزداد هذا السخط حدة إذا صبغه الشاعر برؤية أبى العلاء، وعزفه على قيثارته^(١١):

لم تلدنا حواء إلا لنشقى ليتها عاطل من الأولاد
أسلمتنا إلى صروف زمان ثم لم توصها بحفظ الوداد

ومن حواء يتحول الشاعر إلى آدم، فهو الأب المنجب، ثم إلى نوح فهو المنقذ من الطوفان، المحافظ على استمرار الحياة فوق الأرض^(١٢) :

سليل الطين ! كم نلنا شقاءً وكم خطّست أناملنا ضريحا
وكم أزرّت بنا الأيام حتّى فدت بالكبش (إسحق) الذبيحا
وباعت (يوسف) يّسع الموالى وألقت فى يد القوم (المسيحا)
ويا (نوحا) جنيت على البرايا ولم تمنحهم الوؤد الصّحيحا
علام حملتهم فى الفلك ؟ هلاّ تركتهم فكنّت لهم مريحا !

ومن عتاب الآباء أو لومهم، يتحول إلى الإنجليز الذين يتصرفون فى أمور البلاد كما شاء لهم الهوى. فيصب شديد غضبه عليهم، فقد آذوه من قبل حينما كان يأتمر فى الجيش بأمرهم، ويؤذونه الآن باعتراض سبيله، يوصلون فى وجهه ما يطرق من أبواب الرزق. وحافظ فيما يسخط به عليهم يتوخى الحذر، فيلمح كعادته ولا يصرّح^(١٣) :

لحى الله عهد القاسطين الذى به تهذّم من بنيانا ما تهدّما
إذاشئت أن تلقى السعادة بينهم فلا تك مصرّيا ولا تك مسلّما

ويستصرخ حافظ آل عثمان، لعلّه يجد منهم آذانا صاغية، ومبادرة إلى دفع البلاء عن إخوانهم فى مصر^(١٤) :

يا آل عثمان، ما هذا الجفاء لنا ونحن فى الله إخوان وفى الكتّيب ؟
تركتمونا لأقوام تخالفنا فى الدين والفضل والأخلاق والأدب

والساخط إذا اشتدت غضبته، بركان يرمى بحممه فى كل اتجاه. هكذا كان حافظ، فلم تنج (مصر) من ثورة نفسه، وأخذ فى "ليالى سطيح" يعنى عليها أموراً كثيرة، منها إثارة الغرباء الذين تكالبوا عليها من كل حدب وصوب، يحتلبون فيها كل ضرع، فلا يصل إلى أبنائها من القوت إلاّ ما يتساقط من فروج أصابعهم. وربما كان فشل

حافظ في الحصول على وظيفة مدة طويلة، سبب شكواه من استحواذ الغرباء على خيرات البلاد^(١٥) :

أنا - لولا أن لي من أمتي خاذلاً - ما بت أشكو النوبا
أمة قد فت في ساعدها بغضها الأهل وحسب الغربا

وهكذا اتخذت شكوى حافظ شكلاً جديداً، فلم تعد مقصورة على وصف ما يكابد من الفقر والإخفاق المستمر في المسعى، وإنما امتدت إلى نقد المجتمع والتفتيش المستمر عن علله، مادام يرى لتلك الأدواء علاقة قوية بمحتته.

ومن يسمع شكوى (أبي حيان التوحيدي)، ويقابل بينها وبين شكوى حافظ، يجد شبهة كبيرة. فالتوحيدي قد ساءه أن يكون ذا علم وأدب، ينتفع وجهاء الناس بعلمه دون أن يقرّوا بفضلهم، وينزلوه مكانة لائقة، ويكفلوا له حياة كريمة، فسخطت نفسه وانتهى به الأمر إلى إحراق كتبه ضناً بها عليهم. وهكذا كان حافظ إبراهيم يكثر من مقارنة نفسه بسعداء الحظ الذين يتخلفون عنه في فضائل النفس والعقل فيأسى لحاله. إنه أديبٌ متميز، لكن الناس في مصر لا يقيمون وزناً للأدباء وأهل الفكر^(١٦) :

جنيتُ عليك يا نفسي وقبلي عليك جنى أبى فدعى عتابي
فلولا أنهم وأدوا بيانى بلغت بك المنى وشفيت ما بي

ويجد حافظ وهو في غمرة من همومه وأحزانه، أنه قد أرتج عليه، وكأنّ معين الإبداع في نفسه قد نضب. والأحزان إذا زادت عن حد معلوم تحولت من طاقة للإبداع إلى علة لقتل هذا الإبداع. ومن كان مثله تثقله الهموم، لفشله المتلاحق، وإحساسه بمعادة القدر ثم بتخلّي وطنه عنه، لا بد أن تُجبل شاعريته، وتسكن يراعتة^(١٧) :

مُلكتُ على مذهبى وعصانى الطبع السليمُ
وجفا يراعى الصاحباً نِ فلا النثيرُ ولا النظيمُ

أشقى وأكتم شِقْوَتِي والله بى وبها عليهمُ
لا مصر تُبْصِفْنِي ولا أنا عن مودَّتِها أريمُ

لقدحوّل التوحيدى سخطه على الأدب والناس إلى فعل يوم أحرق كتبه. لكنّ حافظًا
بقي يتمنى هجر الأدب كما تمنى من قبل هجر الدنيا^(١٨) :

عَقْنِي الدهرُ ولولا أننى أوثرُ الحسنَى عَقَّتْ الأديبا

وظل يستنكر ويتعجب ويتحدث عن بؤس أدباء مصر، لمناسبة أو غير مناسبة،
فنسمعه يسأل إسماعيل صبرى، وقد وقف على قبره^(١٩) :

أثتَ الترابُ يُضامُ الكريمُ ويشقى الحليمُ ويخفى القمرُ ؟
ويُهْضَمُ حق الأديبِ الأريبِ ويُطمس فضلُ النبيه الأغرُ ؟

فبدا الشاعر، بعد أن فقد العدالة على الأرض، تواقًا إلى عدالة السماء، التى تضع كل
إنسان موضعه اللائق به. وعجيبًا أن نسمع هذه النبذة على لسان حافظ فى ذلك
الوقت من عام ١٩٢٣م، وقد مضى على تعيينه بدار الكتب اثنا عشر عامًا، كان ينعم
خلالها براتب مغرٍ، جعله يتجاوز حد الكرم إلى السرف فى الإنفاق. كما أنه لم يكن
آنذاك شاعرًا جامل الذكر، وإنما كان ذائع الشهرة، يهرع الناس إلى سماعه، وتسعى
الصحف إلى نشر شعره. لعل ما كان يلقاه من تعرّض بعض النقاد له مثل إبراهيم
عبد القادر المازنى، ثم ما يراه من تفوّق شوقى فى صنعته وسعة خياله، لعل هذا كلّه
كان يفسد ما يرد على نفسه من إحساس بالسعادة، ويوقظ فى هذه النفس إحساسها
القديم بالهضم، فتعود إلى لمس وترها الباكى.

ولنقرأ لحافظ هذه الفقرة من حديث طويل حمل فيه على مصر. وهى تصف شعوره
تجاه ما كان يتعرض له من نقد لاذع. يقول :

” أفٍ لها ما أقل شكرانها وأكثر كفرانها. ينبغ فيها النابغة فينبعث أشقاها للطعن
عليه، فلايزال يكيد له حتى يبلغ منه. ويكتب فيها الكاتب فيبرى له سفيهاها، فلا

يفتأ ينبح عليه حتى ينشب فيه نابه ويفسد عليه كتابه. ويشعر فيها الشاعر فيحمل عليه جاهل لا ينفك عنه حتى يغلبه على أمره ويقهره على شعره «(٢٠):

وأما شعوره تجاه شوقي، فقد اجتهد في إخفائه لكنه لم يستطع. فنراه يمدحه بشعر كثير في أكثر من مناسبة، لكنه يحرص على أن يدس له السم في العسل، وإن كان هذا السم بكميات قليلة تؤذى ولا تقتل، ولا تشي بموجدته عليه. وفي (ليالي سطوح)، يتحدث عنه باستفاضة، مقابلًا حسناته بسيئاته، فما كان لشوقي من حسنات في شعره أرجعه إلى ببحوحة عيشه وإلى انقطاعه لفنه، فنفي بتعليقه هذا كل ميزة له. ولعلنا قد فضلنا ما أجمالنا الآن في الفصل السابق.

أما غضبة حافظ الكبرى للأدب والأدباء إبان محنته، فكانت عام ١٩٠٤م، يوم قضت المحكمة الشرعية بالتفريق بين الشيخ علي يوسف صاحب جريدة "المؤيد" وبين زوجته، بناء على الدعوى التي رفعها والد الزوجة مطالبًا بفسخ عقد الزواج لعدم الكفاءة في النسب، ولم يغفر للشيخ علي يوسف أدبه وفضله الذي تعرفه الأمة ولا يجحده أهل السلطان. ثارت نائرة حافظ يومها وألقى في مسامع مصر بعد أن كسر يراعتة وطوّح بها، أقسى ما سمعت على لسانه من لؤم (٢١) :

حَطَمْتُ اليراعَ فلا تعجبي وعِفتُ البيانَ فلا تعبى
فما أنتِ يا مصرُ دارَ الأديبِ ولا أنتِ بالبلد الطَّيبِ
وكم فيك يا مصر من كاتبٍ أقال اليراع ولم يكتبِ
فلا تعذلينى لهذا السكوتِ فقدضاق بي منك ما ضاق بي

ولا نعجب بعد ما أبداه حافظ نثرًا وشعرا من هضم المجتمع حق الأديب وانتقاص قدره، لا نعجب إذا قرأنا له القصيدة التالية، التي يتحدث فيها إلى رداء جديد له حديث مودة وعرقان، فقد أكسبه توقير الناس الذين لا يكبرون الرجل لعلمه وفضائل نفسه، وإنما لرؤائه وحسن حُلته. يصف إحساسه وهو مشتغل بهذا الرداء فيقول (٢٢):

فكأنى وقد أحاط بجسمى فى لباس من العُلا والبهاءِ

تُكبرُ العين رؤيتى وترانى فى صفوف الولاة والأمراءِ

وشرع حافظ فى حديث حميم يدعو لهذا الكساء بطول العمر، فأقبال الناس عليه
مرهونٌ بجدّته ونصاعة لونه :

يا ردائى وأنت خيرُ رداءٍ أرتجيه لزينةٍ وازدهاءِ

لا أحالت لك الحوادث لونا وتعدّتك ناسجاتُ الجِواءِ

غفلتُ عنك للبلبلى نظراتٌ وتخطتُك إبرة الرفاءِ

ثم نراه يبتّ هذا الكساء ما كان يعانیه قبلاً من ازدراء الناس وهو يلقاهاهم فى حلّته
القديمة، التى وهن نسيجها وحال لونها، لأن قيمة الرجل عندهم تتحدد بحُسن مظهره
وجدّة ملبسه :

صحبتنى قبل اصطحابك دهرًا بذلّةً فى تلوّن الحرباءِ

كنتُ فيها إذا طرقتُ أناسًا أنكرونى كطارقٍ من وباءِ

إن قومى تروقهم جدّة الثوب بولا يعشقون غير الرُواءِ

قيمة المرء عندهم بين ثوبٍ باهرٍ لونه، وبين حذاءِ

قعد الفضل بى وقمت بعزّى بين صحبى، جُزيتَ خير الجزاءِ

وهذه القصيدة التى ترفّ أبياتها بدُعاة الشاعر، تمّ عما استقر فى باطنه إزاء مجتمعه،
من إحساس بالغبن لانقلاب المعايير، ولقد أودع البيت الأخير خلاصة هذا
الإحساس.

لقد عرف حافظ مجالس الوجهاء وسراة مصر وأصحاب السلطان. فتحوا له
أبوابهم، واصطبجوه فى أسفارهم. لكنّ هذا لا يعنى أنه أحس يوماً بأنه واحد منهم،
تطاول عنقه أعناقهم، وفيهم من يمد يده بالإحسان إليه. كان مقتنعًا أن الواحد منهم
لا يُفسح له مجلسه إلا لظرفه وما يطرف به جلساءه من نوادر تريح النفوس وتحببى

الأسعار، حتى كأنه المعنى بقول المتنبي^(٢٣) :

ومثلك يُؤتى من بلاد بعيدة ليضحك ربّات الجِداد البواكيا

وكان حافظ يعي وظيفته هذه، ويحرص على النهوض بها في أحسن صورة، لتظل طريقه إلى نفوسهم ممهّدة. ذهب ذات يوم لمقابلة سعد زغلول، ووقف ببابه، وأرسل إليه مع حاجبه ورقة كتب عليها^(٢٤) :

قل للرئيس أدام الله دولته بأن شاعره بالباب منتظر

إن شاء حدّثه أو شاء أطربه بكل نادرة تجلى بها الفكر

وهذا الكلام برغم ما فيه من مزاح، يكشف بدقة عن واجب حافظ الذي كان عليه أن ينهض به كلما جلس مع كبراء قومه. وهو عمل غير هين يُذكرنا بما سمعناه صغارا في الحكايات الشعبية عن أبي نواس. فقد صورته هذه الحكايات قائما بباب (الرشيد) لا يكاد يفارقه. يرسل الرشيد في طلبه كلما تكدر صفوه، فيضحكه ويدخل السرور إلى نفسه. لهذا لم يكن حافظ -في رأبي- يسعد بتواجده بين هؤلاء رغم حرصه عليهم، كسعادته بحضور مجالس البسطاء، الذين لا يتكلف معهم أداء هذا العمل، وإذا غاب عنهم افتقدوه وسعوا إليه. كان حافظ مرهف الإحساس تجاه الأثرياء من أصحابه، فإذا قصر أحدهم في حق من حقوق المودّة، ثارت نفسه، وعلل ذلك بتجاهله لفقره. فنسمعه يعاتب بعضهم^(٢٥) :

سكنتُ إليكم ولم تسكنوا إلى وقد كنتُ نعم القتي

أصبتُمُ ترائنا وأهناكم التكائر عنا فسرّ العدا

ومَن كان يُنسيه إثمائه صديق الخصاصة لا يُصطفى

وهذا التعليل مجرد وهم عشش في صدره، نتيجة معاناته الطويلة من مرارة الفقر. وإحساسه بالفقر كان يعاوده لمناسبة أو لغير مناسبة. فإذا وقف في حفل أقيم لرعاية الأطفال، كانت تجربته الطويلة مع الفقر واليتم نصب عينيه تملى عليه ما يقول^(٢٦) :

لم أقف موقفي لأنشد شعراً صُبَّ في قالب بديع النظام
 إنما قمتُ فيه والنفس نشوى من كؤوس الهموم والقلبُ دامي
 ذقتُ طعم الأسي وكابدتُ عيشاً دون شربي قذاه شربُ الحمامِ
 فتقلّبتُ في الشقاء زماناً وتنقلتُ في الخطوب الجسامِ
 ومشى الهم ثاقباً في فؤادي ومشى الحزن ناخراً في عظامي
 فلهذا وقفتُ أستعطف النسا س على البائسين في كلِّ عامِ

فهو لم ينهض لمساعدة الأيتام مجرد الرغبة في الخير، وإنما لإحساس قوى باليتم والعوز والتشرد، عاناه في طفولته، وبقيت ندوب منه، تثور ب صدره بين حين وآخر، فتفسد عليه ما استجد في حياته من دواعي البهجة.

وكان طبيعياً وقد تعمق في صدره الإحساس بالعدم، والضالة، والخوف من طوارق المحن - أن يكثر من الشكوى، وأن يبحث عن كل ما يفرّج الحزن في نفسه أو يسرّي هذا الحزن عنه. لهذا نراه يطيل النظر في (لزوميات) أبي العلاء المعري، التي تحفل بنظراته القائمة في الحياة وأحوال الأحياء، ويُسمّيها (ربيع الأرواح)، إذ دواء السموم، بعض السموم^(٢٧).

كما نجد نفس حافظ مشدودة إلى (بؤساء) هوجو، فيترجمها ويستمتع بالإقامة في جوها الذي يوافقه مدة غير قصيرة. يقول في صدر ترجمته وهو يهدي الكتاب إلى الإمام محمد عبده: " إنك موئل البائس ومرجع اليائس. وهذا الكتاب أيدك الله، قد ألمّ بعيش البائسين وحياة اليائسين. وقد عنيت بتعريبه لما بين عيشي وعيش أولئك البؤساء من صلة النسب ". ويقول في مقدمته: " وضعه صاحبه وهو بائس، وعربيه معربه وهو بائس، وما عربته لولا اتحادنا في الألم وتشابهننا في الشقاء " ^(٢٨).

ولقد أكثر حافظ من وصف جهامة نفسه في شعره ونثره، فنقرأ له ^(٢٩) :

وبت يرتاح سمعي حين يفتقه صوتُ النوادب، لاصوت الأغاريدِ

كما نقرأ له قوله يصف ما يفعله البؤس بنفس الإنسان، إذا طالت صحبته لها، وباتت لا ترجى منه فرجاً^(٣٠) :

رُبُّ بؤسٍ يُخبِّث النفس حتى يطرح المرء في مهاوى الضلالِ

ويقرأ حافظ بيتين لـ(روس) تحت عنوان (النفس الحزينة)، فيسعد بهما ويترجمهما كما ترجم البؤساء من قبل، إذ يعبران تماماً عن نفسه. وكأنَّ صاحبهما كان يتحدث بلسانه حين قال ضارعاً إلى الله^(٣١) :

خلقت لي نفساً فأرصدتها للحزن والبسوى وهذا الشقاء

فأمننُ بنفس، لم يشبها الأسي لعلها تعرف طعم الهناء

فإذا سمعنا حافظاً يكثر من البكاء والشكوى لسبب أو لغير سبب، فهو يصدر في هذا كله عن وتر أصيل في نفسه، لا يملك القدرة على تغييره. وإذا رأيناه يحذر مواجهة الأعداء، ويتطامن للأقوياء، يستجلب رضاهم ويتوقى أذاهم، فهو صادق مع نفسه ويصدر في كل هذا أيضاً عما تحصل في صدره وشكل منذ الطفولة طبيعته. لقد ابتلعه أهدود الحزن الذي شقه في نفسه اليتيم والعوز والخوف، وأصبح مستحيلاً أن ينجو منه، وإن تحسنت ظروفه، وتبدلت للأجمل أحواله.

النقد الاجتماعي :

ولا أستبعد أن يكون لنفس حافظ الساخطة الشاكية أثر كبير فيما نطالع في شعره من تعرض كثير لعيوب المجتمع، وتبرّم شديد من أحوال الناس. فالنفس الساخطة التي تحس الهضم ولا تؤمل في الغد، لا تكاد عينها تقع إلا على ما قُبِح في الحياة من حولها. فصاحبها كأنه المعنيّ بقول الشاعر^(٣٢) :

والذي نفسه بغير جمال لا يرى في الوجود شيئاً جميلاً

أرى أن هذه النفس التي أوضحت من قبل ملاحظها القائمة، وراء كثير مما حمل به حافظ على المجتمع المصري، ووراء التفتيش المستمر عن عيوب هذا المجتمع في عصره والتنديد بها، فإن ما يذكره حافظ ويكثر من التعرض له، لم يكن خافياً عن أعين شعراء جيله. كانوا يطالعونه حولهم ليل نهار، ولم يولوه من الاهتمام، ما أولاه حافظ. فمثلما حطّت نفسه على (لزوميات) المعريّ، وعلى (بؤساء) هوجو، ووجدت فيهما زاداً ومتنفساً، راحت تحط على العيوب والنقائص، تتخذها وقوداً لأتون سخطها.

ولعل كثيراً من سخط حافظ على الإنجليز الذي عجز عن الجهر به، لعله وجد في النقد الاجتماعي متنفساً أرحب، وصوتاً أعلى. أي أنه تحول عن وجهته الأولى المستعصية إلى وجهة أخرى ممكنة. وتحول الطاقة أمر ثابت على الصعيدين النفسي والماديّ.

ونفس حافظ التي اتجهت به هذه الوجهة من كشف عيوب المجتمع والتنقيب عنها، هي التي مالت به إلى البائسين، يتحسّس آلامهم، ويواسيهم، ويعطف القلوب الرحيمة عليهم.

وحديث النقد الاجتماعي في شعر حافظ، طويل طويل، فهو يشغل مساحة واسعة من ديوانه، وينتشر في معظم قصائده، فضلاً عن الصفحات الكثيرة التي يشغلها في مؤلفه النثرى (ليالي سطيح). ولم يترك حافظ عيباً، عادةً كان أو عرفاً، أو ظاهرة

جدت في حياة الناس، إلا تحدث عنها ونبه إلى أضرارها. ولا يتسنى لباحث أن يتعرض لكل ما جرى به قلم الشاعر في هذا الجانب الواسع وأن يستوفي نظراته الناقدة وآراءه الإصلاحية، فإن هذا يتطلب منه مجلداً خاصاً. لهذا كان الاجتزاء ببعض ذلك ضرورة تقتضيها طبيعة هذا البحث العلمي. وما اخترناه يتعلّق بجوانب الإنسان المختلفة: النفسية والخلقية والسلوكية، ويكاد يقتصر على المجتمع المصري، إذ كانت عين الشاعر أشدّ وأكثر تحديقاً في أحوال المصريين، بحكم نشأته فيهم وحياته بينهم ووعيه طباعهم ومختلف عاداتهم، ينضاف إلى ذلك رغبة خالصة في علاج أدوائهم، وهو القائل (٣٣):

لعمرك ما أرقّت لغير مصرٍ ومالي دونها أملٌ يُرامُ
 ذكرت جلالها أيام كانت تصول بها الفراعنة العظامُ
 فأقلق مضجعي ما بات فيها وباتت مصرٌ فيه، فهل ألامُ؟

تواكل المصريين :

كان حافظ واثقاً من قدرة المصريين على تطوير حياتهم وتحسين ظروف معيشتهم، لو أنهم أحسنوا استغلال طاقاتهم العديدة، بشرية ومادية. فهم نتاج حضارتين: حضارة فرعونية قامت على أسس راسخة من العلم، وحضارة إسلامية ناصعة العقيدة، تدفع بأهلها إلى آفاق رحبة، تصان فيها نفس الإنسان وحقوقه. فهل استلهم المصريون تاريخهم وقيم عقيدتهم في مسلكهم وفي سعيهم من أجل حياة أفضل؟

يجيبنا حافظ بحسرات، ييئسنا هنا وهناك لهذا الشعب المتواكل الذي طرح وراء ظهره تاريخه، وتعاليم دينه، فعاش بائساً تنوشه أظافر الدخلاء، وتخلص قوته أصابع الغرباء، وصار أبناؤه يتكفون لقمة العيش من أيدي هؤلاء بعد أن غلبوهم على أرزاقهم :

أرى شعباً بمدرجة العوادي تمخّخ عظمه داءً عقامُ

إذا ما مرَّ بالبأساء عامٌ أطلَّ عليه بالبأساء عامٌ
سرى داء التواكل فيه حتى تخطف رزقه ذاك الزحامُ
هلاك الفرد منشؤه توانٌ وموت الشعب منشؤه انقسامُ
وإنَّا قد ونينا وانقسمنا فلا سعىً هناك ولا وئامُ
فساء مقامنا في أرض مصر وطاب لغيرنا فيها المقامُ

ولا يني حافظ يستنهض همم المصريين للكدح واقتحام العقبات لنشر ما طواه الزمن
من صفحات مجدهم الغابر^(٢٤) :

قم يا ابن مصر فأنت حرّ واستعد بجد الجدود ولا تعذُّ لمراح
شمّر وكافح في الحياة فهذه دنياك دارٌ تناحرٍ وكفاح
وخض الحياة وإن تلاطم موجها حوضُ البحارِ رياضةُ السباح

وظلّ يستحثهم على طلب المجد ولقمة العيش بكل أرض وفي كل مكان مثلما يفعل
الآخرون، وألّا يكتفوا بزفرات الأسي وشكوى الزمان، لأنها وسيلة العاجز في
مواجهة صروف الدهر :

وإذا اجتوتك محلّة وتنكرتُ لك فاعذُّها، وانزح مع النزّاح
في البحر لا تثنيك نارُ بوارجٍ في البرّ لا تلويك غابُ رماح
وانظر إلى الغربيّ كيف سمت به بين الشعوب طبيعة الكدّاح
ركبوا البحار وقدجمد ماؤها والجوّ بين تناوح الأرواح
والبرّ مصهور الحصى متأججا يرمى بنزّاع الشوى لواح
وابن الكنانة في الكنانة راكدٌ يرنو بعينٍ غير ذات طِمّاح
لا يستغلّ - كما علمت - ذكائه وذكاؤه كالخاطف اللّمّاح

فانهض ودع شكوى الزمان ولا تنح

في فادح البؤسى مع الأنواح

ولا يكتفى الشاعر بأن يتخذ المثل والقذوة من أهل الغرب. فنراه يلفت أنظار المصريين إلى همم أشقائهم وأبناء عموماتهم من أهل الشام، الذين يضربون من زمن بعيد في أقطار الأرض بحثاً عن الرزق، تدفعهم عزائم قوية تستخف بالمصاعب لبلوغ المآرب^(٣٥):

عافوا المذلة في الدنيا فعندهم عز الحياة وعز الموت سيان
تيمموا أرض (كولب) فما شعرت منهم بوطء غريب الدار حيران
سادوا وشادوا وأبلوا في مناكبها بلاء مضطلع بالأمر معوان
إن ضاق ميدان سبق من عزائمهم صاحت بهم فأروها ألف ميدان

ويعلم حافظ أنه يستثير غيرة المصريين بالحديث عن أهل الشام، أكثر مما يستفزها بحديثه عن أهل الغرب الذين يناوون عنهم نسباً، وطباعاً وموطناً. لهذا وجدناه يكثُر من لمس هذا الوتر الحساس في شعره ونثره، ويطيل في وصف عزائم أهل الشام وفي الثناء عليهم. ولم لا يمتدحهم حافظ، والرجل منهم يخوض البحر ويضرب في الأرض، لا يثنيه عن هدفه خوف المجهول، أو تعلق روحه بالوطن أو تزوع نفسه إلى الزوج والولد، ثم يعود ظافراً مرفوع الهامة^(٣٦) :

كم عادة بربوع الشام باكية على أليف لها يرمى به الطلب
يمضى ولا حيلة إلا عزيمته وينشئ وحلاه المجد والذهب
أسطولهم أمل في البحر مرتحل وجيشهم عمل في البر مغترب

هذا عرض مبسط لموقف حافظ من أهل الشام، وصورة مصغرة لحديثه عن عزائمهم التي لا تفتّر وجهادهم الذي لا يتوقف. فما موقفه من المصريين؟ وكيف صور حياتهم؟

الموقف مختلف تمامًا، كما يصل الاختلاف بين الموقفين والصورتين إلى حدّ
مقابلة الشيء بنقيضه. وأول ما نطالعه من ملامح الاختلاف والمغايرة، شدّة تعلّق
المصريين بأرضهم، التي أورثتهم ضعف الهمة والتسليم بالواقع، والقناعة بأبسط ألوان
العيش، والصبر على الذل. يؤثرون ذلك كله على مبارحة الأرض وهجر الأهل بحثًا
عن حياة أفضل.

قضى حافظ حياته ينعى على المصريين هذه الآفة التي تمكنت من نفوسهم، ويدعوهم
إلى سرعة مقاومتها ونبذها لتجنب آثارها الضارة. ولم يأل جهدًا في دعوة المصلحين
إلى مساعدة الشعب على التخلص من هذه الطبيعة النفسية التي ترنق عيشه وتعوق
تقدمه (٣٧) :

أيها المصلحون أصلحتم الأر ض وبتم عن النفوس نياما
أصلحوا أنفسًا أضربها الفق رُ وأحيا بموتها الآثاما
ليس في طوقها الرحيل ولا الجد ولا أن توصل الإقداما
تؤثر الموت في رُبا النيل جوعًا وترى العار أن تعاف المُقاما

وحديث الشاعر عما يراه من عيوب الشعب المصري، يجره دومًا إلى المقابلة بين حالهم
وأحوال الشعوب الأخرى، فبضدها تتميز الأشياء.

وليست آفة المصريين فحسب، في ارتباطهم الشديد بالأرض وتفضيلهم الموت جوعًا
على مبارحتها، وإنما أيضًا في لين طباعهم أمام الغرباء، حتى غلبوا على أقواتهم،
وأصبح هؤلاء يمسكون بزمام حياتهم ويصرفون أمورهم كيف شاءوا. فبات الغرباء
من كل جنس في مصر ناعمين، وبات أبنائها يعانون السَّغب، ويشكون الغربة :

أيها النيل كيف تُمسي عطاشا في بلاد روَّيتَ فيها الأناما ؟
يُرد الواغل الغريب فيروى وبنوك الكرام تشكو الأواما
إنَّ لَينَ الطباع أورثنا الذلَّ وأغرى بنا الجناة الطغاما

وفى (ليالى سطيح) يعرض حافظ جوانب أخرى وصوراً مختلفة من مأساة الشعب
المصرى المغلوب فى وطنه على أمره ورزقه، الشعب الذى (٣٨) :

سرى داء التواكل فيه حتى تخطّف رزقه ذاك الزحامُ

ولا ينى حافظ فى الكشف عن العيوب والتنديد بها والدعوة إلى نبذها. وفى أثناء
ذلك نجده يلين تارة ويقسو أخرى، أو يجمع فى حديث واحد بين اللين والقسوة.
يبدى سخطه وتعجبه من حال بعض المصريين راحوا يتباهون بالمال والألقاب
فيقول (٣٩) :

وما أرجوه فى بلدٍ به ضاق الرجاء وبى ؟

وهل فى مصر مفخرةٌ سوى الألقاب والرتب ؟

وذى إرث يكاثرنّا بمال غير مُكتسب ؟

فما يتباهى به هؤلاء لا يدل فى أغلب أحواله على ميزة خاصة عند صاحبه، عقلية
كانت أو نفسية.، ولا فخر للإنسان إلا بما يحوز من فضائل العقل والنفس.
وفى هذه القصيدة، يُظهر حافظ للمصريين نواحي تقصيرهم العديدة، ثم لا يلبث بعد
ذلك -لصدق شعوره- أن يصف الدواء لأدوائهم، وليس سوى ترك اللهو والتواكل،
ثم الاقتداء بالشعوب الجادة :

فهَبّوا من مراقدكم فإن الوقت من ذهبٍ

فهذي أمة اليابا ن حازت دارة الشُّهبِ

فهامت بالعلا شغفاً وهِمنا بابنة العنّبِ

ولئن كان الشاعر يتخذ أهل الشام قدوة فى المخاطرة والترحال بحثاً عن حياة أفضل،
فإنه فى ديوانه يكثر من اتخاذ اليابانيين مثلاً أعلى للشعوب الناهضة ذات السواعد
العاملة والعقول المفكرة، ويبدى إعجابه الشديد بكل ما حققوه من تقدم فى مختلف
جوانب الحياة.

ومن مظاهر التراخي وعود الهمة التي أزعجت الشاعر في سلوك المصريين، كثرة التسويف، وتأجيل الأعمال دون مبرر، لما يؤدي إليه ذلك من إضاعة الوقت وتعطيل المصالح^(٤٠) :

ما هذ عزم القادري — من بمصر إلا قول (باكر)
كم ذا نُحيل على غدٍ — وغدٌ مصيرَ اليوم صائرٌ
وحديث الشاعر عن التواكل وأثره السيء في حياة الشعب المصري طويل، ويتلبس فيه الغضب والتفريع برغبته الصادقة في صالح أمته^(٤١).
ما أخذ أخرى :

ولئن كان التواكل أهم ما تصدى له الشاعر من أدواء الشعب، فإن هناك مظاهر أخرى من تردى الأخلاق، تفتت في عضد الأمة ولا تقل عن التواكل خطراً. وفي قصيدة واحدة، أورد خمسة من هذه المظاهر المعيبة، التي يزيد من قبحها وخطرها، تعلّقها بأهل العلم، الذين ترجى مصر على أيديهم النفع. فإذا كان هذا شأن الخاصة، فماذا سيكون عليه العامة، الذين يجهلون الكثير من الحق وأسباب الخير؟! لهذا راح حافظ يلقي على مسامعنا حكيمته الشهيرة التي تدعو إلى اقتران العلم بفضائل النفس^(٤٢) :

والعلم إن لم تكتنفه شمائلٌ — تُعليه كان مطية الإخفاقِ
لا تحسبن العلم ينفع وحده — ما لم يتوجّج ربه بخلاقِ
وأخذ يقدم شواهد من واقع حياته على ما يفعله بعض رجال العلم والفقهاء من تغرير بالبسطاء، وإفساد لحياة الناس، ومن تحصيل المال بطرق غير مشروعة يابهاها الدين وتحميد عنها الفطر السليمة :

كم عالم مدّ العلوم حباتلاً — لوقية وقطية وفراقِ
وفقيه قوم ظلّ يرصد فقهاء — لمكيدة أو مُستحلّ طلاقِ

يمشى وقد نُصبت عليه عمامة كالبرج لكن فوق تل نفاق

يدعونه عند الشقاق وما درّوا أنّ الذى يدعون خِدن شقاق

ومن هؤلاء الذين عابهم الشاعر، الطبيب الذى يخالف أوامر الدين ونواهيه، فيقدم على قتل الأجنة فى البطون، أو على التجريب فى أجساد البشر عن غير بصارة، أو يغالى فى اقتضاء الأجر من مرضاه.

ومنهم مهندس الرىّ الذى استمرأ الرّثاء، فأخذ يتعسّف فى توزيع المياه على الزّراع، ليسوقوا كارهين إليه أموالهم، يدفعون بها ما يتهددهم من هلاك زروعهم :

ومهندسٍ للنيل بات بكفهٍ مفتاحُ رزق العامل المِطراقِ

تنبّدى وتيس للخلائق كفهٌ بالماء طوعَ الأصفر البراقِ

لا شىء يلوى من هواه فحدّه فى السلب حدُّ الخائن السراقِ

ولعل حافظاً قد استلهم فى هذا القول، ما علمه من سيرة أبيه، الذى كان مهندساً للرىّ بصعيد مصر، ينعم بما تدرّه عليه وظيفته من مال وفير، مقابل ما كان يقدمه لبعض كبار الزّراع من تيسيرات فى ضخ المياه الغزيرة إلى ضياعهم الواسعة. ولعل كثيراً من زّراع مصر مازالوا يعانون إلى الآن بسبب هذا السلوك الشائن.

ويختم الشاعر مأخذه فى القصيدة، بذكر طائفة من الكتّاب والأدباء الذين أوتوا قدرة على تزيين الباطل ومسح الحقائق، إرضاءً لشهوات نفوسهم. لقد استحالت الصحف إلى حبائل لصيد المال بالمساومة فى أعراض الناس، فهى "حُمْدَةٌ لمن أعطى وإن كان لئيمًا، لُمزةٌ لمن منع وإن كان كريمًا" (٤٣).

وقد تعرض حافظ للصحف فى ديوانه بمثل ما تعرّض لها فى (ليالى سطيح)، فراح ينتقد لغتها مرّة (٤٤)، ويصف أربابها مرة أخرى بالكذب والسُّعاية بين الناس بغير الحق (٤٥):

جرائدٌ ما حُطَّ حرفٌ بها لغير تفريقٍ وتضليلٍ

يحلو بها الكذبُ لأربابها كأنها كذبة إبريل

ومما عاب الشاعر عليه المصريين، إساءتهم إلى (النيل)، بعد أن كان أجدادهم يترضونه بالاحتفالات، ويتقربون إليه بالعرائس، جعلوه مصرفاً للفضلات ومقبرة للجيف، فجرى البلاء مع تياره وأصبح يهدد حياتهم، بعد أن كان سبباً فى أرزاقهم وبقائهم^(٤٦). ولو أن حافظاً بين ظهرانينا اليوم، لرأى هذه الظاهرة قد تفاقم خطرها ولازداد تحسراً وغيظاً.

وحافظ، الشاعر الذى نشأ فى المجتمع المصرى وقضى شطراً طويلاً من حياته فى مدينة (طنطا)، حيث يحتفل الناس أسبوعاً كاملاً من كل عام بمولد السيد (أحمد البدوى)، ثم انتقل إلى القاهرة، وتنقل فى أنحاء مصر، فوجد عادة الاحتفال بأولياء الله تضرب فى نفوس المصريين بجذور أعمق، لا بد أن يعبر مثلما عبر غيره من الغيورين على العقيدة، عن استيائه لغفلة الناس ولعتقداتهم الباطلة التى حرص على ترسيخها فى أذهانهم جماعة المتنفعين. مما يُلقى فى أضرحة أولئك الأولياء من نذور^(٤٧):

أحياؤنا لا يُرزقون بدرهم وبألف ألف ترزقُ الأمواتُ
مَنْ لى بحظ النائمين بحفرة قامت على أحجارها الصلواتُ
يسعى الأنام لها ويجرى حولها بحر النذور، وتقرأ الآياتُ
ويقال هذا القطبُ باب المصطفى ووسيلة تُقضى بها الحاجاتُ

وحافظ لا ينكر قدر أولياء الله الذين ثبت جهادهم، وإنما يُنكر اتخاذ البشر، مَنْ صحّت ولايته لله ومَنْ لم تصح، وسيلةً للتقرب إلى الله أو لقضاء الحاجات. كما يرى أن بالمجتمع من الأحياء من هم أولى وأحق بأموال النذور التى تُساق إلى هؤلاء الأموات، فلا ينتفعون بشيء منها. مازالت هذه العادة موجودة، وتثير جدلاً من حين لآخر بين المستفيدين منها، وبين الغيورين على السنة وصفاء العقيدة. وفي موضع آخر

ليراه يهيب بالإمام محمد عبده لمقاومة هذه العادة فيقول : (٤٨)

إمام الهدى إني أرى القوم أبدعوا لهم بدعاً عنها الشريعة تعزفُ
رأوا في قبور الميتين حياتهم فقاموا إلى تلك القبور وطوفوا
وباتوا عليها جاثمين... كأنهم على صنمٍ للجاهلية عُكفُ
فأشرق على تلك النفوس لعلها ترق إذا أشرقت فيها وتلطفُ

ومما عابه حافظ في حياة الشعب المصري، حفلات (الزار) التي كانت منتشرة في الأحياء الشعبية ثم عرفت سبيلها إلى قصور الأغنياء وأوساط المثقفين. وهي عبارة عن ملتقيات تتجمع فيها النساء على هيئة دوائر أو صفوف، فيتمايلن في كل اتجاه بإيقاع يُطوى ويسرع حسب إنشاد المنشد ونقر الدفوف، يزعمن أنها تخلص أجسادهن مما يتلبسها من أرواح شريرة. يحدثنا حافظ عن ذلك فيقول :

” السعيدة من النساء من سهلت لها الأقدار فأصبحت تُدعى (شيخة زار)، فهي تملأ يديها ذهباً وبيتها نشباً، وترفل في الحرائر من هبات الحرائر. ورأس مالها في تلك التجارة رُقية بأسماء بعض العفاريت الطيارة. تدخل على المقصورات في القصور والمخدورات في الخدور، فتفتق بطبلها طبل آذانهن، وتهز بأسماء الجن قواعم أبدانهن، وتعمى بدخان البخور نُجُل أعينهن. حتى إذا امتلكت منهن الوجدان وصار لها عليهن أيّ سلطان حكمت بينهن حكم المنوم البارع على النائم الخاضع“ (٤٩).

وحافظ يتحدث عن تجربة شخصية، فقد كان يؤم هذه الحفلات مع بعض الأدباء والوجهاء، فيقضى فيها ليلة صاخبة على طعام وشراب حتى الفجر، ثم ينصرف الرجال وتبقى السيدات لأن أسيادهن لا ترضى عنهن إلا بعد ثلاثة أيام في هذا الضجيج المهلك (٥٠).

ومن ثمّ، فإن انتقاده هذه الظاهرة يثير دهشة الباحث، للمقارنة بين قوله ومسلكه. ولعل حديثه هذا جاء بأخرة بعد إمامه بكافة جوانبها الصارة، سلوكية

كانت أو عقديّة. ويثير الدهشة أيضاً، ذمّه تواكل الناس وعدم أخذهم بأسباب العيش الكريم، فقد كان حسب ما يروى عنه مثلاً للتواكل والتراخي وعدم الانضباط في كل عمل يسند إليه، وبسبب هذا تعرض لمشاكل كثيرة. فموقف حافظ في بعض ما يعيبه على الناس ينطبق عليه القول الذائع^(٥١) :

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم
وكتيرة هي ما أخذ الشاعر، لو تتبعناها وسجّلناها، والاكتفاء ببعضها أمر يتطلبه البحث.

لقد اشتهر حافظ بشعره الاجتماعي. كان متواجداً بين الناس يرى أحوالهم فيكثر الحديث عنها. وسنرى في الفصل التالي أن مساحة تواجده في مجتمعه تزداد عما رأيناه في هذا الفصل.

* * *

هوامش الفصل الثانى :

- (١) ديوان حافظ إبراهيم، ج ١، ص ١٦٤.
- (٢) المرجع السابق، ج ١، ص ١٠٢.
- (٣) المرجع نفسه، ج ١، ص ١٩٩.
- (٤) المرجع نفسه، ج ٢، ص ١٢١. وانظر رسالته إلى الشيخ محمد عبده التى يستحثه فيها على سرعة العمل لإرجاعه إلى مصر، المرجع نفسه، ج ٢، ص ١٢٧.
- (٥) المرجع نفسه، ج ٢، ص ١١٤.
- (٦) المرجع نفسه، ج ٢، ص ١١٦.
- (٧) المرجع نفسه، ج ٢، ص ١١٣.
- (٨) المرجع نفسه، ج ٢، ص ١١٧.
- (٩) المرجع نفسه، ج ٢، ص ١١٧.
- (١٠) المرجع نفسه، ج ٢، ص ١١٤.
- (١١) المرجع نفسه، ج ٢، ص ١٣٣.
- (١٢) المرجع نفسه، ج ٢، ص ١١٢.
- (١٣) المرجع نفسه، ج ٢، ص ١١٤.
- (١٤) المرجع نفسه، ج ٢، ص ١١٩.
- (١٥) المرجع نفسه، ج ٢، ص ٧، وانظر (ليالى سطيح) من ص ١٦ - ١٨.
- (١٦) المرجع نفسه، ج ٢، ص ١٢١.
- (١٧) المرجع نفسه، ج ١، ص ١٧٢.
- (١٨) المرجع نفسه، ج ٢، ص ٧.
- (١٩) المرجع نفسه، ج ٢، ص ٢١٣.
- (٢٠) ليالى سطيح، ص ٤ - ٥.
- (٢١) ديوان حافظ إبراهيم، ج ١، ص ٢٥٦.

- (٢٢) المرجع السابق، ج ١، ص ٢٠٥.
- (٢٣) أحمد بن الحسين (المتنبي)، ديوان المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري، ج ٤، (بيروت، دار المعرفة، ١٩٧٨م) ص ٢٩٦.
- (٢٤) ديوان حافظ إبراهيم، ج ١، ص ١٨٩.
- (٢٥) المرجع السابق، ج ١، ص ١٩٧.
- (٢٦) المرجع نفسه، ص ٢٨٧.
- (٢٧) ليالى سطيح، ص ٢٦، وانظر أبو العلاء المعري اللزوميات (بيروت - مكتبة صادر سنة ١٩٥٢م)
- (٢٨) حافظ إبراهيم، البؤساء (القاهرة - مطبعة الهلال سنة ١٩٥١م).
- (٢٩) ديوان حافظ إبراهيم، ج ٢، ص ١٣١.
- (٣٠) المرجع السابق، ج ١، ص ٣١١.
- (٣١) المرجع نفسه، ج ٢، ص ١١٤.
- (٣٢) أبو ماضي (إيليا)، الأعمال الكاملة (بيروت - دار العودة - بدون تاريخ، ص ٦٠٤).
- (٣٣) ديوان حافظ إبراهيم، ج ٢، ص ٥٥.
- (٣٤) المرجع السابق، ج ٢، ص ١٠٣.
- (٣٥) المرجع نفسه، ج ١، ص ١٢٧.
- (٣٦) المرجع نفسه، ج ١، ص ٢٦٩.
- (٣٧) المرجع نفسه، ج ١، ص ٣١٦.
- (٣٨) المرجع نفسه، ج ٢، ص ٥٤، وانظر: (ليالى سطيح)، ص ١٧، وص ١٠٤.
- (٣٩) المرجع نفسه، ج ٢، ص ١١٠.
- (٤٠) المرجع نفسه، ج ١، ص ٢٩٤.
- (٤١) انظر أيضاً المرجع نفسه، ج ١، ص ٢٦٠، وص ٣٠٥.
- (٤٢) المرجع نفسه، ج ١، ص ٢٨٠.
- (٤٣) ليالى سطيح، ص ٢٧ - ٢٣، وص ٣٨.
- (٤٤) ديوان حافظ إبراهيم، ج ١، ص ٢٥٤.
- (٤٥) المرجع السابق، ج ١، ص ١٥٩.

-
- (٤٦) ليالى سطيح، ص ١ - ٤ .
- (٤٧) ديوان حافظ إبراهيم، ج ١، ص ٣١٨، وانظر: ليالى سطيح، ص ٢٤ .
- (٤٨) المرجع السابق، ج ١، ص ٢٢ .
- (٤٩) ليالى سطيح، ص ٢٥ .
- (٥٠) حياة حافظ إبراهيم، ص ٨٧ .
- (٥١) المرجع السابق، ص ١٥٨ - ١٦٠ والبيت من شواهد النحو ويروى لعدد من الشعراء منهم أبو الأسود الدؤلى والطرمّاح .

الفصل الثالث شعره الاجتماعي

عُرفَ حافظ إبراهيم بكثرة مشاركته الناس ألامهم وبتصويره آمالمهم في حياة كريمة وادعة لا يكدر صفوها بؤس أو خوف . لم يكن يعن له أمر ينصلح به حالهم ، إلا أقبل عليه يأخذ منه بنصيب ، تدفعه إلى ذلك نفس مجرّبة أجهبتها السنون ، فباتت تتوقى كل عادية ، وتفتح لأعين الناس من نوافذ الأمل ما أغلقته الأقدار أمامها .

تمنى حافظ أن يرى مصر والشعوب العربية والإسلامية ، بلدانا قوية عامرة بالخير والسلام ، لا تخلف يعطل تقدمها ، ولا انقسام يبدد شملها ويذهب بقوتها ، وكفاها ما عانت ومازالت تعانيه ، من سعي أعدائها إلى إضعافها ونهب خيراتها ومحو حضارتها . لقد كانت مشاركته هذه المجتمعات ما تتقلب فيه من ظروف ، قوية صادقة ، وإن غلّفها في بعض الأحيان غلالة من اللوم والتعنيف ، أو خالطتها مسحة من التشاؤم .

ويتبقى في شعره الاجتماعي جانبان هاما غير ما عرفناه في الفصل السابق من

نظراته الناقدة ، وهذان الجانبان هما :

دعوته إلى التكافل الاجتماعي

موقفه من القضايا الاجتماعية الهامة

ولا يعني هذا التقسيم أن هذين الجانبين يستقلان في شعره ، ويوجد أحدهما منفصلا عن الآخر ، فكثيرا ما يتداخلان في القصيدة الواحدة من شعره تداخل السدى واللحمة . وإنما آثرنا فصل هذين المحورين عند التناول، حرصا على تنظيم العرض ، وبيان سعة جهوده وشمولها كافة نواحي الحياة في عصره . ولم يكن حافظ وحده فارس هذا الميدان ، لكنه كان أعلى الشعراء صوتا ، وأسرعهم استجابة .

التكافل الاجتماعي في شعره :

الدعوة إلى التكافل الاجتماعي قبل أن تكون رسالة وواجباً ، استعداد نفسي عند الداعي لفعل الخير . وقد اجتمعت في شخص حافظ وحياته كل العوامل التي تحفز نفسه لأداء هذه الرسالة وللنهوض بهذا الواجب . وقد ذكر كثيرون ممن عاصروه أن نفسه كانت تنجذب إلى كل أعمال البر ، فيدعو إلى إعانة البائس ، أو كفالة اليتيم ، أو مساعدة المريض ، ... إلخ وكان الشعر كل ما يستطيع حافظ تقديمه من عون ، فنراه يقدمه معتذراً للناس عن فقره :^(١)

لو ملكنا غير المقال لجُدننا إن جُهدَ المقلِّ حُسْنُ المقالِ

كان للشاعر صوت عال على منابر المؤسسات الخيرية المختلفة ، يهيب فيها بأهل الخير أن يمدّوا أيديهم لرعاية الأيتام وبناء الملاجئ والمدارس ويرى ذلك حقاً للبؤساء وسبيلاً إلى حماية الأطفال من التشرد . ولم يكن شعر حافظ في دعوته إلى الخير ، مجرد نظم أوبوق يرفع فيه صوته ، فقد امتزج فيه الفن الرفيع بالغرض الطيب . وترك حافظ في شعره الاجتماعي آثاراً فنية جيدة ، تنطق بحسن تأتبه ولطيف مداخله ، وتضم تصويراً جيداً لأحوال البؤساء . فنسمعه مثلاً في حفل خيري لرعاية الأطفال ، يعطف قلوب الحاضرين ببراعة استهلاله وجودة تصويره ، فيقول :^(٢)

هذا صبيّ هائمٌ تحت الظلام هيام حائرٌ
أبلى الشقاء جديدهُ وتقلّمت منه الأظافرُ
فانظر إلى أسمائه لم يبق منها ما يظهرُ
إنّي أعُدّ ضلوعه من تحتها والليل عاكرُ
أبصرت هيكل عظمه فذكرت سكان المقابرُ
قد كاد يهدمه النسيبُ ثم وكاد تذروه الأعاصرُ
كم مثله تحت السدجى أسوان بادي الضّر طائرُ
خزيان ، يخرج في الظلا م خروج خفّاش المغاورُ

متلفعا جلبابه متزقبا معروف عابرا
يقنذي برؤيته فلا تلوي عليه عين ناظنر

وتصوير بؤس المتسولين في هذا المقام ، وتقديم لوحات حية منه ، أقوى في استدرار العطف والشفقة من طلب العون عن طريق الحث والعظة في أسلوب خطابي مباشر ، وهذا فن برع فيه حافظ وتفوق فيه على أقرانه الذين خاضوا معه هذا الميدان . ولم يدخر الشاعر وسعا في الحض على رعاية اليتيم ، إرضاء لله وإصلاحا لحاله ولحال المجتمع الذي يعيش فيه . ففي رعاية هذا اليتيم دفع لأخطار اجتماعية مؤكدة الحدوث ، في حال تركه يتزعزع في الدروب والأزقة ، ويسرح فيها كالهوام . وربما صار هذا اليتيم شخصا مرموقا ومواطنا صالحا ، بفضل كفالة المجتمع له وحسن توجيه طاقته :^(٣)

أنقذوه فربما كان فيه مصلح أو مغامر لا يُبالي
ربما كان تحت طميره عزم ذو مضاء يدك شمّ الجبال

ويعيد حافظ على مسامعنا ما قاله بعض الفُتّاك من الصعاليك في تبرير قتلهم الموسرين الأشحاء ونهب أموالهم : لقد تنكر الأغنياء لأولئك البؤساء وأبوا أن يرزقوهم من أموالهم ما يُمسك عليهم أرواحهم ، فنهضوا إلى سلاحهم يدفعون عنهم أذى الجوع وخطر الموت . يحذر حافظ الأغنياء من هجمة المَعْدِم اليائس فيقول :^(٤)

لو وفي بالزكاة من جمع الدنـ يا وأهوى على اقتناء الحطام
ما شكوا الجوع معدِم أو تصدى لركوب الشرور والآثام
راكبا رأسه طريدا شريدا لا يبالي بشرعة أو ذمام
سائلا عن وصية الله فيه آخذا قوته بحد الحسام

وكان الشاعر حريصا على أن يذكر الأغنياء ، بأن ما يُطالب به من مال الزكاة ، حق قسمه الله في أموالهم للفقراء ، وعليهم أداء هذا الحق دون امتنان أو تفضّل . كما نراه صريحا وهو ينفي العذر عن كل قادر لا يأخذ بيد محتاج ، أو يني في معاونة أهل

البر: (٥)

يا رجال الجسد هذا وقته أن أن يعمل كلُّ ما يرى
أنا لا أعذر منكم من ونى وهو ذو مقدرة أوقصّرا
ولا يفوته وهو يهز منابر الخير بشعره ، أن يثني على دور رعاية الأطفال
والجمعيات الخيرية ، وعلى رواد التكافل الاجتماعي الذين أقاموا بنيانه . كما لا يفوته
وصف ما يبذله القائمون بالأمر في المؤسسات الخيرية من رعاية حسنة ، وما يلقاه
الأطفال وغيرهم من حذبهم وحفاوتهم .

ولم يقصر حافظ همّه وهو يدعو إلى رعاية الأطفال ، على الاهتمام بإيوائهم
ورعاية أجسادهم بالغذاء والكساء ، وإنما تعدّى ذلك إلى المطالبة بتيسير سبل العلم
أمامهم ، فنراه يهيب بسعد زغلول - وكان ناظرا للمعارف - أن يفتح للأيتام سُبُل
التعلّم التي سدّها الفقر أمام بعضهم ، محرّكا في حديثه وترا حسّاسا في قلب هذا
الزعيم ، الذي لم يرزقه الله نعمة الولد: (٦)

يا سعد إن بمصر أي تاما تؤمّل فيك سعدا
قد قام بينهمو وببي من العلم ضيق الحال سدا
مازلت أرجو أن أرا ك أبا وأن ألقاك جدا
حتى غدوت أباله أضحت عيال القطر ولدا

ولم يكتف حافظ أيضا بالدعوة إلى رعاية الأطفال الأصحاء وتعليمهم ، فقد
اتسعت دعوته لتشمل نواحي خيرية أخرى مثل الاهتمام بالمعوقين ، فنجده يطالب
ببناء مدرسة لتعليم العميان ، تعوضهم بنور العلم عن فقدهم نور البصر . فلعل مصر
تظفر منهم بعالم له علم ومنزلة الدكتور طه حسين: (٧)

إنّ حق الضرير عند ذوي الأبصا ر حقّ مستوجب التقديس
لم يضره فقدانه نور عينيـ ه إذا اعتاض عنهما بأنيس
آنسوا نفسه إذا أظلم العيـ ش ، بعلم ، فالعلم أنس النفوس

أكملوا نقصه يكن عبقريا مثل (طه) مبرزاً في الطروس
وحافظ يطلب الخير لكل الناس ، وتسرع به قدمه إلى كل مناسبات البر ، فلا
عجب إن رأيناه في محفل يطلب إعانة أبناء الشام الذين يدرسون بالأزهر ، بعد أن
ساءت حالهم بسبب الحرب ، يرى ذلك حقا لهم في أعناقنا :^(٨)

إنّ في الأزهر قوما نالهم من لظى نيرانها بعض الشرر
أصبحوا - لا قدر الله لنا - في عناء وشقاء وضجر
نزلاءً بيننا ، إن يُرهقوا أو يُضاموا ، إنها إحدى الكُبر
فأعينوهم ، فهم إخوانكم مسهم ضُرُّ ونابتهم غير

كان حافظ تواقاً إلى رؤية الناس جميعاً ينعمون بحياة ، لا يتهددهم فيها جوع أو
عري أو خوف ، غير تلك التي جرّبها وما زال يعاني وخز ندوبها . وكان تجاوبه مع
النوائب سريعاً ، كأنما كان يترصدها أو يتوقع حدوثها . فإذا تعرّض الناس لطارئ
مفزع أو حادث مروّع ، أهتم نفوسهم وأقضى مضاجعهم ، هرع يللم بشعره أشتات
نفوسهم ، ويرتق بكف حانية ما تنثر من أشلائها . ولا يعدم حافظ في مثل هذا
الحادث أو ذاك ، استهلالاً مؤثراً يستعين فيه وسائل التأثير المختلفة التي يجيد استعمالها
، من لفظٍ يجيد سبكه في قالب مناسب ، وصورة يتقن تضخيم ملاحظها ، يستفز بذلك
نفوس الناعمين من أثرياء المجتمع ويحرك ساكنها ، لمجابهة الخطب وللتخفيف من آثار
تلك الحوادث . فيقول مستهلاً حديثه عن أهل (ميت غمر) الذين دهمتهم النار ثمانية
أيام متواصلة، أتت فيها على كل شيء :^(٩)

سائلوا الليل عنهم والنهارا كيف باتت نساؤهم والعدارى ؟
كيف أمسى رضيعهم فقد الأم؟ وكيف اصطلى مع القوم نارا ؟
كيف طاح العجوز تحت جدار يتداعى وأسقف تتجارى ؟

... الخ

ووصفه ضراوة الحادث يشغل ثلاثة عشر بيتاً في مستهل القصيدة . وفيه عرف

كيف يستميل القلوب إلى ضحايا الحريق ، مرةً بحسن اختياره المنكوبين الذين يقدر بالحديث عنهم على تحريك المشاعر ، ومرة أخرى بالمبالغة والتهويل في وصف الدمار الذي لحق بالمدينة . ففي الجانب الأول لم يعرض أمام عيوننا غير صور الضعاف الذين شرّدهم الحريق وتخطف ذويهم ، من نساء وعذارى ، وشيوخ وأطفال رضّع . وإذا لم يهزّ بهؤلاء الضعاف نخوة الناس ويرقق قلوب الجفافة منهم ، فبمن يهزّ ويرقق؟ . وفي الجانب الآخر ، يصف هول النار وآثارها فيبالغ في الوصف ، إذ لكل مقام مقال ، ولكل حادثة حديث ، ومسلك الناس تجاه الخطب الجسيم ، ليس كمسلكهم تجاه الحدث خفيف الوطأة حين الوقوع . وهل هناك نارٌ أشدّ ضراوة من نار هذا الحريق التي لا يروي ظمأها سوى طوفان نوح :

أين طوفان صاحب الفلك يروي هذه النار فهي تشكو الأوارا
أكلت دوزهم فلما استقلت لم تغادر صغارهم والكبارا
أخرجتهم من الديار عراً حذر الموت يطلبون الفرارا

فإذا تحقق لحافظ ما يريد من عرض جوانب المأساة ، وأحس أنه بمعرض قد هيا نفوس السامعين لفعل الخير ، استدار إلى القادرين يتعجل بنجدتهم :

أيها الرافلون في حُلل الوشد بي يجرّون للذيول افتخارا
إن فوق العراء قوما جياعا يتوارون ذلّة وانكسارا

إلخ...

وتتسع عاطفة حافظ إنسانية ورحمة ، فتتخطى حدود مصر والعالم العربي والإسلامي . فإذا وقع زلزال (ميسينا) ، وجدنا له موقفاً مثل موقفه من حريق ميت غمر ، وقولا أشبه بالقول ، ووجدناه يتوجه إليها بخالص العزاء ، ويهيب بكل قادر لتقديم العون لإخوانه في الإنسانية ، يراه حقاً لا إحساناً :^(١٠)

فسلامٌ عليكِ يوم تولّيتِ ستِ بما فيك من مغانِ حسانِ
وسلامٌ على امرئٍ جادٍ بالدمع وثني بالأصفر الرّنانِ

ذاك حق الإنسان عند بني الإنس — إنسان لم أدعكم إلى إحسان
وهكذا تبدى أمام أعيننا في أوقات الشدة ، عاطفة الشاعر وإنسانيته ، يغذوها قلب
رحيم ، ونفس كابدت الكثير من عنت الحياة .

ولأن حافظ يدرك ما يفعل الفقر والجوع بالمرء إذا عزت القوت ، وقف يهتف
بأولي الأمر لمواجهة غلاء الأسعار الذي تعرضت له البلاد إبان الحرب العالمية الأولى ،
وصار يهدد أبدان الناس وأرواحهم :^(١١)

أيها المصلحون ضاق بنا العيش	ش ولم تحسنوا عليه القياما
عزت السلعة الذليلة حتى	بات مسح الحذاء خطبا جساما
وغدا القوت في يد الناس كاليا	قوت حتى نوى الفقير الصياما
أيها المصلحون رفقا بقوم	قيّد العجز شيخهم والغلاما
وأغيشوا من الغلاء نفوسا	قد تمت مع الغلاء الحماما

ولا يفوت الباحث أن يقرّ في هذا المقام بفضل حافظ وتفوقه في تناول هذا الأمر على
شوقي الذي جاء حديثه عنه عرضا في إحدى قصائده .^(١٢)

ولم تقتصر جهود حافظ في استمالة القلوب الرحيمة على ما صاغه من شعر في
مناسبات البر ، فقد راح في مدائحه ومرائيه يثني على جهود المخلصين من الأحياء
والموتى ، ولا يدع فرصة إلا جدد فيها الدعوة لإتيان الخير .

حافظ وقضايا المجتمع

لكل مجتمع قضاياها التي تستحوذ على اهتمام الناس فيه . وقد انشغل جيل حافظ
إبراهيم بعدد من القضايا الاجتماعية الهامة ، كان على رأسها : قضية الوحدة الوطنية
بين المسلمين والأقباط ، وقضية تطوير التعليم ، ثم قضية تحرير المرأة . وكانت كل
قضية تستأثر فترة من الزمن ، باهتمام المفكرين والأدباء وولاة الأمر ، ثم تختفي أو
تهدا ، لتظهر أخرى تحل محلها وتشد الناس إليها . كما كان لكل قضية جوانبها

الحساسة التي تتطلب فيمن يتصدى لها رفقا وكياسة .

الوحدة الوطنية والتسامح الديني

كانت الوحدة الوطنية وما زالت أهم القضايا وأشدّها حرجا في حياة المصريين. والاختلاف بين العقائد في أي مجتمع ، بابٌ يمكن لقوى الشر أن تدلف منه ، إذا لم يُحكم غلقه . ومن يوم لآخر يتجدد الصراع في مجتمعات عديدة بسبب ما بين أبنائها من اختلاف في الأجناس والعقائد والألوان والتوجهات ، ولا سبيل لقتل هذه العصبية الضاربة بجذورها في أعماق النفس البشرية ، وإن كان من الممكن ضبطها وكبح جماحها . إن الخصومة تقع بين رجلين تجمعهما عقيدة واحدة وعرق واحد ، تكون أشد أثرا لو وقعت بين مختلفين ، لميل بعض النفوس بسبب هذا الاختلاف ، إلى قبول كل تأويل ينمي فيها الإحساس بالهضم . هذا قدر المجتمع المصري وغيره من المجتمعات التي تلتقي فيها أصول متباينة وعقائد مختلفة .

وقوى الشر التي تتربص بهذه المجتمعات ، تتحين الفرص المناسبة لتنفخ فيما يطفو على السطح من خلاف فتضخمه ، وتسكب عليه وقودا من شرورها ، فإذا استبطأت الفرصة ، هيأت التربة ، وألقت بذرة الشقاق ووقفت ترقب نموها وتساعد عليه . وهكذا كانت سياسة الإنجليز في مصر ، يؤججون نار الخلاف ، ويختلقون الأزمات بين طوائف الأمة .

ولأدباء مصر وأصحاب الكلمة المسموعة فيها ، مواقف مشرفة في كل ما تعرضت له من عوادي الفرقة بين المسلمين والأقباط ، فنراهم يحدثون الناس عن سماحة الأديان ، ويذكرونهم بتاريخ مصر الحافل بتآلف الصليب والهلال . وقد تفنن الشعراء في رأب الصدع ولم الشمل ، حتى بلغ الأمر بأحدهم إلى حدّ قوله ، رغبةً منه في إخماد نار العصبية :^(١٣)

ما الدين إلا تراثُ الناس بينهم كلُّ امرئٍ لأبيه تابعٌ تالٍ

ومتى صارت حقيقة التدين عند الإنسان كحقيقة الإرث ، لا اختيار للمرء فيما يدين به أو يرثه ، فإنه لا يحق للناس أن يجعلوا الدين سببا في تخاصمهم وتمزيق شملهم .
وبتعبير آخر يرى الشاعر أن الدين مثل القدر الذي يصيب الإنسان ، فهو لا يختار دينه كما لا يختار قدره . مثل هذا الرأي الحاد في الدين ، كان سيلقى رفضا لو ظهر في غير ظروف الفتنة الطائفية ، التي تبرره وتدفع إليه ، فالغاية- كما يرى بعضهم- ترر الوسيلة .

وفي غمرة الفتنة الطائفية أيضا راح شعراء كثيرون يدعون الطرفين ، مسلمين وأقباط إلى استبدال وحدة الوطن التي تجمع شملهم بثنائية الدين التي تُفسد ألفتهم .
فلتكن الأرض التي يعيشون عليها ديناً لهم جميعاً يغارون عليه وينذودون عنه . أما عقائدهم السماوية فمردها إلى الله ، الذي لو شاء لجعل الناس أمة واحدة على دين واحد .

ويسجل تاريخ الأدب المصري الحديث لشوقي ، دعوته المبكرة للوحدة الوطنية التي تقى مصر عادية الفرقة وسعايات المغرضين ، فقد وقف في عام ١٩٠٦م منكرًا دعاوى التجزئة التي توهن عزم الأمة :^(١٤)

يا بني مصر ، لم أقل أمة القبط ط ، فهذا تشبُّتٌ بحالٍ

واحتيالٌ على خيال من الجحْد ودعوى من العراض الطوالِ

وراح يذكر المصريين بما كانوا يتقاسمونهُ عبر الأجيال من لقمة العيش ، وقليل النعيم وكثير البؤس ، لا تختص فئة من ذلك بشئ دون الأخرى ، ثم يردُّهم إلى أبوتهم الأولى ، والأصل الذي لا اختلاف فيه ، إلى (النيل) الذي سبق (آدم) وجميع الأديان :

إنما نحن مسلمين وقبطا أمةٌ وُحِّدت على الأجيالِ

سبق النيل بالأبوّة فينا فهو أصلٌ وآدم الجدُّ تالِ

وتتابع الشعراء يدعون لهذا الأمر ، وكان لحافظ إسهام بارز . وكيف لا يكون له هذا الإسهام وقد كان على مودة مع كثير من الأقباط ، أدباء ومفكرين وساسة ، تجمعهم

بهم المحافل وليالي السمر ، فيطارحهم الفكر والشعر والنادرة ، وإذا غاب عنهم افتقدوه وتسمعوا أخباره^(١٥) . وكان يفهم أن اختلاف الدين لا يجب أن يكون سببا في تكدير الحياة بالتحزب وإثارة الفتن ، وأنه لا يتورط في ذلك إلا غافل لا يعقل أمر دينه . لهذا كان شعره يعبر عن عجبه ودهشته قبل حسرته ، لما يترامى إلى أذنيه من أنباء الفرقة بين شطري المجتمع ، بل لكل نظرة متطرفة قد تؤدي إلى هذه الفرقة . يمثل هذا الفهم الراقي والإحساس الصادق ، وجدناه يستحث الخديوي عباس الثاني في الأبيات التالية على سرعة المبادرة لسد خلل ظهر في تآلف عنصرى الأمة^(١٦) :

مولاي أمتك الوديدة أصبحت	وعرى المودة بينها تتفصم
نادى بها القبطي ملء لهاته	أن لا سلام وضايق فيها المسلم
وهم أغار على النهى وأضلها	فجرى الغي وأقصر المتعلم
فهموا من الأديان مالا يرتضي	دين ، ولا يرضى به من يفهم

ولا يني حافظ يهيب بالمسلمين والمسيحيين في كل بلد عربي ، لا في مصر وحدها ، أن يطهروا قلوبهم من الأحقاد ، فيقول لأبناء لبنان^(١٧) :

يا قوم إنجيل عيسى	وأمة القرآن
لا تقتلوا الدهر حقدا	فالملك للديان

و يمثل هذه الروح المتسامحة التي تتجاوز حدود الدين ، راح حافظ يرثي صديقه الدكتور (شبلي شميل) وبنوه بأخلاقه الفاضلة ، ثم يرد على أناس توقع استنكارهم ذلك منه ، لما كان المرثي يبيده من آراء تمس العقيدة الإسلامية^(١٨) :

قيل : ترثي ذاك الذي ينكر التور	ر ولا يهتدي بهدي الكتاب ؟
قلت : كفوا فإنما قمت أرثي	منه نجلا أمسى طويل الغياب
أنا أرثي شمائله منه عندي	كن أحلى من الشهاد المذاب
كان حر الآراء لا يعرف الخت	ل ولا يستبيح غيب الصحاب

مُفضلاً محسناً على العسرواليسر سر جميع الفؤاد ، رحب الجناح

الخ...

فعبّر حافظ في رده عن عاطفة رغبة ، اتسعت لتضم ذوي الخصال النبيلة على أي عقيدة كانوا ، مستبدلة بالمعايير والقيم التي تفرّق ، معايير وقيما إنسانية وأخلاقية يمكن أن توحد بين بني الإنسان في كل صقع وزمان . يرى حافظ أن هذه القيم الجديدة التي تطرح من بينها العصبية الدينية والعرقية ، يمكن أن توحد المستضعفين في أمم الشرق أدناها وأقصاها ، لدرء خطر الغرب الطامع في ثرواتهم ، المتحكم في حريتهم^(١٩) :

متى أرى الشرق أدناه وأبعده عن مطمع الغرب فيه غير وسان
تجري المودة في أعراقه طلقا كجربة الماء في أثناء أفنان
لا فرق ما بين بوذيّ يعيش به ومسلم ويهوديّ ونصراني

لهذا كان حافظ في شعره كثير الثناء على انتصارات اليابان في الحرب والعلم ، يعتد بانتصارها وليست على مثل ديننا ، ويعدّه نصراً للأمم الشرق المغلوبة على أمرها . فإذا كان هذا القول يمثّل رؤية حافظ وتسامحه ، وحرصه على تحقيق وحدة كبرى تشد عزم الشعوب في مواجهة القهر ، فإن حرصه على تحقيق الألفة بين أبناء وطنه أشد ، وقد سعى كثيراً في سبيل تحقيقها يعضده رفاقؤه من كتاب وشعراء .

قضية تطوير التعليم

ظل الأزهر قروناً طويلة منارة العلم الوحيدة التي تشع نورها في أنحاء مصر ، ويؤمه من حين لآخر طلاب العلم من مختلف الأقطار الإسلامية . وكانت الكتابيب الكثيرة المنبثّة في أنحاء البلاد ، هي الروافد التي تصب في صحنه الواسع ، ما يتجمع فيها من ناشئة مصر الراغبين في استكمال تعليمهم الدينيّ . فلما احتك المصريون بالغرب مرتين في الحملة الفرنسية تارة وفي الاحتلال الإنجليزي تارة أخرى ، أيقنوا ألا سبيل إلى ترقية أحوال البلاد ، بغير إدخال تلك العلوم الحديثة التي كانت وراء ما

شاهدوه من مظاهر المدنية الغربية . لهذا بادر (محمد علي) بإرسال البعثات العلمية إلى فرنسا ، وأنشأ وبعض أبنائه عددا من المدارس ، التي تركز جهودها في تقديم معارف العصر التي طالعوا آثارها في بلدان أوروبا . ولكن هذه المدارس كانت من القلة بما لا يفي بحاجة البلاد ، فسعى المخلصون إلى التوسع في إنشائها ، ثم تطلّعوا إلى إنشاء جامعة تضم عددا من الكليات المتخصصة في مجالات الحياة المختلفة ، للارتقاء بالناس ثقافيا وصحيا واقتصاديا . لم يرق هذا السعي للإنجليز ، الذين حرصوا على إبقاء الناس فيما هم فيه من جهل بسبل الحياة الراقية ، لئلا يكون شيوع التعليم بينهم وارتقاؤهم سببا في دفع تيار التحرر إلى غاية لا تمكنهم من مقاومته . لهذا راحوا يقاومون بشدة فكرة إنشاء هذه الجامعة ، بدعوى أن عقول المصريين غير مهيئة لاستيعاب علوم العصر ، وبدلا من الجامعة حثوا على نشر المزيد من الكتابات في مدن وقرى مصر.

وقد فطن مفكرو مصر وأصحاب القلم فيها لما يرمي إليه المحتل ، فأصروا على تحقيق مطلبهم ، وحشدوا الطاقات وحفزوا همم الأثرياء للعطاء ، وعدّوا مساهمتهم في تأسيس هذه الجامعة ، جهادا وطنيا ، بل واجبا دينيا لا ينبغي التقصير فيه . وتدافع المصريون بالناكب ، كلّ يمد يده بما يقدر عليه ، فجاد بعضهم بالأرض ، وجاد آخرون بالمال .

وفي المحافل العديدة التي أقيمت لتأييد هذا المشروع ، انبرى الشعراء يحدّثون من محاولات الإنجليز لصرف الهمم عن هذا الأمر ، ومن دعوتهم إلى نشر الكتابات في كل مكان بدلا من الجامعة . وكان حافظ في طليعة هؤلاء الشعراء ، وأعلام صوتنا في التحذير^(٢٠):

ذُرُّ الكتابات مُنشيها بلا عددٍ ذرُّ الرمادِ بعين الحاذقِ الأربِ
فأنشأوا ألف كتابٍ وقد علموا أن المصاييح لا تُغني عن الشهبِ

وراح يبيّن عجز هذه الكتابات عن الارتقاء بأحوال الناس ، لأنها كما وصفها في

(ليالي سطيح) تقدم تعليماً ناقصاً ، لا يتضمن مهارة تفيد منها الأمة :

هَبُوا الأَجِيرَ أَوْ الحِرَّاثَ قَدْ بَلَّغَا حَدَّ القِرَاءَةِ فِي صَحْفٍ وَفِي كَتَبٍ
مَنْ المَدَاوِي إِذَا مَا عِلَّةٌ عَرَضَتْ ؟ مَنْ المَدَافِعُ عَنِ عَرَضٍ وَعَنْ نَشْبٍ ؟
وَمَنْ يَرُوضُ مِيَاهَ النِّيلِ إِنْ جَمَحَتْ ؟ وَأَنْذَرْتَ مِصْرَ بِالوِيَلَاتِ وَالحَرْبِ ؟
وَمَنْ يُوَكَّلُ بِالقِسْطِ بَيْنَكُمْ ؟ حَتَّى يَرَى الحَقَّ ذَاحِوْلَ وَذَا غَلْبِ ؟
وَمَنْ يَبْزُ أَدِيمَ الأَرْضِ مَاركَزَتْ ؟ فِيهِ الطَّبِيعَةُ مِنْ بَدْعٍ وَمِنْ عَجْبِ ؟

إلخ...

فالكاتيب لا يتخرج فيها الطبيب ، ولا الضابط ، ولا المهندس ، ولا رجل القانون ، ولا الخبير . بما هو مركز في باطن الأرض من كنوز . وفي ختام قصيدته الطويلة المملأ بالحث والتحذير والتأميل ، يعلن مساهمته في هذا العمل الجليل ، داعياً الحضور إلى الاقتداء به :

هذا هو العملُ المبرورُ فاكتبوا بالمالِ إِنَّا اَكْتَبْنَا فِيهِ بِالأَدَبِ
وَلَمْ يَمْرُ عَامٍ عَلَى دَعْوَتِهِ هَذِهِ ، حَتَّى وَقَفَ فِي حِفْلِ آخِرٍ نُظِّمَ لِهَذَا الغَرَضِ ، يُحْيِي النَاسَ
وَيَجِدُّ عَزْمَهُمْ لِهَذِهِ الجَامِعَةِ ، وَيَصْرِفُهُمْ عَنِ دَعَاوَى (كرومر) الباطلة، الَّتِي اتَّهَمَ فِيهَا
عُقُولَ المِصْرِيِّينَ وَقَدَرَتَهُمْ^(٢١) :

ضَعُوا القُلُوبَ أَسَاسًا لَا أَقُولُ لَكُمْ ضَعُوا النُّضَارَ فَإِنِّي أُصْغِرُ الذَّهَبَا
وَابْنُوا بِأَكْبَادِكُمْ سَوْرًا لَهَا وَدَعَا قِيلَ العَدُوِّ فَإِنِّي أَعْرِفُ السَّبِيَا
لَا تَقْنَطُوا إِنْ قَرَأْتُمْ مَا يَزُوقُهُ ذَاكَ العَمِيدِ وَيَرْمِيكُمْ بِهِ غَضَبَا

إلخ...

ولا يكتفي حافظ في تحفيز همم الحضور بالحض والوعظ ، وإنما راح يستثير وطنيتهم من خلال تقديم القدوة الحسنة والمثل الأعلى . ومن ترى يكون القدوة ويكون المثل؟ غاص الشاعر في التاريخ ثم وقع على موقف نساء (قرطاجنة) الشهير في حربها مع الرومان ، فكان خير قدوة وأفضل مثل ، يحض به المصريين على الجهاد . ذلك أن

أسطول (قرطاجنة) تعطل في تلك الحرب لعدم وجود الحبال اللازمة لتسيير السفن ،
فما كان من النساء إلا أن جززن شعورهن الطويلة ، واتخذن منها أمراسا دفعت
بالسفن البرواكد لملاقاة العدو حتى تحقق النصر :

هل جاءكم نبأ القوم الألى درجوا وخلفوا للورى من ذكرهم عجباً
عزت (بقرطاجنة) الأمراس فارتهنت فيها السفين وأمسى حبلها اضطرباً
والحرب في هلب والقوم في حرب قد مد نقع المنايا فوقهم طنباً
هنالك الغيد جادت بالذي بخلت به دلالا فقامت بالذي وجباً
جزت غدائر شعر سرحت سفنا واستنقدت وطنا واسترجعت نشباً
وزادها ذاك حسنا وهي عاطلة تزهى على من مشى للحرب أو ركبا

فإذا كان هذا صنيع النساء ، فماذا تنتظر مصر من رجالها وتضحياتهم ؟

لم يقصر حافظ دعوته لهذا المشروع على شعره . فنراه في (ليالي سطيح)
ينعى على المصريين إرسالهم أبناءهم للتعلم بإحدى كليات (بيروت) ، وعجزهم عن
إيجاد مثلها في مصر ، يقول (٢٢) :

” أليس من العار أن تكونوا أكثر مالا وأعز نفرا ولا تجدوا في مصر لتعليم أولادكم
مستقرا . وليست بيروت بأخصب من عروس النيل أرضا ولا بأوسع من ملك مصر
طولا وعرضا . أيعجز في مصر عشرة ملايين من النفوس عن بناء كلية ويظفر عشر
معشارهم في بيروت بنيل تلك الأمنية “

وأخذ ينحى باللوم على تلاميذ الأستاذ الإمام محمد عبده الذين علموا ألا حياة للأمة
بغير الجامعة ولم يواصلوا قرع آذان الأغنياء وذوي السلطان لإنفاذها . كما ظل يؤكد
أن (الكتاتيب) لن تُغني غناء الجامعة التي تقدم نوعا راقيا من التعليم المدني اللازم لكل
نهضة ، وأن الحكمة تقضي بأن يحافظ الشعب على (الكتتاب) ، ويسعى لإنفاذ الجامعة
(٢٣) .

ويستمر حافظ في تعنيف أهل الرأي في البلاد . ليس لما أحسه من فتور همتهم

فحسب ، وإنما لاكتفائهم أيضا بنسبة كل أدواء مصر إلى الإنجليز ، يقول :
”فمالكم تنحون باللائمة على رجال الاحتلال وأنتم أصل ما أتم فيه من البلاء...فما
عساهم أن يصنعوا بكم إذا قام لفيف من أغنيائكم وتساندوا بأموالهم على تأسيس
كلية ، أو ما عساهم أن يصنعوا بكم إذا خصص هؤلاء الأغنياء جوائز للفائزين في
العلوم وأرصدوا جعالات لكل بارع في صنوف التأليف أو معرّب لتلك التصانيف التي
ضابت بها رحاب المغرب وأقمرت منها مكاتب المشرق“^(٢٤)
لم تضع جهود حافظ وغيره من دعاة الإصلاح ، إذ تحقق الحلم وتم تأسيس
جامعة (فؤاد الأول) ، فاكتحلت برؤيتها عيناه قبل أن يطبقهما في رقدته الطويلة سنة
١٩٣٢ م .

قضية تحرير المرأة

تحرير المرأة ، آخر ما تناوله من القضايا الاجتماعية التي كان لحافظ صوت
فيها. ومنذ أصدر قاسم أمين كتابه (تحرير المرأة) مطالباً فيه برفع حجابها ، والمفكرون
والأدباء وعلماء الإسلام في جدل شديد حول هذا الموضوع ، بين مؤيد ومعارض ،
كل يرى رأيه ويقدم حججه . وسرت الدعوة في أقطار الوطن العربي سريان النار في
الهشيم . وكثر حديث الشعراء في هذا الأمر ، وعلت أصواتهم بين رافض ومشايخ .
فماذا كان موقف حافظ إبراهيم ؟

كان حافظ يطالع على صفحات الجرائد ، ما يدور من معارك ، ويرى ما
يتعرض له قاسم أمين من طعن كثير ، وما يحظى به من تأييد قليل . وكانت ظروف
المجتمع المصري والمجتمعات العربية ، لا تساعد آنذاك على أن يجهر واحد بمثل هذه
الدعوة التي تصادم في وجوه منها أحكام الدين ، وتأبأها الأعراف والتقاليد وحمية
الرجل العربي وغيرته . وحافظ - كما ذكرنا من قبل - قد راضته ظروف حياته على
أن يُطامن إذا لزم الأمر ، أو يهادن ويداور بُغية أن يعيش هادئ النفس . ولأنه يعلم

أن التوسّط في هذه القضية الهامة قد يُجنبه سخط الرافضين ، وجدناه لا يميل ميلا حادا إلى أحد الطرفين ولا ينصر فئة على أخرى ، وإذا صدر عنه رأي فهمه الناس على أنه ترجيح لإحدى الكفتين ، سرعان ما يستعيد التوازن برأي آخر ، يعمّي على الأول ، فيلتبس الأمر على الجانبين ، ولا يدریان ، مؤيد هو أم معارض ؟ . ونحاول فيما يلي استخلاص رأي واضح محدد له ، وهو يقف في هذا المنعطف الاجتماعي الهام ، الذي أدى إلى تغيير كثير من الأعراف والأنماط السلوكية على مستوى الفرد والأسرة والمجتمع .

يرثي الشاعر قاسم أمين فيقول له^(٢٥):

إن ريتَ رأيا في الحجاب ولم	تُعصم ، فتلك مراتبُ الرُّسُلِ
الحكْمُ للأيام مرجعة	فيما رأيتَ ، فم ولا تسلِ
وكذا طُهاة الرأي تركه	للدهر ، يُنضحهُ على مهلِ
فإذا أصبتَ فأنت خير فتى	وضع الدواء مواضع العِللِ
أولا ، فحسبك ما شرفتَ به	وتركتَ في دنياك من عملِ

ونلاحظ من حديثه أنه لم يزد على أن وصف صاحب الدعوة بأنه غير معصوم من الزلل ، ووصف الدعوة بأنها تحتمل الصحة كما تحتمل الخطأ ، والأيام وحدها كفيلة بأن تثبت للناس إن كان صاحبها على صواب أو خطأ . وبهذا جنب الشاعر نفسه الحكم عليها ، واتخاذ موقف محدد منها .

لكن الشاعر بعد هذا القول بعامين ، يجهر بتأييد بعض ما دعا إليه قاسم أمين من أمور لا تثير حفيظة المحافظين ، مثل تعليم المرأة و الاهتمام بثقيفها ، لتتنفع بذلك في رعاية بيتها وأولادها ، بينما رفض السماح لها بأن تخوض سافرة معترك الحياة تزاحم الرجال وتفعل فعلهم ، متحررة من كل قيد ورقيب^(٢٦):

مَنْ لي بتربية النساء ؟ فإنها	في الشرق علة ذلك الإخفاقِ
الأم مدرسة إذا أعددتها	أعددت شعبا طيب الأعراقِ

الأم روضٌ إن تعهّده الحيّا بالرّي أورك أيمّا إسراقِ
أنا لا أقول دعوا النساء بسوافرا بين الرجال يجلن في الأسواقِ
يدرّجن حيث أردن لا من وازعٍ يحذرن رُقبتَهُ ولا من واقِ
يفعلن أفعال الرجال لوأهيا عن واجبات نواعس الأحداقِ

ولعل حافظ - وقد كان يلقي هذه القصيدة في حفل لصالح تعليم البنات - لعله خشى أن يفهم أنصار المرأة ، وبخاصة النساء ، أنه يرى ألا تبرح المرأة بيتها وأن تظل رهينة فيه ، بدعوى القيام على شئونه ، فوجدناه حريصا على أن يوضح مقصده :

كلاّ ، ولا أدعوكم أن تسرفوا في الحجب والتضييق والإرهاقِ
ليست نساؤكم حلّى وجواهرها خوف الضياع تُصان في الأحقاقِ
ليست نساؤكم أثاثا يُقتنى في الدور بين مخادع وطباقِ
فتوسطوا في الحاليتين وأنصفوا فالشر في التقييد والإطلاقِ

كان حافظ وشوقي أقل جرأة في مناصرة الدعوة من شعراء آخرين مثل (الرّصافي) و(الزهاوي) فقد ناصرا قاسم أمين بمواقف صريحة لا لبس فيها ، عرضتهما لانتقادات حادة ، وبخاصة (الزهاوي) الذي مضى في مناصرة هذه الدعوة شوطا بعيدا وصرّح بأراء جريئة .

وجد حافظ أن الطريق الآمنه لمناصرة المرأة في هذه القضية ، أن يدعو إلى تعليمها وأن يشيد بجهودها في مجالات خاصة من النشاط الاجتماعي هي : رعاية الأطفال وكفالة الأيتام ، والتمريض ، حتى أنها لتقدّم للرجل في هذه الميادين القدوة الصالحة والنموذج الأمثل . فضلا عن ذلك راح يصف تأثيرها القوي في نفس الرجل ، وما تمدّه به من طاقة روحية تدفعه إلى الأمام ، وتحسّن طباعه وأخلاقه . ولم يكن الشاعر مبالغا في وصف هذا التأثير حين قال^(٢٧) :

أي ذوات الرجال، عشتن للبرّ ودُمتنّ قدوة للرجالِ
لم يكونوا ليدرّكوا المجد لولا كُنّ أويسلّكوا سبيل المعالي

بسمة تجعل الجبان شجاعاً وتعيد البخيل أكرم نال
 ولم يكتف الشاعر بالحديث عن تفوق المرأة في ميدان الخدمة الاجتماعية وعن قوة
 تأثيرها في نفس الرجل ، فأخذ يصف شجاعته في الذود عن قضايا وطنها
 واستعدادها للتضحية في مواطن الفداء . ويسعفه الواقع المصري بالمثل الحي ، كما
 أسعفه التاريخ القديم من قبل بموقف نساء (قرطاجنة) ، فيصف كيف تصدّت (صفية
 زغلول) بحشد كبير من النساء لجنود الاحتلال ، فتحرّكت نخوة الرجال وتفجّر بركان
 الغضب يرمي الإنجليز بحممه حيث كانوا على أرض مصر^(٢٨):

صنعتن ما يُعي الرجال صنيعةً فزدتنّ في الخيرات والبركات
 وفي السنة السوداء كنتن قدوةً لنا حين سال الموت بالمهجات
 وقفتن في وجه الخميس مدججا وكنتن بالإيمان معتصمات
 وماهالكُنّ الرمح والسيف مُصلتا ولا المدفع الرشاش في الطرقات
 تعلّم منكن الرجال فأصبحوا على غمّرات الموت أهلّ ثبات
 (صفية) قادتكن للمجد والعلّا كما كان (سعد) قائد السّروات

ويؤكد حافظ في القصيدة نفسها صحة قولهم : ” وراء كل عظيم امرأة “ بما يصف
 من مؤازرة (صفية زغلول) زوجها في نضاله ، ووقوفها إلى جانبه تهوّن عليه كل
 صعب من أمر الجهاد :

عرفنا لها في مجد (سعد) نصيبها من الحزم والإقدام في الأزمات
 تهوّن للشيخ الجليل هجومه على الهول بالتشجيع والبسمات
 وتدفعه للموت والثغر باسم وفي صدرها نوّه من الزفرات

وكان الشاعر أراد أن يقول للذين يعارضون تحرير المرأة ، إن امرأة مثل السيدة
 (صفية) تملك من علوّ الهمة وقوة الإرادة ما لا يمتلكه كثير من الرجال ، لا ينبغي
 للرجل أن يحدّ من حرّيتها ونشاطها ، فيحرم المجتمع ثمرة جهودها وخدماتها .
 وحافظ إبراهيم الذي لم يصرح بتأييده دعوة قاسم أمين فيما ألقى على مسامع

الناس من شعر ، كان في (ليالي سطيح) أعلى صوتا في تأييد هذه الدعوة ، لكنه يسلك كعادته دروبا ملتوية كلما همّ برأي يعرضه للمتاعب . فنراه يُجري آراءه مرة على لسان (سطيح) ، ومرة على لسان (قاسم أمين) ، أما هو فمجرد ناقل لما يسمع من حديث الرجلين . يقول على لسان (سطيح) لقاسم أمين ، يعزيه على ما يلقي من عنت بسبب دعوته :

” صاحب مذهب جديد ورأي سديد . دعا القوم إلى رفع الحجاب ، وطالبهم بالبحث في الأسباب . فألقوا معه نقاب الحياء وتنقبوا من دونه بالبذاء . أي فلان إذا مضت على كتابك خمسون حجة وظهر لذي العينين إدلاؤك بالحجة ، تكفل مستقبل الزمان بإقامة الدليل والبرهان . ففعل الذي سخر لجماعة الرقيق والخصيان من أنقذهم من يد الذل والهوان ، يسخر لتلك السجينة الشرقية والأسيرة المصرية من يصدع قيد أسرها ويعمل على إصلاح أمرها . أوصى نبينا بالضعيفين : الرقيق والمرأة ، فخالفنا وصيته ولم نتبع سنته ... فقيض الله للأول من أعدائنا من دعا إلى عتقه ، ... وتالله ليأتين يوم تقوم فيه النساء الغريبات تطالب برفع الحجاب عن أخواتهن الشرقيات . وهناك يعرفون قدر كتابتك ، ويقدرّون مقدار خطتهم من مقدار صوابك . فانتظر وإن طال الأمر ، ولا تبجع نفسك أسفا على أثر القوم ، فإنهم أقل العالمين شكرانا وأكثر خلق الله كفرانا “ (٢٩)

واستمر حافظ ، يصف على لسان (سطيح) ، استهانة المصريين بقدر للمرأة وتحقيرهم شأنها مهما أتت من جلائل الأعمال ، ثم انتقل إلى (قاسم أمين) فتمثله أمامه يرد على خصومه الذين ادّعوا أن سفور المرأة سيؤدي إلى شيوع الفواحش ، ففند دعواهم ، وقدم الدليل على أن فجور المرأة محجبة أيسر عليها منه وهي حرة سافرة (٣٠).

وهكذا يتكشف لنا من نثر حافظ موقف محدد من الدعوة ، وإن احتاط وتخفى مرة خلف (سطيح) وأخرى خلف (قاسم أمين) ، تهربا من المواجهة الصريحة التي كان دائما يخشاها ويحسب حسابها في كل أمور حياته .

هوامش الفصل الثالث

- (١) ديوان حافظ إبراهيم ج ١ ص ٣١٠
- (٢) المرجع السابق ج ١ ص ٢٩٢
- (٣) المرجع نفسه ج ١ ص ٣١١
- (٤) المرجع نفسه ج ١ ص ٢٨٧
- (٥) المرجع نفسه ج ١ ص ٣٠٨
- (٦) المرجع نفسه ج ١ ص ٢٦٤
- (٧) المرجع نفسه ج ١ ص ٣٠٦
- (٨) المرجع نفسه ج ١ ص ٣٠١
- (٩) المرجع نفسه ج ١ ص ٢٥٠
- (١٠) المرجع نفسه ج ١ ص ٢١٧
- (١١) المرجع نفسه ج ١ ص ٣١٦
- (١٢) الشوقيات ج ١ ص ٦٧
- (١٣) المرجع السابق ج ٣ ص ١٢٥.
- (١٤) المرجع نفسه ج ١ ص ١٨٩
- (١٥) انظر: جمال الدين الرمادي، من أعلام الأدب المعاصر (القاهرة - دار الفكر العربي - بدون تاريخ) ص ٢١٨
- (١٦) ديوان حافظ إبراهيم ج ١ ص ٢٩١
- (١٧) المرجع السابق ج ١ ص ٧٣
- (١٨) المرجع نفسه ج ١ ص ١٨٢
- (١٩) المرجع نفسه ج ١ ص ١٣٩
- (٢٠) المرجع نفسه ج ١ ص ٢٦٥
- (٢١) المرجع نفسه ج ١ ص ٢٧٢. كان (كرومر) معتمدا بريطانيا في مصر زمن الاحتلال
- (٢٢) ليالي سطيح ص ١٩

-
- (٢٣) المرجع السابق ص ١٢٤
- (٢٤) المرجع نفسه ص ١١٦-١١٧
- (٢٥) ديوان حافظ إبراهيم ج ٢ ص ١٥٨
- (٢٦) المرجع السابق ج ١ ص ٢٨٢
- (٢٧) المرجع نفسه ج ١ ص ٣١٠
- (٢٨) المرجع نفسه ج ١ ص ١٣١
- (٢٩) ليالي سبطيح ص ١٠
- (٣٠) المرجع السابق ص ٨

الفصل الرابع
شعره الوطني والقومي

يقول حافظ: (١)

فعلّموا كلّ حي عند مولده عليك الله والأوطان دِينان
حتمّ قضاؤهما، حتمّ جزاؤهما فاربأ بنفسك أن تُمنّى بخُسران

لا تتجمع صفوف الشعب ويتلاحم أبناؤه، مثلما تتجمع في أوقات الشدة، ويتلاحمون في مواجهة النوازل التي تلم بهم، فإذا كل شخص يلوذ بالآخر ليقوى به فيقويه، وإذا الشعب الذي كان بالأمس متعدد الفئات موزّع الرغائب والاتجاهات، قد أصبح جبهة واحدة، متوافقة الشعور، تدرأ عن نفسها ما يتهدهدها من أخطار. وقد استخلص شوقي هذه الحقيقة الإنسانية والاجتماعية وأودعها قوله: (٢)

* إن المصائب يجمعن المصائبنا *

وفي تاريخ مصر الحديث وحدثت الحملة الفرنسية قوى الشعب المصري في ثورتين عظيمين، أدرك بعدهما الفرنسيون ألا بقاء لهم، ووحد الاحتلال الإنجليزي فئات المصريين ونفوسهم في إحساس واحد، وغاية واحدة، هما بغض المحتل الغاصب، والعمل على الخلاص منه.

وفي كل ما تتعرض له الأمم من محن وأزمات، تبرز من بين صفوفها سواعد ترفع راية النضال، وتمسك بدفة الأمور، فتصبح رموزا لهذه الأمم في كفاحها، تلتف حولها الأفئدة، وتتنظم خلفها الصفوف انتظامها في دور العبادة.

وفي نضال الشعب المصري من أجل التحرر، برز رجال حملوا من أعباء هذا النضال أثقلها، فاستحقوا حب الشعب وثناء التاريخ. وكان (مصطفى كامل) و(محمد فريد) ثم (سعد زغلول) أهم هؤلاء الرجال تأثيرا في هذا الطور من حياة الشعب المصري. وحول كل زعيم منهم تجمّع شعراء وخطباء، أحاطوا به إحاطة السوار بالمعصم، وراحوا يحشدون الجموع من خلفه ويمجدون نضاله، بأنقى العبارات وأقواها، وأيسرها سبيلا إلى نفوس الناس. فإذا خطر الأديب في هذا النضال، لا يقل في تقدير الناس ونظر المحتل عن خطر الزعيم، رمز الأمة، وحامل الراية. وكما لمعت

أسماء هؤلاء الزعماء، لمع نجم شوقي وحافظ من بين الشعراء الذين ساهموا في دفع تيار الحركة الوطنية. كان الناس يترقبون شعرهما فيما يطرأ من الأحداث، وفيما يحل موعده من المناسبات الهامة في تاريخ مصر، وكأنهم على موعد مع هذين الرجلين، ينبغي عليهما ألا يُخطئاه أو يتأخرا عنه. والشاعر متى دخل دائرة الشهرة، لم تعد كلمته ومواقفه ملكا خالصا له يتصرف فيه كيفما شاء، فكل شئ يصدر عنه يُحسب له أو عليه. كان الشاعران يدركان دقة وضعهما من نفوس الناس، ويعلمان أن الشعب ينتظر منهما كثيرا من المشاركة، وسرعة في الاستجابة لكل نبأ ترون في سماء مصر، بل الوطن العربي والأمة الإسلامية الواسعة. وملكة الشعر ليست مطواعة في كل وقت، ولا تستجيب لكل حادث وطارئ، فتارة يسمح أبيضها ويلين عصيها، وتارة تحرن وتشمس. والشعوب لا تدرك هذا الجانب الخفي من حياة أهل الفن، وإن علمه بعض الناس يتجاهلونه وقت الأزمات، ولا يرضونه علة تمنع الشعراء من النزول على رغبات الأمة. إذن على الشاعر أن يروض ملكته في كل الأوقات، وأن يستنطق لهاته بما يريد شعبه، وإلا أتهم في وطنيته وصدق ولائه لأمته، وشُرعت في وجهه أقلام غير منصفة تنهيه وتجاهل ما سلف من جهاده وحسن بلائه.

لم يكن باستطاعة شوقي وحافظ أهم شاعرين في تاريخ النضال المصري الحديث، أن يحصنا نفسيهما ضد كثير من النقد الظالم، الذي يتجاهل أن الشاعر كسائر الأناسي، له حاجاته الشخصية والنفسية التي تؤثر في مسلكه، كما تؤثر في الآخرين حاجاتهم ومنازعتهم. هذا النقد المتعسف الذي أراد لهما أن يرتفعا على غرائز الإنسان أو يتنكرا لها، فيقتحما ما كان يحدق بهما أحيانا من أخطار تهددهما في النفس والأهل. ومن يحقق في الاتهامات التي وُجّهت إلى الشاعرين، وراحت تنتقص من وطنيتهما، يجد وراءها هذه النظرة الجائرة التي لا تقدر الجانب النفسي للشاعر ولا تدخل في حسابها ضعفه البشري، وأصحابها يعلمون أن الشعراء لا يمتلكون كما يمتلك الأنبياء والرسل، قوة علوية تقوي من يقينهم، وتثبت أمام الهول والشدة نفوسهم.

سكت الشاعران أحيانا، ونطقا كثيرا. واستنكر الناس سكوتهما، كما عابوا

عليهما بعض ما نطقا به، لأنه جاء ضعيفا خافت النبرة، لا يكافئ شعور الأمة. ولعل ندم الشاعرين على النطق في هذه الحال، كان أضعاف إحساسهما بالألم حينما يضطران إلى الصمت.

وفيما جادت به قريحة شاعر النيل وأتاحت له ظروفه، نجد ألوانا مختلفة من شعره الوطني، تكشف عن مساهمة قوية في خدمة الأمة والأخذ بنصيب في نضالها. وفيما عرضناه من شعره الاجتماعي بعض هذه المشاركة الوطنية الجادة، كتصديده للفتنة الطائفية وسعيه إلى إنشاء الجامعة الأهلية. غير أن هناك ألوانا أخرى من شعره الوطني كان لزاما علينا أن نبيّنها في الصفحات التالية، ليتضح الحجم الحقيقي لمشاركته في نضال أمته. وقد عدلتُ عن مصطلح "الشعر السياسي"، الذي راق بعض الباحثين، لأن شعر حافظ الذي تناول به بعض القضايا السياسية، يدخل في إطار الوطنية من باب واسع. كما أن ما يُبديه في هذه القضايا من آراء، مطبوع بخيال الشاعر، ومعبّر عن حماس المواطن الحر وغيرته ويخلو من فكر سياسي ومنطقه في نظر الأمور وحنكته. وتجزئة شعره إلى (وطني) و(سياسي)، تجزئة غير صحيحة تؤدي إلى تمزيق القصيدة الواحدة أحيانا إلى أشلاء هزيلة، إذ يتداخل الجانبان كثيرا في القصيدة الواحدة تداخل السدى واللحمة. لهذا رحت أعالج الجانبين معا في عرض واحد، محافظة على قيمة هذا الشعر والروح التي تسوده.

ويمكننا استكمال باقي مظاهر وطنية الشاعر، بمحدثنا عن الجانبين التاليين في شعره:

أولا: مواقفه مع زعماء الأمة.

ثانيا: مواقفه من الإنجليز.

وبعد هذا كله يكون بمقدورنا الإجابة عن السؤال التالي:

أكان حافظ - كما ذهب بعض الدارسين - داعية يأس وإحباط، يفتّ في عضد الأمة؟! .

ثم نختتم بالحديث عن شعوره القومي هذا الفصل ونكمل هذه الدائرة الهامة من حياته التي شغلت حيزًا كبيرا من نفسه ومساحة واسعة من إبداعه.

أولا: مواقفه مع زعماء الأمة

مصطفى كامل

في سنة ١٩٠٠م نزل حافظ إبراهيم القاهرة واتخذها دارا. وفي السنة نفسها أصدر الزعيم (مصطفى كامل) جريدة (اللواء) فصارت مجالا فسيحا لأقلام الوطنيين، ومنبرا ارتفعت فوقه أصوات مفكرين وأدباء، يحتفظ تاريخ مصر الوطني بأسماء كثير منهم. ويُذكر أن علاقة حافظ إبراهيم بالزعيم لم تنشأ إلا في حادث دنشواي الذي وقع يوم الأربعاء ١٣ يونية سنة ١٩٠٦م، إذ أرسل الشاعر إلى (اللواء) قصيدته التي يقول في مستهلها للإنجليز: (٣)

أيها القائمون بالأمر فينا هل نسيتم ولاءنا والودادا
فرحبت (اللواء) بها، ونشرتها، وكان هذا بداية جهاده الوطني الحق على صفحات
الجرائد وفي المحافل. (٤)

ولم يتخل الشاعر منذ ذلك الحين عن متابعة الزعيم وتأيبده. فإذا وقف (مصطفى
كامل) يلقي خطابا في ناشئة مصر، نهض حافظ يعقب عليه ويقول له: (٥)

سمعتُ حديثا كقطر الندى فجدد في النفس ما جددا
وأضحى لآمالنا.. منعشا وأمسى لآلامنا مُرَقدا

واستمر حافظ ينشر شعره على صفحة (اللواء)، مصرّحا بعدائه للإنجليز مرّة ومعرّضا لهم به مرّة أخرى. وتقدر (اللواء) للشاعر مواقفه، فتلقبه بـ(شاعر الوطنية الأول)، ثم تقربته منها أكثر فتلقبه بـ(شاعر الحزب الوطني)، وهو الحزب الذي تولى من خلاله مصطفى كامل قيادة الحركة الوطنية. ولا بد أن حافظا اغتبط باللقيين، فراح يرفع صوته على منابر الحزب أكثر من ذي قبل؛ فعرفه الناس وأحبوه. وما كان له أن يحظى بشعبيته الواسعة لو لم يتصل بزعيم الأمة وصوتها. وفي الحقيقة ساهم كلّ منهما في مجد الآخر، الشاعر بتسجيله مآثر الزعيم والتغني بها، والزعيم بتقديمه حافظا إلى الجماهير على أنه شاعر الحزب الوطني بل شاعر الوطنية الأول. فمكّن له ذلك في نفوس الناس وأعلى قدره. يقول أحد أصدقاء الشاعر: "إن عهد مصطفى كامل وأيام اللواء كان

وبساما علق على صدر حافظ، وشرّفه وقدمه، وما زال يعثه حيا كلما هبت رياح
الوطنية في الأطوار المختلفة من تاريخ كفاح شعب مصر^(٦).

كان طبيعيا أن تتعلق نفس الشاعر بالزعيم، فهو أمل أمته وسبب شهرته، وأن
يثني عليه بمثل قوله:^(٧)

لك الله يا مصطفى من فتى كثير الأيادي، كثير العدا
إذا ما حمدتك بين الرجال فأنت الخليق بأن تحمدا
سيحصي عليك سجل الزمان ثناءً يُخلد ما خلدا
ويهتف باسمك أبناؤنا إذا آن للزرع أن يُحصدا

وهذا القول من قصيدة ألقيت في ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٠٦م، بعد خمسة أشهر ونصف
الشهر من وقوع حادث دنشواي. وقد خلت هذه القصيدة تماما من أي إشارة إلى
موقف الزعيم من هذا الحادث، أو إلى معاناة الشعب من سوء سياسة الإنجليز.

ويفتش الباحث في شعر حافظ، فيجد أن ما يزيد عن عام في علاقته بالزعيم قد
اختفت أخباره، وأن أول شعر له فيه بعد قصيدته السابقة، هو قصيدته التي رثاه بها
عقب وفاته ونشرت في ١٢ فبراير سنة ١٩٠٨م، وإن كان حديث الشاعر عن آلام
شعبه وآماله لم ينقطع طوال تلك الفترة، التي تكالبت فيها العلل على صدر الزعيم
وأقعدته عن الكفاح.

في هذه المرثية وقف حافظ على قبر الزعيم يسفح دموع مصر، ويصف فداحة
الخطب، ويُعلم القبر الذي لا يعرف أقدار ساكنيه، قدر ضيفه الذي حل به:^(٨)

أيا قبر، هذا الضيف آمال أمة فكبر وهلل والى ضيفك جاثيا
عزيز علينا، أن نرى فيك مصطفى شهيد العلا، في زهرة العمر ذاويا

كانت مصيبة مصر في زعيمها شديدة، فهو الذي أحيا الشعور الوطني ودفع بتيار الحركة
الوطنية في فترة حالكة السواد من تاريخ مصر، وقد بسط الإنجليز أياديهم على كل شيء
فيها، وأياسوا الناس من أي فرج. وفي القصيدة يعرض الشاعر بالإنجليز الذين ارتاحت
نفوسهم لسكوت الصوت الذي كان يقلقهم ويقض مضاجعهم:

هنيئاً لهم فليأمنوا كلّ صائحٍ فقد أسكت الصوت الذي كان عالياً
كما نسمعه يجدد العهد للزعيم على استمرار يقظة الأمة وتآلف صفوفها في مواجهة
المحتل. فشخصه مازال ماثلاً لعيون المصريين، وصوته مازال يدوي في مسامعهم،
يلهمهم ويستحثهم:

أجل أيها الداعي إلى الخير إننا على العهد مادنا فتم أنت هانيا
بناؤك محفوظٌ وطيفك مائلٌ وصوتك مسموعٌ وإن كان نائياً

وفي حفل (الأربعين)، ألقى الشاعر قصيدة طويلة، كرر فيها الحديث عن عظيم الرزء
ووصف فيها حرج الظروف التي تمر بها الأمة وشدة حاجتها إلى زعيمها الراحل، كما
وقف يهيب به أن ينهض لمواجهة غطرسة المحتل وتعدّيه على حرمة الدين والوطن، ثم
يعبر عن حسرته لأنّ ذهب نداؤه أدراج الرياح: (٩)

بالله مالك لا تجيب مناديا ماذا أصابك يا (أبا المغوار) ١؟
قمّ وامح ماخطت يمين كرومرٍ جهلاً بدين الواحد القهارِ
قد كنت تغضب للكنانة كلما همت وهم رجاؤها بعثارِ

فيعيد حافظ بهذا القول أمام أعيننا، شخص محمد بن كعب الغنوي، وقد جثا عند قبر
أخيه يعدد مآثره ويتحسّر على غيابه، ويستنهضه لقضاء حاجات الناس كسالف
عهده، فلا يسمع سوى رجوع أئنه وشكايته: (١٠)

وداعٍ دعا : يا مَنْ يجيب إلى الندى فلم يستجب عند النداء مجيبُ
فقلتُ ادع أخرى وارفع الصوت عالياً لعل (أبا المغوار) منك قريبُ
يُجيبك، كما قد كان يفعل، أنه بأمثالها رحبُ الذراع أريبُ

ولا يفوت الشاعر أن يذكر الشعب بكفاح الزعيم ونضاله، كيف أنه سعى إلى البرلمان
الإنجليزي واستطاع أن يكشف أمامه عن سوء سياسة (كرومر)، وأن يفضح أكاذيبه
 ويفندها، فكان ذلك سبباً في عزل ذلك الطاغية عن منصبه في مصر. يقول للزعيم الراحل:

مازلت تختار المواقف وعرةً حتى وقفتَ لذلك الجبارِ
وهدمت سورا قد أجاد بناءه فرعون ذو الأوتادِ والأنهارِ

ووصلت بين شكاتنا ومشايخ
كشفوا الغطاء عن العيون وأبصروا
في (البرلمان) أعزّة أختيار
ما في الكنانة من أذى وضرار
نبذوا كلام (اللرد) حين تبيّنوا
حنق المغيظ ولهجة الثرثار

والقصيدة تعد عرضا موجزا لمواقف الزعيم وأثره في الحركة الوطنية. ثم يقف الشاعر
بعد مرور عام على قبر الزعيم، يصف له حال مصر طوال هذا العام، ويقدم إليه
(كشف حساب) عن نضال الشعب بعد رحيله، مجددا له العهد على مداومة الجهاد:
(١١)

ليبك نحن الألى حرّكت أنفسهم
جئنا نؤدي حسابا عن مواقفنا
لما سكنت ولما غالك العدم
ونستمد، ونستعدي ونحتكم

ويستغل حافظ المناسبة في فضح سياسة الإنجليز، دهائم ومخادعتهم، ويعلن في نبرة
قوية عن استنكاره، وعن فشل كل ما يجربّه المحتل، من ألوان الحيل والبطش، فإن ذلك
لن يفت في عضد الأمة ولن ينال من إياها. فكم محنة تعرضت لها مصر، فاجتازتها
وهي أصلب عودا وأقوى عزيمة:

ماذا يريدون؟ لا قرّت عيونهم
كم أمة رغبت فيها فما رسخت
إن الكنانة لا يطوى لها علم
لها-على حولها- في أرضها قدم
ما كان ربك، رب البيت تاركها
وهي التي بجبال منه تعصم

والملاحظ أن حافظا في هذه القصيدة، أعلى صوتا في حملته على الإنجليز من قصائده
السابقة، ومن قصيدته التي بكى فيها أهل (دنشواي)، كما أنه لا يكاد يخفي من
شعوره شيئا، ولئن كان يكثر في شعره من ذم تواكل المصريين رغبة منه في دفعهم إلى
حياة أفضل، فإنه في هذه القصيدة يمتدح للزعيم الراحل همة الشعب وكفاحه، ويثني
على الغراس الطيب الذي بثه الزعيم في أرجاء مصر، فقد ضرب بجذوره في تربة
الوطنية، وقامت سوقه في صلابة تواجه عواصف القهر:

ليبك إنا على ما كنت تعهده
حتى نسودّ وحتى تشهد الأمم

فيعلم النيلُ أنا خير من وردوا ويستطيل اختيالاً ذلك الهرمُ
هذا الغراس الذي واليت منبتهُ بخير ما واليت الأضواء والنَّسمُ
أمسى وأضحى وعين الله تحرسهُ حتى نما وحُلاه المجد والشممُ
فانظر إليه وقد طالت بواسقهُ تهنأ به، ولأنف الحاسد الرغَمُ

ويلتفت الشاعر إلى الشباب، يطلب منهم أن يعوا جيداً دروس الوطنية التي لقنهم زعيمهم، وأن يستلهموا نضاله وصبره على الشدائد:

يأيها النشء سيروا في طريقته وثابروا، رَضِي الأعداء أو نقموا
فكلكم (مصطفى) لو سار سيرتهُ وكلكم (كامل) لو جازه السأمُ

ولا يكتفي حافظ بهذه القصائد الثلاث التي صاغها في رثاء مصطفى كامل، أو بالأحرى، في تمجيد كفاح الشعب المصري. لم يكتف بذلك، فنجده يرسل إليه رسالة في عالمه الآخر بعد انقضاء إحدى عشرة سنة على وفاته، يحملها إليه رفيق كفاحه (محمد فريد) الذي توفي في أواخر سنة ١٩١٩م. يطمئنه الشاعر فيها على سلامة المسيرة التي بدأها، وعلى مُضي الشعب في كفاحه حتى ينال حرته: (١٢)

يا غريب الدار والقبر ويا سلوة (النيل) إذا ما الخطبُ جدُّ
قل لصبّ النيل إن لاقيتهُ في جوار الدائم الفرد الصمِّدُ
إن (مصر) لا تني عن قصدها رغم ما تلقى وإن طال الأمدُ

كان حافظ يعلم أنه يلهب جذوة الوطنية بإحيائه ذكرى هؤلاء الزعماء والإشادة بمواقفهم. لكنّ الزعيم (محمد فريد) الذي رافق مصطفى كامل في رحلة نضاله ثم تلقف منه الراية بعد وفاته، لانعثر على شيء من أخبار كفاحه بديوان حافظ غير القصيدة سالفة الذكر، التي رثاه بها حين مات غريباً بـ(برلين). أي أن إحدى عشرة سنة من تاريخ الحركة الوطنية، منذ وفاة مصطفى كامل حتى وفاة محمد فريد، تختفي من ديوان الشاعر. وفضلاً عن ذلك نسمع حديثه عن محمد فريد، فنجده خافت النبرة، لا يكاد يحرك شعوراً، أو يستحث في الصدور عزمًا مثلما يفعل حديثه عن مصطفى

كامل. ولعل في الإشارة إلى ظروف الشاعر آنذاك ما يعلل هذه الظاهرة. فقد عُين حافظ بدار الكتب سنة ١٩١١م، بعد أن طال بحثه عن وظيفة، وبعد أن كاد (يتعل الدِّما) على حد تعبيره. فرمما كان حرصه على هذه الوظيفة- كما يذكر الدكتور طه حسين- عائقا عن الجهر بمواقفه وإعلاء صوته كما كان يفعل من قبل، فضلا عن اشتعال نيران الحرب العالمية الأولى ولجوء الإنجليز في أثنائها إلى أقصى درجات الشدة في مقاومة أي نزعة تحريرية. (١٣)

سعد زغلول

حظي سعد زغلول بنصيب وافر من اهتمام حافظ وشعره. ولعل الرجلين قد تعارفا في حلقات العلم التي كان الأستاذ الإمام محمد عبده يعقدها في الأزهر وفي بيته، ويؤمها كثير من الأدباء والسناسة وطلاب العلم. بدأ الشاعر يختلف إليها في مستهل حياته العسكرية، ولم يكن لسعد زغلول آنذاك، ما بلغه بعدُ من مكانة هامة في نفوس الناس وإدارة شؤون البلاد. (١٤)

ولعل أول شعر قاله حافظ لسعد زغلول، تلك الأبيات التي وجهها إليه وهو ناظر لوزارة المعارف يرجو فيها صلاح التعليم على يديه، ويطلب منه التصدي لسياسة (دانلوب) المستشار الإنجليزي لهذه الوزارة، الذي يعمد إلى عدم الارتقاء بمستوى التعليم في مصر: (١٥)

أنا لألوم المستششا ز إذا تعلل أو تصدئ
فسبيلة أن يستبد وشأننا أن نستعدا
هي سنة المحتسل في كل العصور وما تعدئ

بعد موت محمد فريد التفت الأفتدة حول سعد زغلول، فأصبح ضمير شعبه في مواجهة المحتل الغاصب. وما كان سعد يقف على منبريهتف من فوقه باسم مصر، إلا وقد تحلّق حوله أدباء مصر، يشدّون على يديه، ثم يُطَيِّرون كلماته وأحبار نضاله على صفحات الجرائد إلى كل أنحاء البلاد، دانيها وقاصيها. ولا بد أن يكون حافظ في

طليعة هؤلاء الأدباء، فعلاقته بالزعيم قديمة، ترجع إلى مجالس الإمام وغيرها من أندية أهل الفكر، وهي قبل أن تكون علاقة مواطن مصري بزعيمه وقائده، كانت علاقة صديق بصديقه. ولنسمع حافظا في قصيدته التي ألقاها في حفل تأبين الزعيم، يذكره بتلك المجالس العامرة التي جمعتهما أيام الشباب، لنعلم ما كانت عليه علاقتهما من قوة: (١٦)

كم وردنا موارد الأنس فيها ورشفنا سلافها والرُّضابا
ومرحنا في ساحها ونسينا الـ أهل والأصدقاء والأحبابا
كم شكوتَ السهاد لي يوم كنا (بالبساتين) نستعيد الشبابا
نهب اللهر غافلين وكنا نحسب الدهر قد أناب وتابا

و(البساتين) موضع بمحافظة (الشرقية) كان الزعيم يؤمه مع أصفياه طلبا للراحة وكان حافظ لا يتخلف عن مرافقته أنى ذهب، ويعلم أن الزعيم يؤثره ويستعذب حديثه، وسعد نفسه يعلن ذلك ويؤكدده. يُروى أن حافظا ذهب ليسلم عليه بعد عودته من سفر، ووقف ينشده: (١٧)

إني أرى نورا يفيض وطلعةً قد زانها وضُحُ الجبين المشرقِ
هذا زعيم النيل حلَّ عرينه بعد الغياب، فيا وفود تدفّقي
وتسيمي بقدمه وترفّقي عند الزحام فسلمي وترفّقي

فلما انتهى الشاعر من إنشاد البيت الثالث، بادره سعد مبتسما يقول له: "إلا أنت يا حافظ".

لهذا، لم يكن غريبا أن يتعلق الشاعر بالزعيم، يثني على جهوده، ويبشر الناس بحسن الطالع على يديه، ويدراً عنه بقلبه ولسانه كل عادية تتهدده. فإذا تعرّض لمحاولة اغتيال، وجدنا حافظا يُهرع إليه، يهتئ بنجاته، ويهتف له من أعماقه: (١٨)

أحمدُ الله إذ سلمتَ لمصرٍ قد رماها في قلبها من رماكا
أحمدُ الله إذ سلمتَ لمصرٍ ليس فيها ليومٍ جدٍ سواكا

أحمدُ الله إذ سلمتَ لمصرٍ ووقاها بلطفه من وقاكا

إلخ...

وعجيباً أن يتناول النقاد هذه الأبيات العفوية (فنياً) ولا يابهون لظروف ولادتها وما تكنه من انفعال تلقائي صادق. يتحدث حسن كامل الصيرفي عن حافظ، ثم يصف هذه الأبيات فيقول:

” كانت كهبة النائم إثر سهرٍ مضنٍ، فهو يفتح عينيه في تشاقل وتراخ، ويتحدث في تشاؤب وتكاسل. وكذلك كانت أبياته عليها من أثر الجهد والإعياء ما عليها، فهي هزيلة شاحبة متهالكة، ظل يردد فيها الشطر الأول من البيت ثلاث مرات “ (١١)

وهذا الكلام مثال جيد لسطحية النقد وتهويمه. والأثر الموضوعي الوحيد فيه هو إشارته إلى التكرار في الأبيات، وإن كان حديثه عنه مستغرباً منه، لأنه لا يجهد بلاغة التكرار ودواعيه النفسية وغير النفسية عند المبدع. كما أنه يعلم أن حافظاً لم يجلس لهذه الأبيات القلائل التي لا تزيد عن سبعة، شاعراً، يُجبل معانيها في خاطره، ويقلب عباراتها ليختار منها ما يروق له. وحافظ في هذا صنّاع لا يشق له غبار. وإنما هتف حافظ بها صيحة فرح كأبي مواطن مصري يشمله مثل هذا الموقف ويغلبه على أمره، ويستنتقه بما لا ينطق في ظروفه العادية. وإن عفوية هذه الأبيات، المتمثلة في بساطة عباراتها ومعانيها وقلة عددها، للدليل على صدق صاحبها، وأنموذج طيب لمن أراد أن يتمثل للقاعدة النقدية القائلة، بأن لكل مقام مقالاً. فلما هدأت نفس الشاعر ونفوس الناس، شفع هذه الأبيات العفوية القليلة، بقصيدة طويلة ألقاها في الحقل الذي أقيم بالإسكندرية بعد وقوع الحادث بأحد عشر يوماً، تكريماً للزعيم وإتهاجاً بنجاته. وفيها يمسك الشاعر بأدوات فنه، ويقلب الحديث كما شاء في كل ما يتعلق بالموقف والقضية الوطنية، ولا يترك قولاً حسناً ومناسباً إلا قاله. ويطول عرضنا إذا اقتطفنا من كل حديث كلمة، لهذا نكتفي بشئ يسير مما تناوله حافظ في هذه القصيدة الطويلة.

ولعل أول ما نقتطفه، تلك الأبيات التي راح يسري بها عن نفس الزعيم، ويزيل ما قد

يكون قد علق بها من آثار الحادث: (٢٠)

في كل عصر للجناة جريرةٌ ليست على مرّ الزمانِ تزولُ
جاروا على (الفاروق) أعدلٍ من قضى

فينا وزكّى رأيه التنزيلُ

وعلى (عليّ) وهو أظهرنا فماً ويَدًا وسيفُ نبينا المسلولُ

وتاريخ سعد حافل بمقارعة الإنجليز، فهو لم يهدأ منذ أن حمل أمانة الكفاح الوطني، ولاقى بسبب مواقفه عننا كثيرا، فنفي إلى جزيرة (سيشل)، ثم منها إلى (جبل طارق). ومما يُذكر له، أنه الزعيم المصري الذي وحد طائفتي الأمة في صف متماسك لمواجهة المحتل سنة ١٩١٩م. كان سعد يوم وقوع الحادث له متوجها إلى الإسكندرية، ليغادرها مع وفد مصري إلى إنجلترا من أجل التفاوض حول استقلال مصر. وكان ذا حنكة سياسية، وكانت درايته بطبيعة المفاوضات الإنجليزي عميقة. لكن الشاعر الصديق الذي خبر الإنجليز عن قرب، لا يرى حرجا في أن يقول لسعد ناصحا ومحدّرا:

فاحذر سياستهم وكن في يقظة (سعدية)، إن السياسة غولُ
إن مثلوا فدع الخيال فإنما عند الحقيقة يسقط التمثيلُ
الشبر في عُرف السياسة فرسخٌ واليوم في فلّك السياسة جيلُ
ولكل لفظ في المعاجم عندهم معنى، يقال بأنه معقولُ
ولهم أحابيل إذا ألقوا بها قنصوا النهى، فأسيرهم مخبولُ
جمعوا عقاقير الدهاء وركبوا ما ركبوه، وعندك التحليلُ

ظل الشاعر في قصيدته يث الزعيم حكمته وخبرته، وهو موقن أن من يوصيه حذر حريص. وحديثه إليه حديث من يرجي الخير لأمته، ويشفق عليها أن تنهض من عشرة لُتمنى بعشرة أخرى. وحديثه أيضا حديث الوطني الغيور، صاحب الأرض والحق، الذي لا يقبل لزعيمه، رمز نضاله، أن يرضى بالدنية في مطالبته بحقوق شعبه وحرية أمته. فصاحب الحق مرفوع الهامة، وهو- وإن طال الأمد- منصور يُجند الله وتأييده.

بكل هذه المعاني التي تتقلب بين الإباء والإشفاق والتأمل، راح حافظ يستكمل حديثه إلى زعيم الأمة:

فاوض ولا تخفض جناحك ذلّةً إن العدو سلاحه مفلولُ
فاوض وأنت على الحجر جالسُ لمقامك الإعظامُ والتبجيلُ
فاوض فإن أوجست شرا فاعتزم واقطع فحبلك بالهدى موصلُ
وارجع إلينا بالكرامة ، كاسيا وعليك من زهراتها إكليلُ

وكرامة النفس التي يحرص عليها الشاعر ويستبقيها، هي كرامة الزعيم وكرامة المصريين عامة، وهي ليست أقل قيمة من الحرية المغتصبة التي سافر سعد ورفاقه لاستردادها. وهكذا يتفرّع حديث الوطنية على لسان حافظ، ليرسم ملامح المصري الصبور، الغيور على الأرض والنفس، المعتد بحقه وبنصرة الله له ولو طال الأمد. وهي ثوابت نفسية مازالت تضرب في أعماق الشخصية المصرية الأصيلة.

ولم تكن أحداث ثورة ١٩١٩م لتقع دون أن تهتز لها نفس حافظ، فراه يشارك بكلمات قوية يحیی فيها مظاهرة النساء الشهيرة، التي اندفعت إلى بيت الزعيم، هاتفة بحياته وباستقلال الوطن، لاتبالي النساء فيها ما ينتظرهن من خطر على أيدي الإنجليز، الذين اعترضوا بالسلاح سبيلهن، وشهروه في وجوههن. ويجيد الشاعر وصف هذه المواجهة في لقطات سريعة متلاحقة استوفت كافة ملامح ذلك الموقف الحرج. يقول:

(٢١)

خرج الغواني يحتججُ نَ ورحتُ أرقبُ جمعته
وأخذن يجتزن الطربِ ق ودار (سعد) قصدهته
يمشين في كنف الوقا ر وقد أبنّ .. شعورهنه
وإذا بجيشٍ مقبلٍ والخيلُ مطلقه الأعتة
وإذا الجنودُ سيوفُها قد صوّبت لنحورهنه
وإذا المدافع والبنّا دقُ والصّوارمُ والأسنة

والخيل والفرسانُ قد ضربت نطاقا حولهنَّه
والسوردُ والريحانُ في ذاك النهارِ سلاحهنَّه
فتطاحن الجيشانِ سا عاتٍ تشيب لها الأجنَّه
فتضعع النسوان ، والنسوان ليس لهنَّ منَّه
ثم انهزم من مشنتا تِ الشمل نحو قصورهنَّه
ثم يتهكم على الإنجليز الذين عَدَّوا تغلبهم على أولئك النسوة انتصارا، وكأنهم
انتصروا على (الألمان) في إحدى ساحات الحرب العظمى :

فليهنأ الجيش الفخو رُ بنصره وبكسرهنَّه
فكأنما الألمان قد لبسوا البراقع بينهنَّه
وأَتَوْا (بهندنبرج) مخ تنفيا بمصرَ يقودهنَّه^(٢٢)
فلذاك خافوا بأسهنَّ وأشفقوا من كيدهنَّه

لم تكن ثورة ١٩١٩م مجرد مظاهرات وطنية اعتاد الإنجليز عليها، وإنما كانت فورة
بركان ازدحم بالحمم باطنه، وبات يتحين الفرصة ليعلن غضبته. لهذا عمَّت الثورة
أرجاء مصر، ووقعت مصادمات دامية بين الطرفين، ولجأ الإنجليز إلى استخدام أقسى
ما عندهم من وسائل القمع لإخماد الثورة أو الحد منها. فلا عجب من أن تُطبع هذه
القصيدة على هيئة منشورات وتُوزع سرا في أنحاء البلاد، ولم تنشر باسم صاحبها في
الصحف إلا بعد ذلك بعشر سنوات.^(٢٣)

والبناء الموسيقي للقصيدة يساعد على نقل واقع الحدث وما يمور به من حركة
واضطراب، كما ينقل انفعال الشاعر بهذا الحدث كما جاش بصدره، وذلك لوقوع
حافظ على شكل موسيقى قصير الزمن سريع النبض، ثم لانتهاه هذا الشكل الموسيقي
بقرارات صلبة تزيد إيقاعه قوة وشدَّة.

وكانت خسارة حافظ لموت سعد زغلول مضاعفة، فقد فقد الصديق الذي
يفسح له صدره ومجلسه، وفقد الزعيم الذي كان يجي في نفسه ونفوس مواطنيه الأمل،

ويشعل في صدورهم جذوة الجهاد. فلا غرابة في أن نرى حافظا الذي أوتي قدرة فنية كبيرة على تضخيم الأحداث، والمبالغة في تصوير وقعها- لا غرابة في أن نراه يستهل تأبينه الفقيد، بإقامة مناخة في السماء تماثل مناخة أهل الأرض أو تزيد، تشاطر فيها الكواكب السيّارة أهل الأرض مصابهم وتحزن مثل حزنهم: (٢٤)

إيه يا ليل! هل شهدت المصابا كيف ينصبّ في النفوس انصابا؟
بَلِّغِ المشرقين قبل انبلاج الصّ سبح أن الرئيس ولّى وغابا
وانعّ للنّيرات (سعدا)، ف(سعدت)

كان أمضى في الأرض منها شهابا
قدّ ياليل من سوادك ثوبًا للدراري وللضحى جلابا
وانسجِ الحالكاتِ منك نقابًا واحبّ شمس النهار ذاك النقابا
قل لها : غاب كوكب الأرض في الأر

ض فغبي عن السماء احتجابا

والبسيني عليه ثوبَ حدادٍ واجلسي للعزاء ، فالحزن طابا

يمثل هذا التفجع من المصاب يستهل حافظ قصيدته ويكسو النجوم والكواكب أردية سوداء من حُلُكة الليل. ويمثل هذا التفجع أيضا، نراه في الأبيات التالية يهيج نفوس الحاضرين ويستدر شؤونهم. ولتتمثله واقفا في المحفل يُجِيل طرفه في وجوه الحاضرين ويسألهم سؤال الثاقل الداهل:

أين (سعدت) ، فذاك أول حفلٍ غاب عن صدره وعاف الخطابا
لم يعودَ جنوده يوم خطبٍ أن يُنادَى ، فلا يردّ الجوابا
علّ أمرا قد عاقه ، علّ سُقما قد عراه ، لقد أطلال الغيابا

وهذا القول اعتدنا سماع مثله ممن أوجعتهم مصيبة الموت ومست عقولهم بأذى.

ولا يكتفي الشاعر بحديثه السابق الذي تجيش لسماعه النفوس. فنسمعه يواصل

حديث المرتاب الذي يشق على نفسه تصديق ما وقع والتسليم به، داعيا الناس إلى

التثبت من صحة ذلك الخطب الفاجع:

أي جنودَ الرئيس، نادوا جهارا فإذا لم يُجب فشقوا الثيابا

وهو هنا يذكرنا بما كان من أمر (عمر بن الخطاب) رضي الله تعالى عنه حين سمع بوفاة النبي ﷺ. يُروى أن هزة نفسية أصابته، جعلته لا يصدق ما سمعت أذناه، ويتوعد من يقول به. وهذه القصيدة الطويلة التي بلغت تسعين بيتا، جمعت كل ما ينبغي قوله في هذا المقام، وصف فيها حافظ آلامه الذاتية لفراق الصديق، كما وصف آلام الشعب لغياب قائده الذي كان ينتظر على يديه انفراج كربته. وفيها أيضا ثناء طيب على مناقب الزعيم وعلى جهوده في لمّ أشتات الأمة ومواجهة المحتل، كما نرى الشاعر حريصا على أن يطمئن سَعْدًا في مثواه على استمرار مسيرة الجهاد، مثلما طمأن مصطفى كامل من قبل. فأبناء مصر الذين تركهم وراءه من شيوخ وشباب:

قد مشى جمعهم إلى المقصد الأسـمى، يغذّون للوصول الرّكابا

يبتنون العُلا، يشيدون مجدا يُسعدون البنين والأعقابا

وحافظ يعلم أنه يقصد بهذا القول الشعب لا الزعيم، يحتمس به المصريين لئلا تحبو شعلة الوطنية أو تهين عزائمهم لرحيل فرد، وإن كان زعيمهم وقائد نضالهم. ولم تكن هذه القصيدة تحسّرا وبكاء فحسب، وإنما حولها الشاعر إلى خطبة وطنية شديدة النبرة، وتحدى فيها الإنجليز الذين استراحوا لأن خلى سَعْدَ مكانه، وحسبوا ألا تقوم للمصريين قائمة بعده. يقول مستخفا بجبروتهم وبأوهام نفوسهم:

قد ملكتم فم السبيل علينا وفتحتم لكل شعواء بابا

وأتيتم بالحائِماتِ تَرامى تحمل الموتَ جاثما والخرابا

وملأتم جوانبَ النيلِ وعُدا ووعيدا ورحمةً وعذابا

هل ظفرتم مِنّا بقلبِ أبيّ؟ أورأيتم مِنّا إليكم مَثابا؟!

لا تقولوا خلا العرينِ ففيهِ ألف ليثٍ، إذا العرينُ أهابا

فاجمعوا كيدكم وروعوا حماها إن عند العرينِ أسدا غضابا

وهكذا تتحول مرثي حافظ إلى منابر للدعوة الوطنية، يهتف من فوقها للكفاح بقلب أقوى، وبصوت أعلى مما نحسّه في كثير من شعره الذي صاغه في مواقف وأحداث وطنية هامة.

وبعد رحيل سعد التفت حافظ إلى رموز الأمة الذين خرجوا من بين صفوفها لحمل الأمانة، لكنّ ما هتف به لهؤلاء كان نزرا، وكان حافظا استعاض عن متابعة نضالهم بالتغني بأجماد مصر ومفاخرها، يُكثر من الحديث عنها ويدعو الشعب في كل مناسبة إلى استعادتها.

ثانيا: مواقف من الإنجليز

ذكرنا من قبل أن حافظا تمكن من تحويل شعره في رثاء الزعماء إلى منابر للدعوة الوطنية، يثير من فوقها الهمم لمواصلة الجهاد. فإذا كان هذا شأنه في الرثاء، فماذا هو فاعل في الأحداث الوطنية التي كانت تجرّ من وقت لآخر، وهي مادة جاهزة لحديث النضال؟

كنت أتوقع أن يكون صوت الشاعر في هذه الأحداث أقوى، وأن يفصح لنا في عبارة قوية عن شعور وطني أشد حدة، بسبب ما تحرّكه هذه الأحداث في الصدور من انفعالات تدفع بصاحبها إلى ما يكافئها من القول أو من الفعل. لكن القارئ يفاجأ في مواقف الشاعر بمستويات متباينة من الشعور، وبآراء غريبة في نظرتة إلى المحتل، فيها كثير من المفارقة، وفيها تناقض واضح بين المقام والمقال. وهذه الظاهرة آذت نفوس كثيرين وخيبت ظنهم وتوقعاتهم في (شاعر النيل)، كما عرضته لكثير من النقد اللاذع.

والحقيقة التي سبق أن أشرت إليها، أن (ترموتر) الشاعر لا يستمد من واقع الأحداث فحسب، فيرتفع أو ينخفض وفقا لطبيعتها ودرجة حرارتها، وإنما يتأثر بعوامل كثيرة أخرى على رأسها إحساسه المتنامي بالخوف والضعف وما يتولد عن ذلك من شدة الحرص وفرط الحذر ومعاودة النفس في كل كلمة يمكن أن تعرّض حياته للخطر. لن

نجد في شعر حافظ الذي هتف به في هذه الأحداث خطاباً قويا يغضب فيه الإنجليز أو يستعدي عليهم، فإن هذا أمر لا يقدر عليه ولا يطاوعه فيه لسانه. لن نجد إلا حديث الوطنية المعتاد الذي يكثر من الإشادة بالماضي والمجد الغابر، ويطالب المصريين باسترجاعه، إلى غير ذلك مما لا يكثر له الإنجليز ولا يحاسبون عليه. ولعل حافظا يخالف في ذلك أمير الشعراء، الذي كان يقابل الأحداث الجسام-متى تعرّض لها- بما يناسبها من خطاب يُرضي حاجةً في صدور الناس. ولعلي أتمكن من المقابلة بين الشعارين في شيء يسير من ذلك.

ولعل هذا التعميم الذي أرسيتُ من خلاله قاعدة نطلق منها لتناول شعر حافظ، لعله في حاجة إلى تخصيص وتحديد تُذكر فيه بعض الشواهد، ليكون القارئ على يقين من صحة ما ذهبنا إليه.

حادث دنشواي

ما وقع في حادث (دنشواي)، أشد ما تعرّض له المصريون على يد الإنجليز من صنوف القهر الجسدي والنفسي، وأقوى شاهد على تصرفهم المطلق في أحوال البلاد وأنفس العباد إبان الاحتلال^(٢٥). لقد وضع الإنجليز هذا الحادث كعادتهم بداخل إطار كاذب من القانون، لإيهام المصريين والعالم بأنهم أمة متحضرة تتوخى العدل وتحترم كرامة الإنسان، فأقاموا محاكمة صورية لأهالي (دنشواي) اختاروا لها بعناية إلى جانبهم من يوافق هواهم من المصريين. وما هي إلا أيام قلائل حتى استنطقوا هذه المحكمة السورية حكما بإعدام أربعة وجلد عدد آخر من أهالي هذه القرية المنكوبة. وإمعانا في التنكيل وإرهاب الشعب، أصرّ الطغاة على تنفيذ الأحكام وسط القرية على مرأى من الأهل، لا تثنيهم عن ذلك شفقة على أمّ أو زوج أو ابن. ضج الشعب المصري للخطب، وتدفقت جموع منه يوم التنفيذ على (دنشواي)، يظللها القتام وترتسم على وجوهها أمارات الهول.

ومن المصريين الذين باعوا وطنهم وذمهم بثمن بخس، ولوثوا أياديهم بدماء

إخوانهم الأبرياء، (إبراهيم الهلباوي) الذي شغل في تلك المحاكمة الجائرة منصب (المدعي العمومي)، و(فتحي زغلول) شقيق سعد زغلول، الزعيم الوطني الذي قاد جموع الأمة بعد (محمد فريد)، واحتمل أذى الإنجليز برضا نفس ورباطة جأش.

لم يُنشر لشوقي في هذا الحادث إبان وقوعه شعر بميسمه، يكشف للناس عن موقفه منه، ووقعه على نفسه. وأول قصيدة حملت اسمه وتحدث فيها صراحة عن هذه المأساة، ظهرت بعد عام بمناسبة الإفراج عمّن طالتهم عقوبة السجن من أهل دنشواي، وهي قصيدته التي يقول في مطلعها: ^(٢٦)

يا دنشواي على رُبّكِ سلامٌ ذهبَ بأُنسِ رُبوعكِ الأيامُ

فهل سكت شوقي طوال هذا العام ؟

يقدم الدكتور محمد صبري السوربوني في (الشوقيات المجهولة)، مقطوعات شديدة الوقع حمل فيها شوقي على الإنجليز ومن مالأهم من المصريين، وقد نشرتها الصحف إبان الحادث دون إشارة إلى صاحبها. ^(٢٧) لكن حافظا، وقد اختار الجهر، يطالع الناس بعد وقوع الحادث بعشرين يوما ودماء الضحايا لم تجف بعد، بقصيدة أغضبت كثيرين لما أبداه فيها من الضعف والملاينة التي بلغت حد الإذعان لجبروت المحتل، وهي قصيدته التي يقول للإنجليز في مطلعها: ^(٢٨)

أيها القائمون بالأمر فينا هل نسيتم ولاءنا والوداد؟!؟

فأيّ ولاء يذكرهم به؟! أولاء المقهور في أرضه المغلوب على أمره؟! وأي ودّ يحسّه الموتور نحو وائره أو يتبادله معه؟! لم تكن هذه الفاتحة إلا إيذانا بحديث طويل فيه من التخاذل ومعاني الهوان ما كان الشاعر في حلّ من التورط فيه، ولو أنه آثر الصمت، لكان خيرا من قوله لهم:

لا تظنوا بنا العقوق ولكنّ أرشدونا إذا ضللنا الرشادا
أكرمونا بأرضنا حيث كنتم إنما يُكرم الجواد الجوادا
إن عشرين حجّة بعد خمسٍ علّمتنا السكون مهما تمادى

أمة النيل أكبرت أن تعادي من رماها، وأشفقت أن تُعادي
ليس فيها إلا كلامٌ وإلا حسرةٌ بعد حسرةٍ . . تتهادى

فما الطاعة التي . يراها الشاعر واجبة لهؤلاء الغزاة الدخلاء، الذين نهبوا الزرع وامتصوا
الضرع وأشاعوا الرعب؟! وأي رشاد وهداية تُرجى على أيديهم؟!
إن حديث حافظ، إعلان عن انهزام إرادة الشعب المصري الذي كان يخوض آنذاك
أول نضال حقيقي ضد أولئك المحتلين خلف زعيمه مصطفى كامل. ومثل هذا القول
في مثل هذه المواجهة التي تُختبر فيها إرادة الأمة، يفت في عضدها، ويشدها مرة ثانية
إلى (السكون) والاكتفاء بالكلام والتحسر الذي اعتادته - كما يذكر حافظ - طوال
خمسة وعشرين عاما.

لم يرد في هذه القصيدة شيء يُحسب للشاعر إلا أمرين: أما الأول، فهو حديثه عن
قسوة المحاكمة وجور الإنجليز، وإن كان ذلك في صوت خفيض بعد قول ضعيف،
يقول للإنجليز:

أحسِنوا القتل إن ضننتم بعفوٍ أنفوسا أصبتُم أم جمادا؟!
ليت شعري! أتلك (محكمة التفـ تيش) عادت أم عهدُ نيرونَ عادا؟!!

فقد شبه محاكمة أهل (دنشواي) بمحاكم التفتيش التي عُقدت بأسبانيا للعرب
المسلمين، وجرى لهم بسببها ما جرى من صنوف التعذيب والإبادة. ورأى أن جور
الإنجليز وقسوتهم لا يقلان عما يصف به التاريخ (نيرون)، الذي أحرق روما ووقف
يستمتع بالنظر إليها طُعمةً للنار.

وأما الأمر الثاني، فهو حديثه الذي تهكّم فيه بإبراهيم الهلباوي، ونفث فيه غضبه
الذي لم يستطع البوح به فيما خاطب به الإنجليز، يقول له مستخزيا فعلته:

أيها المدّعي العموميُّ مهلاً بعض هذا فقد بلغت المرادا
قد ضمنا لك القضاء بمصرٍ وضمنا لنجلك الإسعادا
فإذا ما جلست للحكم فاذكر عهد (مصر) فقد شفيت الفؤادا

لكن من الغريب أن يُتبع حافظ هذا القول الذي يُعدّ حسنته الوحيدة في القصيدة، غريب أن يُتبعه بقول فسّل ينم عن نفس مضطربة لا تدري أي قول تقول، أو نفسٍ تخالف في قولها ما تحس وتشعر، فيأتي حديثها ركيكا مستهجننا. فقد أردف الأبيات السابقة بحملة على مصر، لأنها أنجبت (الهلباوي) ذلك الابن العاق الخائن، الذي لم يراع لأمه وإخوته حقا ولا حرمة:

لا جرى النيل في نواحيك يا مصـ رُ ولا جادك الحيا حيث جادا
أنتِ أنبتِ ذلك النباتَ يا مصـ رُ فأضحى عليك شوكا قتادا
أنتِ أنبتِ ناعقا قام بالأمر سِ فأدمى القلوب والأكبادا

فزاد من آلام مصر، هذه الأم الثكلي لدعائه عليها بالخراب والعقم، ولتجاهله من أنجبت خلال تاريخها الطويل من أبنائها المخلصين الشرفاء. فليس (الهلباوي) و(فتحي زغلول) كل من ولدت مصر، وليس كل من سقى النيل.

بعد هذه القصيدة بثلاثة أشهر، كتب حافظ قصيدة يستقبل بها (كرومر) العائد من مصيفه، نفى فيها عن مصر تهمة التعصب الديني التي رماها بها هذا الرجل فيما كان يخطه من تقارير، وفيما كان يجري على لسانه من حديث، كما نفى عن أهل (دنشواي) الذنب الذي أخذوا ظلما بجريرته، ثم أجاد نقل ساحة تنفيذ الأحكام بما فيها من صور القتل والتعذيب وأمارات الحقد والتشفي. هذا كل ما نافح به عن مصر، ساقه في صوت خافت النبرة، وما سواه فمن قبيل ما جاء بالقصيدة السابقة: معانٍ لا تشف إلا عن نفس مجهدة، تستجدي شيئا من حقها في الحياة.

ويزيد من سوءات الشاعر، أنه بدا في هذه القصيدة كمن يرشد هذا الطاغية إلى طريقة التعامل التي تضمن له ولاء هذه الأمة، وتستبقيها في حوزته ساكنة وادعة، فنسمعه يقول له: (٢٩)

فاجعل شعارك رحمةً ومودةً إن القلوب مع المودة تُكسبُ
وإذا سُئلتَ عن الكنانة قل لهم: هي أمة تلهو وشعبٌ يلعبُ

واستبق غفلتها ونم عنها تنم فالناس أمثال الحوادث قلبُ
وما قد نجده مستخفيا في تضاعيف هذه القصيدة من إشارات ضعيفة إلى كرامة الأمة
وحقوقها، فقليل جدا. وقد نلمس فيها أيضا تعريضا هينا بسياسة المحتل، مثلما نجد في
البيت الثاني من الأبيات السابقة، الذي يعرض فيه حافظ بما كان (كرومر) يكتبه من
قدح في الشعب المصري وطعن في كفاءته، ومثلما نجد في الأبيات التالية التي لا يصل
حديثه فيها إلى حد التهكم والتقريع. هذا وذاك يعبران عن احتجاج، لكنه احتجاج
الضعيف الذي يخشى عواقب المجابهة. يقول لكرومر:

علّمنا معنى الحياة فمالنا لانشرئب لها، ومالك تغضبُ ؟
أنقمت منا أن نُحسّ وإنما هذا الذي تدعو إليه وتندبُ
أنت الذي يُعزى إليه صلاحنا فيما تقرره لديك وتكتبُ

وهذا القول تعريض خفيف بما كان (كرومر) وغيره من ساسة الإنجليز يرددونه
ويتمنون به، إذ يقولون إنهم رفعوا الظلم الذي عاش المصريون في ظل أسرة (محمد
علي) يرزحون طويلا تحت وطأته.

ولقد ضاعف مصطفى كامل من جهوده في التنديد بسياسة (كرومر) عقب
وقوع مأساة دنشواي، أعانته الصحف الفرنسية كما فتح له البرلمان الإنجليزي أبوابه،
فعرض عليه صورا من معاناة الشعب المصري، استنكرها نواب هذا البرلمان وسعوا إلى
عزل (كرومر) عن مصر.

وبمناسبة رحيل (كرومر)، وقف الساسة والأدباء يشيعونه كلّ بحسب ما يُكين
له، أو ما يُقدر على البوح به. وكان أمير الشعراء وشاعر النيل على رأس الشعراء
الذين سجّلوا مواقفهم في هذا الحدث. ويحمل بنا أن نقابل - كما سبق أن وعدنا -
حديث كلّ منهما بحديث الآخر، فالمقابلة تظهر قدرة كلّ منهما على نشر ما بطوّيته
والتصريح به.

يستهل حافظ قصيدته مخاطبا نفسه: (٣٠)

فتى الشعر! هذا موطن الصدق والهدى

فلا تكذب التاريخ إن كنت منشدا

لقد حان توديع (العميد) ، وإنه

حقيق بتشييع المُحبِّين والعبدا

ولأن الشاعر أعلن في البداية التزامه الصدق فيما يقول، راح يذكر للرجل ما يعرف من أياديه ومآثره، مثل نشره الأمن في أنحاء البلاد، ومناصرتة الضعفاء، ونهوضه بشئون الزراعة. وبعد ذلك أخذ يعدد ما يعرف من مساوئ حكمه، وعلى رأسها مأساة دنشواي، ثم محاربتة التعليم واللغة العربية، وحجبه الصحف، وتوليته أمور المصريين من ليس أهلا لذلك، وأخيرا طعنه المستمر في الدين الإسلامي واتهامه المسلمين بالتعصب.

ولا يفوت حافظا بعد أن أحصى ذلك كله- وقد عُرف بالحيطه والحذر وتقدير عواقب الأمور- لا يفوته أن ينسب كل ما أحصاه لـ(كرومر) أو عليه إلى الآخرين، سمعه على ألسنتهم فنقله ولم يزد عليه. أي أنه ليس بمادح للإنجليز، أو قادح في سياستهم. ويمثل هذا القول يتخلص حافظ وينجو. ينجو من المصريين إذا غضبوا بسبب ما يعزوه إلى الإنجليز من أيادٍ عليهم، وينجو من الإنجليز إذا غضبوا بسبب ما يعدده من مساوئهم. يقول:

فهذا حديث الناس، والناسُ ألسنٌ إذا قال هذا صاح ذاك مفتندا

ولو كنتُ من أهل السياسة بينهم لَسَجَلْتُ لي رأيا وبلَّغتُ مقصدا

ولكنني في معرض القول شاعرٌ أضاف إلى التاريخ قولاً مخلدا

وهذا النقل الأمين لآراء الآخرين، الذي يستر به الشاعر ما كان ينبغي أن يديه من شعوره، بوصفه مواطنا مبريا مضطهدا في أرضه وبين أهله- هذا النقل ليس من عمل الشاعر الذي يريد أن يضيف إلى التاريخ- كما يزعم حافظ- قولاً مخلدا. فالقول المخلد ليس هو حصر الآراء ومقابلة الأبيض منها بالأسود، وليس هو التزام الموضوعية

والحيدة في مثل ذلك الموقف الهام من تاريخ الأمة، فلكل حادثة حديث، وحديث الشعراء في مثل تلك المناسبة خصوصاً وتفرد، ويستمد من طبيعة الحدث ومما تجيش به نفس الشاعر. وصدر حافظ مكتظ بمقت الإنجليز وكراهيتهم، لكنه أحكم الصمام لخوفه، وراح يلتوي بالقول تارة، ويمجامل به أخرى من لا يستحق المجاملة. ف(كرومر) الذي يجامل حافظ الإنجليز في شخصه، وقف في هذا الحفل الذي أُعدّ لتكريمه يعدد- كعادته- نقائص الشعب المصري، ويوجه الإهانات إلى الخديوي إسماعيل في وجه ذويه الذين حضروا لتوديعه، لا يراعي فيما يقول كرامة لمصر ولا لمن التف حوله من وجهائها يُسمعه الشاء الحسن.

ولئن كان شعر حافظ الذي سمعناه يُطفئ حماس الشعب، بما يُشيعه من إحساس بالاستكانة والإذعان للأمر الواقع، فإن (شوقي) لم يطق السكوت على إهانات (كرومر) ولياذ الحاضرين إزاءها بالصمت، وسرعان ما حمل عليه بقصيدة قوية أذهبت غيظ الأمة. في هذه القصيدة لن يلمس القارئ ما اعتاده من تأنق الشاعر في لغته، ومن بيانه الذي يذهب به كل مذهب، فهي وليدة انفعال قوي بالموقف جعلها تبدو من أولها إلى آخرها، وكأنها قذائف متلاحقة يصوبها شوقي إلى وجه ذلك الرجل الذي لا يتودد ولا يتحفظ: (٣١)

أيامكم أم عهد إسماعيلاً أم أنت فرعونٌ يسوس النيلاً ؟
أم حاكمٌ في أرض مصرَ بأمره لاسائلاً أبداً ولا مسئولاً ؟
لما رحلت عن البلاد تشهدتُ فكأنك الداءُ العيأُ رحيلاً
أوسعتنا يوم الوداع إهانةً أدبٌ لعمر ك لا يُصيبُ مثيلاً

وأبيات القصيدة تتوالى مشبعة بانفعال الشاعر وباعتداد المصري بدينه ووطنه وحقه، وكلها هجوم على السياسة الإنجليزية التي لا تراعي إلا ولا ذمة، وتهكم شديد بما كان (كرومر) يذكره في تقاريره السنوية من وجوه الإصلاح التي نهض بها في مصر. وراح شوقي في جرأة يذكره بمساوي حكمه العديدة، يحصي له الكثير منها، ويعرض بمن

وقفوا يُشنون عليه، ويحصون أياديه:

قالوا: جلبت لنا الرفاهة والغنى
كم مينة موهومة، أتبعتهما
في كل تقرير تقول: خلقتهم
جحدوا الإله وصنعه والتبلا
منا على الفطن الخبير ثقيلا؟
أفهل ترى تقريرك التنزيلا؟!
واستمر الشاعر يعدد مساوي الإنجليز، لا يرى لهم على مصر يداً البتة. وهل لمحتل
يغتصب الحق ويذل الرقاب ويأسر الناس في داخل أوطانهم، فضل عليهم أو مينة؟!
وكان شوقي أراد أن يلقن المصريين الذين التفوا حول (كرومر)، يمتدحونه
ويتباكون لرحيله، أراد أن يلقنهم درسا فيما ينبغي أن يكونوا عليه من الغيرة على
عقيدتهم ووطنهم. فنراه في حديثه إلى (كرومر) ينافح عن عقيدته الإسلامية، ويؤكد
انتماءه وولاءه التام لمصر:

لو كنتُ من حُمر الثياب عبدتكمُ
أو كنتُ بعض الإنجليز قبلتكمُ
أو كنتُ قسيسا يهيم مبشرا
إننا تمنينا على الله المُنَى
من نسب دين (محمد) فمحمد
من دون (عيسى) محسنا ومُنِلا
مليكا أقطع كفه تقبِلا
رتلتُ آية مدحكُم ترتيلا
والله كان بنيلهن كفيلا
متمكّن عند الإله رسولا

مشيرا في البيت الأخير إلى ما كتبه (كرومر) سنة ١٩٠٦م في تقريره من طعن في
الدين الإسلامي، مدعيا أنه لا يصلح لهذا العصر.

والاختيار من هذه القصيدة أمر يشق على الباحث، فهي تمضي متشابكة في نسيج
عاطفي قوي، وكل بيت فيها لا يقل دلالة على نفس صاحبها من الآخر. لكن طبيعة
البحث تقضي بالاجتزاء والبتز. وما أثبتناه منها يكفي شاهدا على ما بين الشعراء من
فرق كبير، لا في صدق العاطفة والإخلاص للوطن فإنه لا يخامرنا شك قليل في وطنية
حافظ، وإنما في القدرة على الإفصاح والتصريح، والاستعداد لتحمل ردود الفعل.
وليس هذا الموقف بغريب على شوقي، فقد وقف قبله بثلاثة أعوام يندد في إحدى

المناسبات بـ(رياض) باشا رئيس الوزراء، لتلقه الإنجليز^(٣٢). وقد دفع شوقي ثمن مواقفه الجريئة من الإنجليز ومن ساسة مصر-الضعفاء، فليس نفيه إلى أسبانيا عقب اندلاع الحرب العالمية الأولى، سوى تعبير عملي عما يُكنه هؤلاء جميعا له من ضغن ورغبة في الانتقام. وما جرى لشوقي كان تصديقا لمخاوف حافظ وتعميقا لمسلكه في التردد وشدة الحرص، وكان سببا في استمراره على نهجه الذي اختطه وارتضاه سبيلا مأمونا، لا يكاد يميل عنه.

ولحافظ قصيدتان يجب علينا أن نشير إليهما، وما قد يكون فيهما من ملامح التغيير الطفيف في لهجته. أما الأولى، فهي قصيدته التي استقبل بها (غورست) الذي وليّ شئون مصر خلفا لكرومر. وأما الثانية، فهي قصيدته في (مكماهون)، المعتمد البريطاني في مصر زمن الحرب العالمية الأولى.

في مخاطبته (غورست)، يبدو حافظ أكثر جرأة مما عهدناه سابقا، فهو يطرح رأيه بصراحة في (كرومر) ويعرض كثيرا من مساوئه ومساوئ الإنجليز بعامة، في غير تخفٍ وراء الآخرين. ونلمس هذه الصراحة أيضا في حديثه عن هموم المصريين التي جلبها الاحتلال، وفي مطالبته بضرورة إصلاح أحوالهم وإعادة بعض حقوقهم. ويبدو من القصيدة أن بنات الشعر التي هتف بها الشاعر في مستهلها يستمنحها الشجاعة والفصاحة، قد استجابت لبعض ما طلب: ^(٣٣)

بناتِ الشعرا بالنفحاتِ جُودي فهذا يومٌ شاعركِ المُجيدِ
وأُولي ذلكِ الفاني بيانًا يتيةً بهِ على أهلِ الخلودِ
وحُلِّي عُقدةً من أصغريهِ يَلِنُ لهُتافهِ قاسي الحديدِ

فالقصيدة توضح أن بنات الشعر لم تحل من عُقد أصغريه، قلبه ولسانه، إلا عُقدة واحدة بقدر ما سأل، وبقيت فيهما عقد كثيرة من الخوف والعجز حالت دون إتيان الشاعر في بيانه بما يُرضي أحرار الأمة الذين لا يقبلون غير المطالبة بالخلاص التام. يكفي الشاعر جرأة-وهو يقدر ظروفه الخاصة ويعي ظروف مصر العامة-يكفيه أن يهاجم (دانلوب)

المستشار الإنجليزي المستبد بوزارة المعارف، وقد كان من أهم الأعمدة التي يستند إليها (كرومر) في تنفيذ سياسته. فنراه يعلن لـ(غورست) صراحة، أن المصريين ما عادوا يهتمون وجود هذا المستشار، ويطلب منه أن يستبدل به آخر أكثر حكمة وقصدا. يعرض عليه ذلك في ثمانية أبيات، يختلط فيها الاستياء بالتهكم، نذكر منها قوله:

هَبُّوا (دانلوب) أرحبكم جنانا وأقدركم على نزع الخُفُودِ
فإننا لا نُنطِيقُ له جِوارا وقد أودى بنا أو كاد يُودِي
مللنا طولَ صُحبتهِ ومَلَّتْ سوابقنا من المشي الوقيدِ
بحمد الله ملكُكمُ كبيرٌ وأنتم أهلٌ مرحمةٌ وجُودِ
خذوةٌ فامتعوا شعبا سوانا بهذا الفضلِ والعلمِ المقيدِ

وفي القصيدة مصالح وطنية أخرى يلح الشاعر في المطالبة بتحقيقها. لكننا نراه بعد هذه الصراحة يلجأ إلى تحقيق شيء من التوازن في قصيدته، يلطف به ما يكون قد أبداه من جراءة في إعلان الرأي والمطالبة بحقوق الشعب. نراه حريصا على الإقرار للإنجليز بعجز مصر وبأنهم قوة لا تُقاوم وجاه لا يُطاول. ينفي بهذا عن نفسه أن يكون نداء لهم، قادرا على مناجزتهم ودرء عاديتهم:

فما جئنا نطاولكم بجاهٍ يطولكمُ ولا رُكنٍ شديدِ
ولا يتنا نعاجزكم بعلمٍ يبين به الغوي من الرشيدِ
ولكننا نطالبكم بسحقٍ أضرب بأهله نقضُ العهودِ

وهكذا يتلون صوت الشاعر في قصيدته فيعلو ويخفت، وتأخذ لغته مستويات مختلفة من الخطاب، فترق وتقسو. يفعل ذلك لئلا يختل توازنه وسط ظروفه المضطربة.

أما قصيدته في (مكماهون)، الذي ولي أمر مصر مع بداية الحرب العالمية الأولى، فمليئة بالتودد إلى الإنجليز والثناء على عدلهم ونبل مقاصدهم. يرمي حافظ بذلك إلى حث المعتمد الجديد على انتهاج سياسة أكثر عدلا ورحمة من سابقه: (٣٤)

أنتم أطباء الشعو بـ وأنبل الأقسام غالية

أنى حللتُم في البلا د لكم من الإصلاح آية
رسختُ بنايةً مجدكم فوق الروية والهداية
وعدلتُم فملكتمُ الد نيا وفي العدل الكفاية
إن تنصروا المستضعف ن، فنحن أضعفهم نكايه

والشاعر يبلغ في البيت الأخير غاية الضعف، فحديثه فيه حديث من أقر بهزيمة وألقى إلى خصمه زمام أمره، يصرفه كيف يشاء، لا يسأله رد قضائه فيه، إنما يسأله اللطف فيما قضى به عليه وقدّر له.

قال حافظ قصيدته في ظروف الحرب التي زادت الإنجليز غلظة، وجعلتهم أشد خنقا للأصوات التي يخشون أن تثير ضدهم النفوس مما يؤثر على موقفهم في تلك الحرب. ومن أجل تهيئة الأحوال في مصر لصالحهم، وضمانا لاستقرارها، أنزلوا الخديوي (عباس الثاني) من فوق العرش ومنعوه من دخول مصر، كما أبعادوا عن مصر من كانت لهم صلة قوية به وعلى رأسهم أمير الشعراء.

ومما يدل على حرج الظروف آنذاك، أن الشاعر نفسه قبل ذلك بأيام قلائل، وقف يهنئ السلطان (حسين كامل) بجلوسه على عرش مصر خلفا لعبّاس، فلم يكن منه سوى أن نصحه بموالة الإنجليز والتودد إليهم، والاعتماد عليهم فيما يشق عليه من أمر الحكم: (٣٥)

فعش للنيل سلطانا أبيّا له في ملكه عقدٌ وحلُّ
ووال القوم إنهم كرامٌ ميامين النقيبة أين حلّوا
وليس كقومهم في الغرب قوم من الأخلاق قد نهلوا وعلّوا
فإن صادقتهم صدقوك ودا وليس لهم إذا فتّشت مثلُ
وإن شاورتهم والأمر جدُّ ظفرت لهم برأي لا يزلُّ
فباددهم حبال الود وانهض بنا فقيادنا للخير سهلُ

يقول للسلطان ذلك وهو الذي وقف يحذّره يوم كان رئيسا لمجلس الشورى وقبل أن

يجلس على أريكة الحكم بست سنوات، يحذره من خداع الإنجليز ونقضهم
عهودهم: (٣٦)

فلا تثقوا بوعد القوم يوما فإن سحاب ساستهم جهامُ
وخافوهم إذا لانوا فإني أرى السّواس ليس لهم ذمامُ
فكم ضحك العميد على لحانا وغرّ سراتنا منه ابتسامُ

وهذا التناقض سببه أن حافظا- كما ذكرنا من قبل- يتأثر في مواقفه وأقواله بظروفه
الآنية، فيحاول التكيّف معها دفعا لأي أذى. ولم يكن السلطان الجديد في حاجة
لنصيحة الشاعر، فقد معروفا قبل تولّيه السلطة بمهادنة الإنجليز وعدم مناوأتهم، إن لم
يكن بالتودد إليهم. ولولا علاقته الحسنة بهم ما أجلسوه على العرش في ظروف
الحرب الحرجة بدلا من عباس. ولا بد أن يكون حسين كامل سببا في تقي شوقي إلى
أسبانيا عقب تولّيه الحكم؛ لعلاقة شوقي الرطيدة بعباس الذي كان على جفاء مع عمه
حسين كامل، ثم لأن شوقي رمى حسين كامل بالجبن في قصيدته التي ردّ فيها على
(كرومر)، إذ كان حاضرا حفل توديعه وسمع ما وجهه من إهانات إلى مصر وإلى آباءه
من أسرة محمد علي، دون أن يغضب أو يحاول دفع ما لحقهم من أذى.

لكن الباحث يقدر لحافظ شجاعته التي أبدأها فيما نشر من شعره بعد تركه
العمل وقبيل وفاته، ونخص تلك المقطوعات القصار التي يندّد فيها بادعاء الإنجليز
الحِياد وعدم التدخّل في الشؤون المصرية. نراه يفند في جرأة إدعاءاتهم، ويرميهم- وهو
الذي أكثر من امتداح أخلاقهم- بالكذب والغدر وخيانة الموائيق، ويزيد على ذلك
فيتوعدهم وينذرهم بزوال ملكهم، كما نسمعه يصرّح في غير موضع بآلا بديل عن
توحيد صفوف الشعب لمقاومتهم والتخلص منهم. في هذه المقطوعات القصار، ينفث
الشاعر ما اكتظ به صدره لسنوات طويلة من غيظ وكرامية، ولا يحذر ما كان يحذره
من قبل ويتقيه، يقول: (٣٧)

قل للمحايد هل شهدت دماءنا تجري وهل بعد الدماء سلامٌ ؟

سُفِكت مودتنا لكم وبدنا لنا أن الحياد على الخصام لثامٌ
 إن المراجل شرُّها لا يُتقى حتى ينفّس كريبهنّ صمامٌ
 لم يبق فينا من يُمني نفسه بودادكم فودادكم أحلامٌ
 أمِن السياسة والمروءة أننا نشقى بكم في أرضنا ونضامٌ!؟
 إنا جمعنا للجهاد صفوفنا سنموت أو نحيا ونحن كرامٌ

ولنقرأ حديثه التالي إلى المندوب السامي، يستنكر فيه استخفافه بهموم المصريين،
 وانشغاله عنها بما يطلبه من أسباب المتعة واللهو، كما يصف الإنجليز بالغدُر، ويصرّح
 بأن المواجهة هي السبيل الوحيد لانتزاع الحق: (٣٨)

ألم ترّ في الطريق إلى (كباد) تصيد البطّ بؤس العالمينا!؟
 ألم تلمح دموع الناس تجري من البلوى، ألم تسمع أنينا!؟
 ألم تخبر بني (التاميز) عنا وقد بعثوك مندوبا . . أمينا
 بأنا قد لمسنا الغدر فيكم وأصبح ظننا فيكم يقينا؟
 كشفنا عن نواياكم فلستم -وقد برح الخفاء- محايدينا
 سنجمع أمرنا وتروُن مِنّا لدى الجُلّي كرامًا صابرينا
 ونأخذ حقنا رغم العوادي تُطيف بنا ورغم القاسطينا

ويزداد الشاعر حميّةً للوطن والحق المغتصب، فيعلن بصوت عالٍ عن تحدّيه الإنجليز
 حتى الموت، مهما بلغت سطوتهم، واشتد قهرهم: (٣٩)

حوّلوا النيل، واحجبوا الضوء عنا واطمسوا النجم، واحرمونا النسيما
 واملئوا البحر إن أردتم سفينا واملئوا الجو إن أردتم رُجوما
 وأقيموا للّعسف في كل شبرٍ (كُنْسَبَلًا) بالسوط يفري الأديما
 إننا لن نحول عن عهد مصرٍ أو تروُنّا في التُّرب عظمًا رميما
 فاتقوا غضبة العواصف إنني قد رأيتُ المصير أمسى وخيما

هذا هو الوجه الحقيقي لـ(شاعر النيل)، تطل ملامحه قبيل وفاته. ولو مدّ الله في عمره،

لازدادت هذه الملامح في شعره قوة وبروزا. ولثلا نهضم الشاعر حقه تقول، إن هذه الملامح الأصيلة قد ظهر شيء منها في شعره الذي رثى به زعيمى الأمة مصطفى كامل وسعد زغلول، وظهرت بوضوح فى قصيدته التى أطرى بها شجاعة المرأة المصرية وجهادها فى ثورة ١٩١٩م.

ولكن حالت ظروف حافظ أحيانا دون الجهر بكرهيته الإنجليز والتصريح بحقيقة شعوره نحو سياستهم الغاشمة أو اضطرتة أحيانا إلى تملقهم بالثناء الحسن، فإنه كان يلجأ آنذاك إلى سدّ هذا الخلل فى موقفه بأحد أمرين: فأما الأول، فهو التوجّه إلى المصريين وبخاصة الشباب، يدعوهم إلى استعادة مجدهم القديم عن طريق التسلح بالعلم ونبذ اليأس والفرقة... إلخ وقد ترك فى ذلك حديثا كثيرا وجيدا، كقوله للشباب: (٤٠)

أهلاً بنابتة البلاد ومرحبا جددتم العهد الذى قد أحلقا
لاتياسوا أن تستردوا مجدكم فلربّ مغلوبٍ هوى ثم ارتقى
مدّت له الآمال من أفلاكها خيطة الرجاء إلى العُلافتلّقا
فتجشّموا للمجد كل عزيمة إنى رأيتُ المجد صعبَ المرتقى
من رام وضلّ الشمس حاك خيوطها

سبباً إلى آماله وتعلّقا

عارٌ على ابن النيل سبّاقى الورى مهما تقلّب دهره، أن يُسبّقا

وأما الثانى، فهو نشر ما طوى الزمن من كتاب مصر القديم، الحافل بالأجداد والمفاخر، يسطر صفحاته أمام الأحفاد لتكون حافزا ودافعا، ولحافظ فى ذلك حديث غير قليل، لعل من أجوده لفظا وبيانا، قصيدته "مصر تتحدث عن نفسها"، التى صاغها فى موقف سياسى دقيق ومؤثر فى تاريخ الحركة الوطنية، يتطلب من الشعب مؤازرة زعمائه، الذين كانوا يخوضون آنذاك صراعا شديدا من أجل الاستقلال، يكابدون فيه صلف الإنجليز والتواء مسالكهم. فى هذه القصيدة، راح حافظ على لسان مصر، أو وقفت (مصر) تذكر ما حباها الله به من النعم، وتثنى على بنيتها، وتؤكد أهليتهم

للنهوض بكل جليل من الأعمال، ثم شرعت تذكر من مفاخر السلف ما يعتز به الخلف: العلم والحكمة والفن، والجهاد الذي لا يعرف اليأس... إلخ وبعد هذا كله، كان منطقياً، أن تقف مصر " الأم " منكرةً ما يدّعيه المحتلّ الدخيل من عجز أبنائها عن احتمال الأعباء والنهوض بتكاليف الحياة، ومؤكدةً حقها في حياة حرة ناعمة: (٤١)

أتراني وقد طويستُ حياتي في ميراسٍ، لم أبلغ اليوم رُشدي ؟
أي شعبٍ أحقّ ميني بعيشٍ وأرف الظل أخضر اللون رغدي ؟
أمن العدل أنهم يرُدون الأـ سماء صفوا وأن يُكدر وُردي ؟
أمن العدل أنهم يُطلقون الأـ أسد منهم وأن تُقيد أسدي ؟
نصف قرن إلا قليلاً أعاني ما يُعاني هوانه كلُّ عبدي

ولا تجد هذه الأم أمامها من وسيلة، إلا أن تجد ثقته في نصر الله، وفي حُسن بلاء أبنائها، وأن تلتفت إليهم ممتدحةً سعيهم، ومستنجة ما وعدوا من بذل الروح:

نظر الله لي فأرشد أبنا ئي فشددوا إلى العلا أيّ شدّ
إنما الحق قوةٌ من قوى الديـ إن أمضى من كل أبيض هندي
قد وعدتُ العلى بكلّ أبيّ من رجالي فأنجزوا اليوم وعدي
أمهروها بالروح فهي عروسٌ تشنأ المهر من عُروض ونقدي

إن الباحث المنصف وهو يكتب سير الرجال، لا يبني آراءه فيهم من خلال آثارهم ومواقفهم فحسب، وإنما يبحث عما وراء هذه الآثار والمواقف من عوامل تؤثر في سلوك الإنسان وتشكل مواقفه. وأهم هذه العوامل ما ركبه الله في نفوس البشر من حاجات ورغائب، تجعل هذه النفوس تستجيب لظروف البيئة وأحوال المجتمع أكثر من استجابتها لما هو حق أو واجب، فراها تحاول التكيف معها وتعديل أوضاعها وفقاً لما حولها حُباً في البقاء ورغبةً في إشباع هذه الحاجات. والشاعر، أي شاعرٍ - كما ذكرنا من قبل - بشرٌ، تحوي نفسه كلّ ما رُكب في نفوس الآخرين من صنوف الميل والغريزة، ما كان منها عاملاً على قوة النفس وما كان منها عاملاً على

ضعفها وانكسار حدتها، وهو ليس مصروفا بقوة علوية عن رغائب البشر الدنيا ونزعات نفوسهم كما هو شأن الأنبياء والرسل. لهذا كان من الطبيعي أن يصمت شوقي وحافظ وغيرهما من الشعراء والكتاب ودعاة الإصلاح، متى كان الجهر والنطق مجلبةً لشراً يتهددهم في أنفسهم أو ذويهم بصورة من الصور. وقد كان (روفائيل مسيحة) مصيباً حين علل موقف حافظ من قضايا أمته في ضوء هذا العامل النفسي الهام وحيث يقول: "وحقيقة الأمر أن وجدانه كان ميدانا لصراع عنيف بين الحرية في القول والجهر بما قد يغضب منه السلطان ويهز عرش وظيفته ويقذف به إلى لجة الحياة التي لا يقوى على مكافحتها، وبين كتمان هذه النزعات التي قد تغضب منه السلطان. ونعني بالسلطان ذوي النفوذ والسطوة، وقد كانوا في مصر كثيرين من المصريين والإنجليز. تقول إن الرظيفة لم تطفئ جذوة السياسة في نفس شاعرنا إطفاء، بل ولم تفسدها أو تدفعها إلى شئ من الانحراف. وكل ما فعلته أنها جعلته إلى الاعتدال أدنى، جعلته يتجنب العاصفة ويختال في كفاحه من أجل آرائه السياسية والتعبير عنها" (٤٢)

ويذكر أن مذهب حافظ في الاعتدال والتوسط والحيطه، لم يكن طابعاً شخصياً له وحده يلي عن طريقه رغبات نفسه، وإنما كانت مهادنة الاحتلال مبدأً سياسياً أخذ به بعض ساسة المصريين في معاملة الإنجليز، يرونه الأنسب والأجدى في بعض مراحل النضال الوطني، وبخاصة في ظل سياسة الوفاق التي قامت بين الإنجليز والقصر الحاكم وأدت إلى إضعاف تيار الحركة الوطنية (٤٣). هذا فضلاً عما كان الإنجليز يقومون به منذ عهد (كرومر) من مصادرة الصحف، وترصيد الأدباء الأحرار، يأخذونهم بالشدة ويزجون بهم في السجون. وينتهي الكاتب إلى أن حافظاً قد نجح في هذه الظروف القاسية، ونهض بواجبه الفني والقومي إلى حد بعيد (٤٤).

وحافظ نفسه يجهر بمخاوفه من أن يلقي مصير الأدباء والساسة الذين امتدت إليهم كف الإنجليز بالبطش، ويصف ما تكابده نفسه من حرج موقفه وتردده بين

الجهر والصمت، فيقول: (*)

إذا نطقتُ ففقا ع السج ن متكأ وإ ن سكتُ فإ ن النفس لم تطب

لكننا ننحى عليه ثناءه على الإنجليز لمناسبة أو لغير مناسبة، ومقابلته قوتهم ونفاذ أمرهم بانهزام مصر وضعف حيلتها وإذعان شعبها، فليس ذلك في تقديرنا مما يدخل في باب "التقية" أو المهادنة، ولا بد أن يترك أثرا سيئا في نفوس الأحرار، ويغلق نوافذ الأمل التي كان الشاعر نفسه يفتحها أمام "نابتة البلاد" أو "رجال الغد المأمول" كما يحلو له أن يسمي ناشئة الأمة. وقد عاب كثيرون على حافظ ذلك، وعلله بعضهم تعليلا آخر. يقول أحمد محفوظ: "كيف يهنئ حافظ ويمدح ملك هؤلاء المحتلين بلاده وملك هؤلاء الذين أذلوه في السودان وطردوه من الخدمة. وأية منفعة كانت تعود عليه من هذا السلوك المزري. ولكن من عرف حافظا وسداجته، يقدر أن أحد اللائذين بالوكالة البريطانية دفعه إلى هذا فانساق، لأنه كان سهل القيادة، وهذه طبيعة فيه" (٤٥)

ولا أتفق وروفايل مسيحة حين يعلل ذلك بقوله:

"الحقيقة أن ما قاله شاعرنا في هذا المجال لم يعد تسجيل إعجابه العام بمقومات عظمة بريطانيا كدولة عظيمة تسعى إلى المجد في جد وحزم منذ القدم. وليس بغريب أن يعجب إنسان بما يرى من آثار هذا المجد وهذا الجبروت. وليس بغريب أن يعجب بالأركان الأساسية التي يقوم عليها النظام السياسي لهذه الدولة العريقة في الديمقراطية. ولسنا نرى أن افتيات هذه الدولة بالذات على سيادة مصر واحتلالها إياها كان مما يحد من إعجاب شاعر قومي كحافظ إبراهيم أو يصده عنه، فالإنسان وإن كان يحنق على عدوه قد يقدر فيه قوته . . . ويلوح أن شاعرنا كانت تسيطر عليه في هذا الموقف العاطفة الإنسانية العامة التي تحس بوحدة الحضارة الإنسانية، وتتهذب معها العاطفة القومية بحيث قد لا ترى بأسا من الإشادة بشعب أو بدولة أجنبية وبمكانتها في الأسرة البشرية. وإذا لم يكن بغريب أن يشيد إنجليزي أو فرنسي بحضارة الفراعنة وأن يقر

بفضلهم على المدنية الإنسانية، فأظن أنه ليس بغريب أن يعجب شاعر مصري بروح
الإنجليز الدستورية وبنظامهم البرلماني وبآدابهم وما إليها. « (٤٦)

فليس علم الإنجليز وأساطيلهم وديمقراطيتهم، مما ينبغي أن يشدو به المصري أو الهندي،
أو غيرهما من أبناء الشعوب الذين ذاقوا وبال هذه الأشياء وكانت سببا في قهرهم
واستلاب حريتهم وإرادتهم. وحافظ نفسه هو القائل على لسان مصر: (٤٧)

وارفعوا دولتي على العلم والأخذ للاق فالعلم وحده ليس يُجدي

وهو نفسه الذي سبق أن ذمّ علم الغرب ومدنيته، لأنهما كانا السبب فيما ساقته
الحرب العظمى إلى البشر من ويلات، ورفع يديه إلى السماء مستعيذا بالله تعالى من
تلك الحضارة الغربية المدمرة: (٤٨)

لاهْمٌ ! إن الغرب أصبح شعلةً	من هولها أم الصواعق تفرقُ
العلم يُذكي نارها ، وتثيرها	مدنيةٌ خرقاءُ لا ترفقُ
ولقد حسبتُ العلم فينا نعمةً	تأسو الضعيف ورحمةً تتدفقُ
فإذا بنعمته بلاءٌ مرهقُ	وإذا برحمته قضاءٌ مطبقُ
إن كان عهدُ العلم هذا شأنه	فينا فعهد الجاهلية أرفقُ

إذن فمقارنة ثناء الإنجليز أو الفرنسي على الحضارة الفرعونية بثناء المصري على
الحضارة الإنجليزية أو الفرنسية، قياس غير صحيح للفرق الشديد بين الحضارتين. فلم
تكن الحضارة المصرية القديمة في طور من أطوارها، حضارة استرقاق لشعوب الأرض
واستغلال لثرواتها. وما زالت شعوب العالم المستضعفة حتى يومنا هذا تتجرّع مرارة
هذه الحضارة الغربية، التي قصرت ما تفهم من قيم الحق والخير والعدل على شعوبها،
وراحت تلقى غيرهم بأخلاق أخرى وقيم مغايرة. ثم إن حافظ إبراهيم لم يكن يسير
في مدحه الإنجليز وفق رؤية إنسانية محددة أو منهج أخلاقي واضح، وإنما كان - كما
رأينا - يمتدحهم في موضع ويذمهم في آخر، ويتقلب في حديثه إليهم بحسب ما تقضي
الظروف من حوله، فإذا به ينقض اليوم ما قاله عنهم بالأمس.

بقي أن نشير في حديثنا عن وطنية حافظ إلى أمر طريف، وهو أن حافظا تمنى في عدة مواضع من شعره، أن يُطل شهر (تموز) على مصر بحدث يكون لها فرجا من كُربتها. ففي هذا الشهر نالت أمم كثيرة حرياتها وحقوقها. يقول: (٤٩)

(تموزُ) ! أنت أبو الشهور جلالة (تموزُ) ! أنت مُنى الأسير العاني
هلا جعلت لنا نصيبا، علّنا نجري مع الأحياء في ميدانِ
أيعود منك الآملون بما رجوا ونعود نحن بذلك الحرمانِ ؟
(تموزُ) ! إن بنا إليك لحاجة فمتى الأوانُ ؟ وأنت خير أوانِ

وما هو أكثر طرافة في هذا الأمر، أن الشاعر وقف يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٠٩م، يهنئ العثمانيين بصدور دستورهم في مثل ذلك اليوم، ثم أخذ يدعو لهذا الشهر الذي كان فاتحة خير لكثير من شعوب الأرض، يقول: (٥٠)

لك الله يا (تموزُ) ، إنك بلسمٌ لجرحي الأسي، والدهر تعدو نوائبه
فكم رُغت جبارا وأرهقت ظالما وأنصفت مظلوما توالت مصائبه
فديناك من شهر أغرّ محجّل أوائله ميمونةٌ وعواقبه
تقابله الأعياد في الأرض كلما تجلّى هلالُ الشهر، أو لاح حاجبه

ثم توفي حافظ وهو لا يدري أن الله سيحقق أمنيته في مثل هذا اليوم من هذا الشهر الذي وقف يُطريه ويُفدّيه، وذلك بقيام ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢م، التي استلت شوكة الاحتلال من حلق المصريين.

شعوره القومي

أما شعور حافظ العربي فشديد الوضوح في شعره، وقد أبان فيما أبدع عن إحساس صادق وعاطفة جياشة تجاه أمته العربية، كما أكد أشد تأكيد انتماءه العربي والإسلامي. وما أكثر المناسبات التي وقف فيها يشيد بإخوانه العرب ويتغنى بأمجادهم، مثلما يتغنى بأمجاد مصر ويعدد مآثرها. ومن ذائع شعره القومي قصيدته التي يقول في

مستهلها: (٥١)

لمصر، أم لربوع الشام تنتسبُ؟ هنا العلا، وهناك المجدُّ والحنسُ
ركنان للشرق لازالت ربوعهما قلب الهلال، عليها خافق يجبُ
أم اللغات غداة الفخر أمهما وإن سألتَ عن الآباء فالعربُ

كان على قناعة بأن الأصل الكريم الذي يلتقي فيه العرب واللسان القويم الذي
يفصحون به، كفيلا أن يجعل منهم أمة واحدة تضم أقطارها عُرى المحبة، ويتسمع
فيها كل قطر أخبار شقيقه فيهب إليه قبل أن يهيب به:

إذا ألت بوادي النيل نازلةً باتت لها راسيات الشام تضطربُ
وإن دعا في ثرى الأهرام ذو ألمٍ أجابه في ذرا لبنانٍ منتحبُ
فما الكنانة إلا الشام، عاج على ربوعها من بنيتها سادةٌ نجبُ

ولنتأمل البيت الثالث، لنرى كيف سما به شعوره القومي إلى مرتبة عالية، توحدت
عندها الأقطار العربية في قطر واحد، فصارت مصر هي الشام، وصار أبناء الشام
المقيمون في مصر، كأنهم يتنقلون في وطنهم وبين ذريهم. وفي لبنان يقف حافظ بين
إخوانه فلا يحس إحساس المغترب الذي بعدت به الشقة عن داره وأهله: (٥٢)

لي موطنٌ في ربوع النيل أعظمه ولي هنا في حماكم موطنٌ ثانٍ
إني رأيتُ على أهرامها حُللاً من الجلال، أراها فوق لبنانٍ
حسبتُ نفسي نزيلا بينكم فإذا أهلي وصحبي، وأحبابي وجيراني

وفي موضع سابق من هذا البحث، ذكرنا شيئا من شعر حافظ الذي وصف فيه طموح
أهل الشام ومضاء عزمهم، وانتشارهم في كل أقطار الأرض سعيا وراء الرزق. يمتدح
ذلك لهم ويراه ميزة في نفوسهم: (٥٣)

ما عابهم أنهم في الأرض قد نُثروا فالشهب منثورة مذ كانت الشُّهبُ

ويزيد على ذلك فيعزو إليهم الفضل في نشر اللغة العربية في كل الأصقاع التي رحلوا
إليها، ولولاهم ما بلغت اللغة العربية ما نراه اليوم من انتشارها الواسع:

سعوا إلى الكسب محمودا وما فتئت أم اللغات بذاك السعي تكتسب
فأين كان الشأميون ، كان لها عيشٌ جديدٌ وفضلٌ ليس يحتجبُ
وتدفعه غيرته القومية إلى مطالبة الشعوب العربية بنبذ الخلاف، وإلى تحذيرها من
الفرقة الذين يسعون جادين لتمزيق وحدتها: (٥٤)

إن دام ما نحن فيه من مدابرةٍ وفتنة بين أجناس وأديان
رأيتُ رأيَ (المعري) حين أرهقه ما حلّ بالناس من بغي وعدوان
لا تطهرُ الأرض من رجسٍ ومن درنٍ

حتى يعاودها (نوح) بطوفان

يقصد بالبيت الأخير قول أبي العلاء المعري: (٥٥)

والأرض للطوفانٍ مشتاقةٌ لعلها من درنٍ تُغسلُ
فإن طوفانا يطهرُ الأرض العربية من أدرانها ليعيش من بقي في وئام، خير من أن
العرب في فرقةٍ وتدابير يُطمعان فيهم الخصم ويجلبان عليهم الذل.

وما فتئ الشاعر يحذر من هذا الأمر الخطير الذي نجني نحن ثماره المرة الآن.

ما كان حافظ حريصا على وحدة الصف داخل مصر لمواجهة الاحتلال وما
فتن، كان حريصا على وحدة الصف العربي وتماسكه لمواجهة أعداء الأمة
لكنّ رائعة حافظ إبراهيم في بيان عاطفته القومية، هي قصيدته التي قالها تحية
القطرين (خليل مطران). بمناسبة الإناعام عليه بأحد الأوسمة الرفيعة، لما في هذه
من حُسن تأتي الشاعر لهذا الموضوع، ولا تخاذه أسلوبا جذّابا في عرض المفاخر
العربية. وتجنبنا للتكرار نستبقي الحديث عن هذه القصيدة إلى الفصل التالي و
نتحدث عن العنصر القصصي في شعر حافظ.

هذه هي عاطفة حافظ القومية وحرصه الصادق على وحدة الوطن

وهذه العاطفة كانت تزداد في شعره توهجا إذا ألم بقطر عربي ما يروع أهله.

الإيطاليون ليبيا سنة ١٩١٢م يريدون انتزاعها من يد الأتراك وارتدوا مدحورين،

صوت الشاعر فخورا بما تحقق من نصره، يعتده نصرا للعرب وللإسلام، وشرع يسخر
من أولئك الغزاة الذين طلبوا النجاة بالنفس وخلفوا وراءهم كثيرا من العتاد
والعدة: (٥٦)

حاتمَ الطليان ا قد قلّدتنا مينةً نذكرها عاما فعاما
أنت أهديت إلينا عُدةً ولباسا وشرابا وطعاما
وسلاحا كان في أيديكمُ ذا كلال، فغدا يفري العظاما
أكثرُوا النزهة في أحيائنا ورُبانا، إنها تشفي السقاما
وأقيموا كلّ عام موسما يُشبع الأيتام منا والأيامي

لم تكن هزيمة الإيطاليين خفيفة الوطأة على نفوسهم. ولم يجدوا أمامهم وسيلة للانتقام
سوى أن يتجهوا إلى سواحل الشام لضرب بيروت من البحر. وعلى أثر ذلك وضع
حافظ منظومة تمثيلية، لا يهتمنا في هذا المقام بناؤها الفني، وإنما يهتمنا ما صورّه فيها من
الإحساس الوطني وما كان وراء نظمها من شعوره القومي. (٥٧)

وبعد فإن الحديث عن وطنية حافظ ليس أمرا هيئا لسببين. أما الأول، فهو كثرة
ما شغله هذا الجانب في شعره من حديث. وأما الثاني، فهو كثرة ما في مواقفه وآرائه
من مفارقة وتناقض. وهذان الأمران يتطلبان من الباحث جهدا غير عادي في الاستقراء
والملاحظة والمقابلة بين الآراء، ثم البحث عن علل ما يلحظ من ظواهر. وقد حرصت
على تقديم صورة دقيقة مستوفاة الملامح لهذا الرجل، توضّح ما كان بداخل نفسه من
دروب متقاطعة أو ملتوية، محلّلا معلّلا، ما أمكن التحليل والتعليل. وأما شعوره
القومي فواضح في ديوانه ولا يتطلب عناء من القارئ للوقوف عليه.

* * *

هوامش الفصل الرابع:

- (١) ديوان حافظ إبراهيم ج١، ص١٣٩
- (٢) الشوقيات ج٢ ص١٠٣
- (٣) ديوان حافظ إبراهيم ج٢، ص٢٠
- (٤) حياة حافظ إبراهيم ص٦٨ و٧١-٧٤
- (٥) ديوان حافظ إبراهيم ج١، ص٢٦١
- (٦) حياة حافظ إبراهيم ص٧٢-٧٣
- (٧) ديوان حافظ إبراهيم ج١، ص٢٦١
- (٨) المرجع السابق ج٢، ص١٤٩
- (٩) المرجع نفسه ج٢، ص١٥٢
- (١٠) أبو زيد القرشي، جمهرة أشعار العرب، ضبط على فاعور (بيروت-دار الكتب العلمية-بدون تاريخ) ص٢٢٢.
- (١١) ديوان حافظ إبراهيم ج٢، ص١٦٢
- (١٢) المرجع السابق ج٢، ص١٩٨
- (١٣) انظر "حافظ وشوقي" ص١٩٤ و٢٠٩-٢١٠
- (١٤) حياة حافظ إبراهيم ص١٠٥
- (١٥) ديوان حافظ إبراهيم ج١، ص٢٦٥
- (١٦) المرجع السابق ج٢، ص٢٢٥
- (١٧) المرجع نفسه ج١، ص١١٨
- (١٨) المرجع نفسه ج١، ص١٠٩
- (١٩) حافظ وشوقي (للصيرفي) ص٥٧
- (٢٠) ديوان حافظ إبراهيم ج١، ص١١٣

-
- (٢١) المرجع السابق ج٢، ص٨٧
- (٢٢) "هندنبرج" قائد ألماني شهير من قواد الحرب العالمية الأولى
- (٢٣) ديوان حافظ إبراهيم ج٢، ص٨٧
- (٢٤) المرجع السابق ج٢، ص٢١٨
- (٢٥) عبد الرحمن الراقعي، مصطفى كامل، (القاهرة - مكتبة النهضة المصرية - سنة ١٩٥٠م) ص٣٢٠ - ٣٣٠.
- (٢٦) الشوقيات ج١ ص٢٤٤.
- (٢٧) د. محمد صبري السوربوني، الشوقيات المجهولة (القاهرة - دار الكتب سنة ١٩٦٢) ص٥٢ - ٨٧، ٨٣، ٧٥، ٥٨.
- (٢٨) ديوان حافظ إبراهيم ج٢، ص٢٠
- (٢٩) المرجع السابق ج٢، ص٢٥
- (٣٠) المرجع نفسه ج٢، ص٢٦
- (٣١) الشوقيات ج١، ص١٧٣
- (٣٢) المرجع السابق ج١، ص٢٠٨
- (٣٣) ديوان حافظ إبراهيم ج٢، ص٣١
- (٣٤) المرجع السابق ج٢، ص٨٢
- (٣٥) المرجع نفسه ج١، ص٦٧
- (٣٦) المرجع نفسه ج٢، ص٥٦
- (٣٧) المرجع نفسه ج٢، ص١٠٥
- (٣٨) المرجع نفسه ج٢، ص١٠٦
- (٣٩) المرجع نفسه ج٢، ص١٠٨
- (٤٠) المرجع نفسه ج٢، ص٦٠ وانظر أيضا قصيدة "تحية العام الهجري الجديد" ج٢، ص٣٧

-
- (٤١) المرجع نفسه ج٢، ص٩٢
- (٤٢) روفائيل مسيحة، حافظ إبراهيم: الشاعر السياسي (القاهرة- مطبعة الاعتماد سنة ١٩٤٧م) ص٤٢
- (٤٣) المرجع السابق، ص٤٣
- (٤٤) المرجع نفسه ص٤٥
- (٤٥) ديوان حافظ إبراهيم ج٢، ص١١٨
- (٤٥) حياة حافظ إبراهيم ص١٩٢
- (٤٦) حافظ إبراهيم: الشاعر السياسي ص٧٢-٧٤
- (٤٧) ديوان حافظ إبراهيم ج١، ص٤٨
- (٤٨) المرجع السابق ج٢، ص٩٣
- (٤٩) المرجع نفسه ج٢، ص٨٦
- (٥٠) المرجع نفسه ج٢، ص٥٢
- (٥١) المرجع نفسه ج١، ص٢٦٨
- (٥٢) المرجع نفسه ج١، ص١٣٤
- (٥٣) المرجع نفسه ج١، ص٢٧٠
- (٥٤) المرجع نفسه ج١، ص١٣٩
- (٥٥) أبو العلاء المعري، اللزوميات ج٣، ص٢٢٣.
- (٥٦) ديوان حافظ إبراهيم ج٢، ص٦٧
- (٥٧) المرجع نفسه ج٢، ص٦٩

الفصل الخامس

ملاحم فنية بارزة في شعر حافظ إبراهيم

تفتحت ملكة حافظ في وقت بلغ فيه شعر البارودي درجة عالية من الإتقان، وصلت بينه وبين المرموقين من شعراء العصر العباسي، فضلا عما كان البارودي يتمتع به من منزلة طيبة في نفوس المصريين لرباطة جأشه وثباته على مبدئه في أحداث الثورة العراقية. فليس غريبا أن يتخذه حافظ وغيره من الشعراء الشباب، مثالا، يستلهمونه، ويسعون إلى بلوغ منزلته. يمتدحه حافظ فيقول له: ^(١)

أمير القوافي، إن لي مُستهامة بمدح ومَن لي فيك أن أبلغ المدى
أعزني لمديحك اليراع الذي به تحظ وأقرضني القريض المسددا
ومُر كل معنى فارسي بطاعتي وكل تفور منه أن يتوددا
وهبني من أنوار علمك لمعة على ضوئها أسرى وأقفو من اهتدى
وأربو على ذاك الفخور بقوله: (إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا)

ويبين لنا البيت الأخير، أن حافظا الذي كان يتمنى في صنعته شيئا من حظ البارودي، خطر بباله ما هو أسمي، فحدثته نفسه عن يوم يتفوق فيه على أبي الطيب. ولعل القافية هي التي هيأت له هذه الأمنية، التي قنع كثير من الشعراء خلال العصور السابقة بما هو أدنى منها درجات كثيرة، والتي يُعد التطلع إلى مثلها وهما. ولم لا يتمنى حافظ ذلك والبارودي قدوته ومثاله المحتذى، كان كثير الإعجاب بشعر المتبني والتطلع إلى مكاتنه، غير أن حياة البارودي الفارس والقائد، المليئة بالأحداث والمواقف مع تكوينه النفسي، كانا يؤهلانه لأن يحقق شيئا كثيرا مما يصبو إليه، بعكس حياة حافظ ومنهجه فما عرفناه عن حياته وشخصه ما كان ليتيح له أكثر من أن يكون تلميذا متفوقا بداخل مدرسة البارودي. وهكذا ظل يقفو خطواته وغيره من أعلام الشعر القدامى، ينهل من مواردهم، ويتمرس بمعارضتهم، ويتعرض في أثناء ذلك لسهام النقد من قبل دعاة التجديد، الذين علت أصواتهم تغض من التقليد وتدعو إلى

الإبداع وفق قيم ومعايير لا عهد للبارودي ولكثير من المحافظين بها، وهى قيم مستمدة مما طالعه أولئك المجددون فى الأدب الغربى إبداعا ونقدا.

حاول حافظ إبراهيم أن يدفع عن نفسه قالة السوء التى كانت تقض مضجعه، فراح يردد ما يقول دعاة التجديد عن غير بصارة، أو تهيو نفسى وفنى لهذا الإبداع الجديد، فنسمعه يخاطب الشعر متحسرا على حاله: (٢)

ضعت بين النهى وبين الخيال يا حكيم النفوس يا بن المعالى
ضعت فى الشرق بين قوم هجود لم يفيقوا وأمة مكسال
قد أذالك بين أنس وكأس وغرام وظبية أو غزال
ونسيب ومدحمة وهجاء ورثاء وفتنة وضلال
حملوك العناء من حب (ليلي) و(سليمي) ووقفة الأطلال
وبكاء على عزيز تولى ورسوم راحت بهن الليالى
وإذا ما سموا بقدرك يوما أسكنوك الرّحال فوق الجمال

وبعد أن يذكر حافظ الداء يحدد الدواء، فإذا هو ما يصف دعاة التجديد الذين رأوا فى الأدب الأوربي الغناء كل الغناء.

آن يا شعر أن نك قيوذا قيدتنا بها دُعاة المُحال
فارفعوا هذه الكمائم عنا ودعونا نشم ريح الشمال

لكن حافظا بما عرفنا من طباعه ومن عدم حرصه على ترقية ثقافته وإلقاح ملكته، لم يكن قادرا على نزع الكمائم عن روحه الشاعرة. صحيح أن ديوانه يخلو من وقفة مطمئنة على الأطلال، كما يخلو من النسيب والغزل لأسباب أوضحنها، لكنه يمتلئ بالمدائح والمراثي وشعر المناسبات وغير ذلك مما حض على تركه، ولا يكاد القارئ يقف على شئ من ملامح نفسه الحقيقية إلا فى شكواه ودعايته. ولولا أن رزق حافظ القدرة على تحسس طاقات الألفاظ واستخراجها فى تراكيب محكمة،

لركد هواء شعره ولفترت همة القارئ في متابعة مطولاته، التي تخلو مواطن كثيرة فيها من خيال طريف أو تصوير مبهر.

لقد كانت ريح الشمال ممثلة آنذاك فى الأدب الرومانسى الوافق من أوربا، وشتان بين ماترك حافظ وبين الإبداع الرومانسى روحا ولغة. والغريب من أمر حافظ أنه حين أتاحت له فرصة تنسّم هذه الريح الشمالية فى مهبها، ضيع الفرصة، واكتفى يوم زار فرنسا ومكث فيها شهرين بالتردد على أشهر المطاعم وعلب الليل، ولم تهف نفسه إلى زيارة معالمها التاريخية ومراكزها الثقافية والفنية. حتى إيطاليا التي رست فيها سفينته فى أثناء سفره، لم يفكر فى النزول إليها ورؤية شئ من فنونها التي أكثر من وصفها على الغيب^(٣). وهذا يدفعنا إلى المقارنة بينه وبين شوقى الذي تزود خلال إقامته بفرنسا ورحلاته فى أوربا. بما ظهرت آثاره جلية فى فنه.

. حافظ واحد من الشعراء المحافظين، الذين تحدثوا عن ضرورة التجديد وبشروا به، لكنهم لم ينجزوا شيئاً. كان مطران وشوقى أجدر المحافظين بممارسة الجديد لما نهلا من أدب الغرب وثقافته، لكن جديد مطران كان محدودا لا يتجاوز صوغ بعض تجاربه الذاتية المحدودة، وما أبدع من قصص شعرية ذات طابع رومانسى، وبقي مفهوم شوقى الجديد عن الشعر، حبيسا فى مقدمة ديوانه الأول الذى أصدره فى سنة ١٨٩٨م. فقد عرف الشعر كما يعرفه الرومانسيون الفرنسيون، وأثنى عليهم وذكر أنه أفنى نفسه فى قراءة أعمالهم، ومع ذلك لم يقف موقفهم من الكون الفسح واكتفى بلمس الطبيعة من ظاهرها بالوصف المتقن الذى يخلو من تأمل الرومانسى وعمق رؤيته وجدتها. ولولا مسرحه وتاريخياته وما حاكى به (لافوتتين) من قصص الحيوان، لكان إبداعه محصورا فى الإطار الذى حبس فيه حافظ ملكته.

وفى شعر حافظ علامات وملامح فنية بارزة، يهمننا الإشارة إليها والتنويه بها لما تكشف عنه وسائل صنعته. وقد اكتفيت بما أراه أهم هذه العلامات والملامح.

أولاً: الاستفادة من التراث الأدبي والتاريخ.

كان حافظ - كما يذكر معاصروه - من الرواة الحفظة، الذين أوتوا ذاكرة لا تقطع واعية. وأثر هذه الذاكرة واضح في كثير من شعره، إذ كانت كالبرق التي يمتح منها الألفاظ والعبارات والصور ويسلكها بمهارة فيما ينظم فتبدو كأنها من نتاج ملكته وثمار قريحته. ولانقفاً الآن من هذه الظاهرة موقفاً نقدياً كما وقف (المازني) في حياة الشاعر، يخصي عليه ما أخذه من الشعر القديم، بُغية النيل من شاعريته، وإنما نكتفي بالإشارة إليها بوصفها ملمحاً فنياً هاماً، صاحب الشاعر طوال رحلته الفنية، فضلاً عما تكشف عنه من مصادر ثقافته وأسلوبه في ممارسة صنعه، ومن كلفه بالشعر القديم. وفيما يلي نكتفي بعرض بعض أمثلتها في شعره.^(٤)

يلاحظ قارئ الشعر العربي القديم، المداوم على مطالعته، حين يقرأ شعر حافظ ونثره أن أبا العلاء المعري أكثر الشعراء القدامى تأثيراً في صنعه، فألفاظه ومعانيه وخياله، كل ذلك ينتثر في شعر حافظ ولا يقتصر وجوده على الموضع الواحد، كما هو شأن حافظ في تأثره بالآخرين. وقد تحدثنا في موضع سابق عن اهتمام حافظ بأبي العلاء، وعن ثنائه على (لزومياته) إلى حد أن وصفها بـ (ربيع الأرواح).

وقد اتخذ تأثر حافظ بـ (المعري) أشكالاً مختلفة، فنراه يعارض مرثيته الشهيرة في رثاء الفقيه الحنفي التي مطلعها:^(٥)

غيرُ مُجدٍ في ملتي واعتقادي نوحُ بكٍ ولا ترنمُ شادٍ

ينسج على منوالها مرثيته في سليمان أباظة:^(٦)

أي هذا الثرى إلام التماذي بعد هذا أنت غرثانُ صادي؟

والمعارضة تجر بطبيعتها إلى ملاحظة النموذج والتأثر به أو النقل عنه، وهكذا راح حافظ يستمد بعض قوافي مرثيته من أبي العلاء. ولم يكتب باللفظ فنراه يخلق بخيال المعري ويصدر عن تأمله في مثل قوله يخاطب التراب:

لست أدعوك بالتراب ولكن بقسود الملاح والأجساد
بحدود الحسان بالأعين النج لي بتلك القلوب والأكبَادِ

فما يعرضه حافظ علينا في البيتين ليس خلاصة تأمله، وإنما هو تفريع وتفصيل لرؤية أبي العلاء التي عبر عنها باختصار في الشطر الثاني من قوله: (٧)

خفف الوطء ما أظن أديم الأر ض إلا من هذه الأجسادِ

وفي مواضع أخرى من ديوانه، يتبنى أفكار أبي العلاء أو يشير إليها، كقوله للعرب: (٨)

إن دام ما نحن فيه من مدابرة وفتنة بين أجناس وأديان
رأيت رأى (المعري) حين أرهقه ما حلّ بالناس من بغي وعدوان
لا تطهر الأرض من رجس ومن درن حتى يعاودها (نوح) بطوفان

يشير بذلك إلى قول أبي العلاء: (٩)

والأرض للطوفان مشتاقة لعلها من درن تغسل

ولا يكتفى حافظ بالألفاظ يستمدّها وبالخيال يستعيره، وبالأفكار يعتنقها أو يشير إليها، فنراه وهو يرثى (تولستوى)، يتطرق إلى جوانب من سيرة شيخ (المعري)، زهده، حكمته، ضيقه بالناس وتجنّيهم عليه. (١٠)

و(أبو تمام) من الشعراء القدامى الذين التفت حافظ إليهم وتأثر بهم. يكفي أن نجد لقصيدة أبي تمام الشهيرة في مدح المعتصم، تأثيرا واضحا في أربعة أعمال لحافظ، يبدأ بالصوغ في وزنها وقافيتها، ويتدرج إلى نقل بعض ألفاظها وعباراتها. يصف الشاعر في حديثه عن وطنية الشيخ (على يوسف) جرأة قلمه في الحق فيقول: (١١)

له صريرٌ إذا جد النزال به
فلو رآه (ابن أوس) ما قرأت له:
يُنسى الكُمة صليل البيضِ والقُضبِ
(السيف أصدق أنباءً من الكُتب)

وفي القصيدة أبيات أسكن حافظ قوافيها من ألفاظ أبي تمام ما وجده لها
أنسب، كقوله يصف صحيفة (المؤيد) التي كان الشيخ على يوسف يصدرها:

ألم تكن لبني (مصر) وقد دهموا من ساسة الغربِ مثل (المعقلِ الأشبِ)

وكقوله يصف جهودها في الرد على (هانوتو):

أَيُّ الصحائف في القطرين قد وَسِعَتْ رَدَّ (الإمام) مزيلِ (الشكِّ والريبِ)

وفي قصائد أخرى صاغها حافظ في وزن وقافية مدحة (أبي تمام)، يحط على
قوافي هذه المدحة يتتقى منها قرارات لبعض أبياته، فنسمعه في إحداها يقول: (١٢)

لاتلجثوا في العلا إلا إلى هممٍ وثابةٍ لاتبالي (همّة النوبِ)

كما نسمعه في أخرى يقول لسلطان (مراكش) الذي استقدم (سلطانة) أشهر
مغنيات مصر لتشارك في بعض احتفالاته: (١٣)

فاحذر على التخت أن يسرى الخرابُ لهُ فتختُ سلطنةٍ (أعدى من الحربِ)

وفي شعر حافظ تأثر واضح بشعراء آخرين مثل لبيد وبشار والفرزدق وغيرهم،
ينحصر بداخل الإطار الفني الذي أوضحنه لتأثره بالمعري وأبي تمام، وهو إطار ضيق
لايكاد يتجاوز نقل اللفظ، أو الرؤية إلى التصرف الحر فيما نقل وأخذ. ولانكاد نعثر
على تصرف حسن لحافظ في موروته الشعري، في غير الأبيات التالية التي عاتب بها
صديقا على تقصيره في مودته، وحيث يقول: (١٤)

أبيتُ أسألُ نفسي: كيف قاطعني
فما مطوقةٌ - قد نالها شركٌ
هذا الصديق؟ ومالي عنه مُصْطَبِرُ
عند الغروبِ إليه ساقها القَدْرُ

باتت تجاهد همًا وهي آيسة"
وبات زغلوها في وكرها فزعًا
يحفزُ الخوفُ أحشاه وتزعجته
منى بأسوأ حالًا حين قاطعنى
من النجاةِ وجنحُ الليلِ معتكرُ
مروءًا لرجوعِ الأمِ ينتظرُ
إذا سرت نسمةٌ أو وسوس الشجرُ
هذا الصديقُ فهلاً كان يدكرُ

فالأبيات صدى قوى لتأثر حافظ بالوصف الجيد، الذى صور فيه المجنون هلعه ساعة علم برحيل ليلي، فقال: (١٥)

كان القلبَ ليلةً قيل يُغدى
قطاةٌ عزها شركٌ فبات
لها فرخانٍ قد تركا بوكرٍ
بليلى العامريةِ أو يُراحُ
تعالجهُ وقد علق الجناحُ
وعشهما تصفقه الرياحُ

لكن فى أبيات حافظ تصرفاً حسناً فى بعض ملامح صورة المجنون، إذ أبت شاعريته إلا إثراء تفاصيل الوصف القديم بعناصر تسهم فى تضخيم بعض الجوانب النفسية فى الصورة القديمة، فتقوى بالتالى الإيجاء العام لها، وإن كانت صورة المجنون على قصرها واكتنازها واختصار أطرافها، ترضى القارئ الذواق الذى تكفيه الإشارة واللمحة، لأنه يحس ما لهما من دلالات وإيجاءات وما وراءهما من وصف طويل مختصر.

وأما ثقافة حافظ التاريخية، فضحلة لو أردنا أن ندلل عليها من خلال ماترك من شعر. لم يُدع فى التاريخ المصرى القديم سوى قصيدة "مصر تتحدث عن نفسها"، التى يشيد فيها بـمضى مصر ويتغنى بأمجادها التى تشيع بين الناس على غرار مايجرى عادة فى المحافل. ولم يقف بنا متأملاً صفحة من صفحات هذا التاريخ الطويل على نحو ما صنع شوقى فى "كبار الحوادث فى وادى النيل"، لتتضح لنا دقة استيعابه وخصوصية تناوله.

ولم يبدع حافظ في التاريخ الإسلامى سوى (العمرية)، التى تناول فيها ملامح من حياة أمير المؤمنين (عمر بن الخطاب). ولا تظهر فى شعره آثار تدل على أنه استطاع أن يوظف التاريخ توظيفاً فنياً على نحو ما فعل شوقي، الذى كان يعود إلى التاريخ بين حين وآخر، يستمد من أعلامه وأحداثه ومواقف رجاله، ما يلحق به أفكاره ويزود به صورته. لانكاد نعثر فى شعر حافظ على غير أثار قليلة لاستفادته من التاريخ، أهمها إشارته إلى موقف نساء (قرطاجنة) فى حربها مع الرومان، إذ راح يحفز به همم المصريين إلى التضحية والبذل من أجل إنفاذ مشروع الجامعة وكذلك إشارته فى القصيدة نفسها إلى قصة القائد الفرنسى (برثران).^(١٦)

لقد كان شوقي يجل التاريخ ويحتفى به، ويرى أن الشعر ابن أبوين: "التاريخ والطبيعة"^(١٧)، فأعلى من شأنه ودخل إلى محرابه، وأكب على صفحاته يتملاًها ويستعينها فى صياغته. أليس هو القائل:^(١٨)

غالى بالتاريخ واجعل صحفه
من كتاب الله فى الإجلال قابا

والقائل أيضاً:^(١٩)

وأنا المحتفى بتاريخ مصر
من يصن مجد قومه صان عرضا

أما حافظ فكانت ثقافته التاريخية الضحلة مظهراً آخر من مظاهر حياته المضطربة وطبيعته الشخصية والنفسية، التى كان قوامها الفوضى وعدم الالتزام بالمنهج واضح محدد فى الحياة يعتمد الانضباط والتوازن فى كل شئ. وكان من آثار هذا المنهج أن أدار حافظ ظهره لأوعية العلم لا يكاد يلوى على واحد منها وهى تحيط به فى دار الكتب، وأن أطلق ساقيه إلى حيث يجتمع الظرفاء لا يكاد يتخلف عنهم لقراءة أو اطلاع.

ثانياً: تأثيره بالقرآن الكريم

فى شعر حافظ شواهد كثيرة على تأثيره بالقرآن الكريم، فمن توظيف لقصصه وتمثل بما جاء فيها، إلى استعانة بتعبيراته وألفاظه، يضع ما يأخذه بلطف فى نسيجه الشعرى فلايكاد يبين. والإفادة من القرآن الكريم قديمة فى الأدب العربى نثره وشعره، وهى عند حافظ ملمح بارز من ملامح صنعته الشعرية، يدل على حسن تأتبه ومهارته فى الاقتباس.

فمن توظيفه الجيد لقصص القرآن الكريم قوله يهنئ (رفعت بك)، لترقيته وكيلاً لمصلحة السجون: (٢٠)

أهنيك أم أشكو فراقك قبائلاً أيا ليتنى كنتُ السجين المصفداً
فلو كنت فى عهد (ابن يعقوب) لم يقله لصاحبه: اذكرنى ولا تنسى غداً

يقصد أن السجناء يتمنون بقاءهم فى السجن بجوار هذا الرجل لحسن أخلاقه، ولو أنه كان القائم على سجن يوسف عليه السلام، لآثر البقاء فى السجن إلى جواره ولم يقل لصاحبه الذى نجا (اذكرنى عند ربك) كما حكى الله تعالى ذلك فى سورة يوسف. وهو توظيف جيد أغنى الشاعر عن كناية أخرى يخرعها ليدلل بها على لطف أخلاق هذا الرجل.

ومن قصة موسى عليه السلام مع فرعون، يقبس بعض العبارات ويضعها فى مواضعها المناسبة من شعره، حيث يتشوقها المعنى ويسكن إليها السياق، فنسمعه يذود عن شوقى لعدم إنشاده الشعر ولاشعاعته بآخرين، فيقول: (٢١)

يعيون (شوقى) أن يُرى غير منشدٍ وماذاك عن عى به أو ترفع
وما كان عاباً أن يجى بمنشدٍ لآياته أو أن يجى بمسمع
فهذا (كليم الله) قد جاء قبله بـ(هارون) ما يأمره بالوحى يصدع

وحافظ يستمد حجته وبرهانه مما حكاه الله تعالى من أمر موسى ساعة كلفه بحمل الرسالة إلى فرعون، قال تعالى (اذهب إلى فرعون إنه طغى قال رب أشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي واجعل لي وزيرا من أهلي هارون أخى اشدد به أزرى وأشركه في أمري).^(٢٢) ويقول للإنجليز الذين ظنوا أن ساحة النضال الوطنى قد خلت بموت سعد زغلول:^(٢٣)

لاتقولوا خلا العرينُ ففيه ألفُ ليثٍ إذا العرينُ أهابا
(فاجمعوا كيدكم) وروعوا حماها إن عند العرينِ أسداً غضابا

فيستمد بعض عبارة البيت الثانى من قوله تعالى فى سورة طه، يحكى موقف سحرة فرعون من موسى عليه السلام (فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى. قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبنا بطريقتكم المثلى فأجمعوا كيدكم ثم اتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى)^(٢٤)

ونراه يتأثر بعبارة أخرى فى السورة نفسها، يستفيد بها فى وصف بلاغة البارودى وتأثير شعره فى سامعيه، يقول له:^(٢٥)

وجئتَ بأبياتٍ من الشعرِ فصّلتُ إذا ما تلّوها (ألقيَ الناسُ سجّدا)

فعبارة الشطر الثانى مستمدة من قوله تعالى يصف حال السحرة بعد بُطلان سحرهم أمام موسى عليه السلام (فألقيَ السحرة سجّدا قالوا آمنا برب هارون وموسى)

وفى القصيدة نفسها، يستمد الشاعر تعبيرا قرانيا آخر لكنه من سورة (يوسف)، يستخدمه فى موقف مماثل لما استخدم فيه بالنص القرانى، حيث يصف للبارودى ثودد محبوبته ومحاولتها إغواءه مع نزوع نفسه إليها:

فمالت لتغرينى ومالها الهوى فحدثتُ نفسى والضمير ترددا

فهو يعلل سقوط الطائرة في ضوء الآيتين الكريمتين، وفي ضوءهما أيضا راح
يصف قذائف الأسطول العثماني بقوله: (٣٠)

ما نجوم الرجم من أبراجها إثرَ عفريتٍ من الجن ترمى
من مراميها بأنكى موقعا لا ولا أقوى مراسسا وغراما

ومن لطيف استعانهه بالقرآن الكريم، قوله بعد صدور الدستور العثماني يحث
على محاسبة كل من أجرم في حق الشعب: (٣١)

ولّى زمان المعتدين كما انطوت حيل الشيوخ وإمرة الخصيان
ووضع الكتاب وسبق جمعهم إلى يوم الحساب وموقف الإذعان

فقد أسعفته ذاكرته وهدته قريحته إلى الاستفادة من قوله تعالى يصف يوم
الحساب (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه.... الآية) (٣٢)

وفي القصيدة نفسها، يشير إلى ما كان يضمه والى الحجاز والشريف من
عصيان السلطان العثماني والانتقاض عليه، ثم يلتفت إليهما مستخفا:

تالله لو جئتما رمل النقا ونزلتما بمواطن العقبان
وغرستما أرض الحجاز أسنةً وأسَلتُما بحراً من النيران
لدها كُما ورماكما وذراكما ماحى الحصون وماسح البلدان
إن تأتيا طوعا وإلا فأتيا كرها بلا حولٍ ولا سلطان

فهو يستفيد في المكان المناسب بقوله تعالى في سورة فصلت (ثم استوى إلى
السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين) (٣٣)

لقد وجد حافظ القرآن الكريم نبعاً ثاراً فأكثر من وروده والإفادة منه. ولا شك
في أن استدعاء عباراته وصوره وأخباره لما يلائمها في السياق الشعري، دليل على البديهة
الحاضرة والذاكرة المواتية، وهما معا من أهم أسباب نجاح الشاعر في صنعه.

أما استفادته بالسنة النبوية، فلا تكاد نعثر في شعره على غير موضعين لها،
الأول: مواساته الإمام محمد عبده فيما تعرض له من محاولة لتشويه سمعته، ذلك أن
أعداءه نشروا بإحدى الصحف صورته وقد أحاطوها بفاحش القول، فنهض الشاعر
يخفف ما بنفس الإمام من ألم: (٣٤)

لا تجزَ عنّ فلست أول ماجدٍ كذبتْ عليه صحائفُ الفجارِ
رسموا بذاتك للنواظر جنّةً مخوفةً بمكاره الأَشعارِ

وكان حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: "حفت الجنة بالمكاره... الخ"
أحسن تعليل ومواساة يستل بها الشاعر ما يصدر الرجل من أحزان. وأما الثاني: فقوله
يصف فساد الصحف في عصره: (٣٥)

وماذا في صحائفكم سوى التمويه والكنذب؟
حصائدُ ألسنٍ جرّتْ إلى الويلات... والحربِ

فقد ورد في حديث معاذ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (وهل يكب
الناس على وجوههم في النار إلا حصائد ألسنتهم).

ثالثاً: الاستدعاء في شعر حافظ

في شعر حافظ ظاهرة أسلوبية قد لا يتبها المتلقى إليها، لأنها وقعت على فترات
زمنية متباعدة من إبداعه، ولأنها وردت في قصائد متباعدة من ديوانه. خلاصتها أن
الشاعر قد يوفق إلى صورة فنية تروقه، أو إلى تعبير ينزل من نفسه منزلاً حسناً، فيظل
يكرر هذه الصورة وهذا التعبير ويستدعيهما من ذاكرته طوال مشواره الفني، كلما
كان المقام ملائماً لهما.

من أمثلة هذه الظاهرة في شعره، تعبيره دوماً عن مكابدة الشاكي أو الباكي بأن زفرات صدره تبلغ من الحرارة درجة توجب (فحمة الليل). استعمل حافظ هذا التعبير لأول مرة حين كان بالسودان في مطلع حياته الأدبية، وظل يكرره لمدة تزيد عن عشرين عاماً لا يتحول عنه إلى غيره، وكأنه فقد القدرة على ابتكار صورة جديدة. أرسل وهو بالسودان يعاتب صديقه محمد البابلي: (٣٦)

كيف تنسى يا بابلي غريباً؟ بات بين الظنون والأوهام؟
وحزينا إذا تنفّس عادات (فحمة الليل) جمرة من ضرام؟

أعجب حافظ بهذه الصورة التي بلغت حداً بعيداً من المبالغة فراح يكررها ويستدعيها، فنسمعه وهو يحث على رعاية الأيتام يصف بؤس إحدى الفتيات بقوله: (٣٧)

شبهاً أرى أم ذاك طيف خيال لا، بل فتاة بالعراء حياي
أمت بمدرجة الخطوب فمالها راع هناك وما لها من وال
حسرى تكاد تُعيد (فحمة ليلها) ناراً بأنات ذكّين طوال

ونسמעه يقول في تأين إسماعيل صبرى: (٣٨)

وكم لك شكوى هوى أو أسى لها نفثات تذيب الحجر
هتفت بها مرة في الهجير فكاد يدب إليك الشجر
وكم كنت تشعل (فحم الدجى) بأنفاس صبّ طويل السهر

وتتضح شدة مبالغة حافظ في الاحتفاظ بتعبيره السابق وتكراره، حين نضم إلى أقواله السابقة، قوله يصف ضراوة حريق ميت غمر: (٣٩)

أين طوفان صاحب الفلك بروى هذه النار فهي تشكو الأوارا
أشعلت (فحمة الدياجى) فباتت تملأ الأرض والسماء شرارا

فهو لا يفرّق في الدرجة بين حرارة أنفاس الشجى وأناته وهي حرارة مجازية،
وبين نيران الحريق الحقيقية، فكلاهما قادرة على أن تحل محل الأخرى في تلك الصورة
التي تعلق بها وراح يكررها.

ومن التعبيرات التي اعتاد حافظ على تكرارها، ما نجده في شعره الذي يصف
فيه قوة العثمانيين ومضاء عزيمتهم. يقول: (٤٠)

في كل حاضرةٍ لهم غزواً ففتح فاتصنار
ضربوا الزمان بسوط عز تهيم فلان لهم، فدار

فهو يكرر عبارة البيت الثاني في قوله عن أسطولهم: (٤١)

حيّ يامشرق أسطول الألى ضربوا الدهر بسوطٍ فاستقاما

ومن تعبيراته المكرورة ما نجده في شعره الذي يرثى به رجال القضاء، فهو يقول
لقاسم أمين: (٤٢)

لهفى عليك قضيتَ مُرتجلاً لم تشك، لم تستوص، لم تقل
غلّ القضاء يد القضاء فذا يكي عليك، وذاك في جدل

ويقول في رثاء على أبو الفتوح مكرراً ما انتهى إليه في القول السابق: (٤٣)

قد مات نابغةً القضا و غاب بدر الحفل
وعدا القضاء على القضا فصابه في المقتل

وهكذا يظل التعبير الذي يروقه نصب عينيه، ومحفوراً في ذاكرته يسترده متى
يشاء، وعلى الأصح متى تجدد الحديث في المضمون نفسه، وكأن المضمون يستدعى
عبارته وصورته من ذاكرة الشاعر.

وهذه الظاهرة الأسلوبية تشيع عند شوقي أكثر منها عند حافظ، فنرى أمير
الشعراء يستدعى من ذاكرته العبارة والصورة مرات كثيرة بلغت في بعض الحالات

انتهى عشرة مرة ، وكأنه فقد القدرة على الابتكار وعلى تجديد ألوان نسيجه الشعري. (٤٤)

رابعاً: بروز العنصر القصصى فى شعره

بروز العنصر القصصى من الملامح الهامة فى شعر حافظ، وهو يثبت أن الشاعر لم يكن ضحل الخيال على النحو الذى يصفه النقاد. وهذا العنصر فى صنعته لم يؤله الدارسون عناية خاصة، بل لم يلتفتوا إليه أصلاً وهم يتحدثون عن خصائصه.

لقد برع حافظ فى اختراع إطار قصصى لكثير من قصائده، مكنه من طرح أفكاره فى أمور شتى بصورة غير مباشرة، وكان هذا الإطار القصصى بفضل تحريكه خيال السامع والقارئ أقدر على جذب اهتمامهما من الأسلوب المباشر فى طرح الفكر والتعبير عن المعنى، ومن أسلوب البث الذاتى، والأسلوب الخطابى الملىء بالحث والوعظ.

ومن المجالات الهامة التى توسل حافظ فيها بالأسلوب القصصى، لطرق القلوب وتهيئة النفوس، مجال التكافل الاجتماعى، فنراه فى مستهل قصائده يجيد التمهيد لطرح دعوته، بحكاية يرويها تهز نفوس السامعين وتستدر عطفهم، فإذا بالشحيح تسمع نفسه وتمتد بالعطاء يده.

فى حفل أقامته (جمعية رعاية الأطفال)، نهض حافظ وشرع يروى للحاضرين إحدى حكاياته عارضا أول مشاهدتها: (٤٥)

شبحاً أرى أم ذاك طيفُ خيالٍ؟	لا، بل فتاة بالعرابِ حِبالِ
أمست بمدرجة الخطوب فمالها	راعٍ هناك وما لها من والٍ
حسرى، تكاد تُعيد فحمة ليلها	نارا بأناتٍ ذكِينِ طِوالِ
ماخطبُها، عجباً، وما خطبى بها	مالى أشاطرها الوجيعةً مالى؟

وبعد عرضه هذا المشهد المؤلم لهذه المرأة البائسة، وتهيئة نفوس السامعين للحنو عليها، يستكمل الشاعر حكايته جاعلا نفسه طرفا فيها:

دانيتها ولصوتها في مسمعي	وقع النبال عطفن إتر نبال
وسألتها: مَنْ أنتِ؟ قالت: حاملٌ	لم تدر طعم الغمض منذ ليالٍ
قد مات والدها وماتت أمها	ومضى الحمام بعمّها والخال
وإلى هنا حبس الحياء لسانها	وجرى البكاء بدمعها الهطال
فعلمت ما تخفى الفتاة وإنما	يحنو على أمثالها أمثال

ويعمد حافظ إلى تحريك عواطف السامعين بدرجة أقوى للأخذ بيد هذه المرأة، فنجد حريصا على وصفها بـ (الجمال)، يهدف بذلك إلى أمرين:

(الأول) شدة جذب النفوس وتحريك نخوتها، إذ إن النفوس تنجذب بفطرتها إلى كل جميل حسن الخلق، ثم إنها ليعز عليها أن ترى هذا الجميل الحسن مبتذلا ممتنها، وليس تعاطفها مع القبيح في هذه الحالة كتعاطفها مع الجميل سواء بسواء. وقد أصاب حافظ حيث يقول تعليقا على ما ذكر من جمال هذه المرأة الممتهن تحت وطأة الفقر والمرض:

لاشئ أفعل في النفوس كقامة	هيفاء روعها الأسى بهزال
أو غادة كانت تُريك إذا بدت	شمس النهار فأصبحت كالآل

وأما (الثاني) فهو أن هذه المرأة لو تركت على حالتها من العوز، عرضة لأن يصل إليها نخبثاء الطوية مستغلين بؤسها وحاجتها، فهي صيد سهل مستهدف. يصف الشاعر للسامعين في حكايته جمال المرأة المثقل بالهموم فيقول:

ووقفت أنظرها، كأنى عابد	في هيكل يرنو إلى تمثال
ورأيت آيات الجمال تكفلت	بزو الهن فوادح الأتقال

ويعضى حافظ مستكملاً قصته مع هذه المرأة، كيف أخذ بيدها وانتشلها مما كانت غارقة فيه من هموم النفس وأوصاب الحياة، وكيف أوصلها إلى البر الآمن الذي تحظى عنده بالحب والرعاية، إلى (دار رعاية الأطفال):

قلت انهضى، قالت: أينهضُ ميّتٌ
فحملتُ هيكل عظمها وكأنتى
وظفقتُ أنتهبُ الخطا متيمما
أمشى وأحمل بائسين: فطارقٌ
أبكيهما وكأئنا أنا ثالثٌ
من قبره ويسير شَنُّ بالى
حُمَلْتُ حين حملتُ عُوْدَ خِلالِ
بالليل (دار رعاية الأطفال)
بابَ الحياة، ومؤذنٌ بزوالِ
لهما من الإشفاق والإعوالِ

وبوصول حافظ إلى (دار رعاية الأطفال) تنتهى حكايته، ويصبح ميسورا عليه أن يحدث الحاضرين عما تقدمه هذه الدار من أعمال إنسانية جليلة، تستوجب مساعدتها، فيطيل الحديث، ثم يختم قصيدته بأبيات قلائل يقول لهم فيها:

إنى أرى فقراءكم فى حاجةٍ
فتسابقوا الخيراتِ فهى أمامكم
والمحسنون لهم على إحسانهم
لو تعلمون، لقلائلِ فعّالِ
ميدانُ سبْقٍ للجوادِ النالِ
يوم الإثابة عشرةُ الأمثالِ

ولو لم يتوجه حافظ إلى الناس بهذه الدعوة لكانت مفهومة من خلال قصته التى سردها. ولو أنه لم يصطنع هذه الحكاية وقصر قصيدته على الدعوة إلى البر والحث على العطاء، لكانت عملاً مكروراً، لأن الموضوع ضيق وليس فيه متسع لخيال الشعراء.

وفى حفل أقامته (الجمعية الخيرية الإسلامية)، يقف الشاعر منشداً، فلا يذكر على لسانه فى مستهل حديثه شيئاً من خدماتها، وإنما يلجأ إلى الحكاية، أسلوبه المفضل يجسد من خلالها أمام أعين السامعين رسالة هذه الجمعية ونبل مقاصدها. وقد

هداه خياله إلى أن يُوقف صنيعه من صنائع هذه الجمعية يحكى للناس كيف تناولته وهو طفل بائس فكفلته وتعهدته حتى اكتمل بنيانا وعقلا: (٤٦)

قضيتُ عهدَ حدائتي	ما بين ذلّ وَاغترابُ
لم يُغن عني بين مشـ	رقها ومغربها اضطرابُ
صَفرت يدي فخوى لها	رأسى وجوفى والوطابُ
وأنا ابنِ عشرٍ ليس في	طوقى مكافحة الصّعبُ
لم يبقَ من أهلى سوى	ذِكْرٌ تناساه الصحابُ
أمشى يرتحنى الأسى	والبؤسُ ترنيح الشرابُ
فلكم ظلّلتُ على طوى	يومى وبتّ على تبابُ
والجوع فرّاسٌ لبه	ظفرٌ يصولُ به ونابُ
فكأنه فى مهجتي	نصلُّ تغلغل للنصابُ
وعلى طمرٌ لو هفتُ	ريح الشمال به لذابُ
فخروقه ومصائبى	فى العد يخطئها الحسابُ

وظلت حال الصبى كما يروى على ماهى عليه من جوع وتشرد، إلى أن تلقفته (الجمعية الخيرية الإسلامية)، فجعلت منه مواطنا صالحا. ولاشك فى أن هذا حُسن تأتٍ من الشاعر لإقناع الناس بأهمية هذه المؤسسات الخيرية. وهو أسلوب أفضل من أسلوب الخطابة والوعظ الذى اعتاده الأدباء فى طرق هذا الموضوع، فالإطار القصصى أخف وقعا والرسالة التى تُبث فيه أيسر إلى النفوس مسربا وأشد فعلا. وفى موضع ثالث يريد حافظ حث الناس على إعانة ملاجئ الأطفال، فينسج قصة طريفة تُعد واحدة من شطحات خياله، يبين من خلالها عُقبى هذا العمل الصالح وما يظفر به المحسنون من رعاية الله وحفظه. يبدأ حافظ قصيدته بوصف القطار، ثم يأخذ فى وصف حادث وقع أمام عينيه، ذلك أن راكبا هوى من قطار سريع بينما هو يعبر أحد الجسور، فتردى فى لجة النهر وصار موته محققا، فالرمية شديدة، والهوى سحيقة،

والليل داج، والنهر طام... الخ. لكن رجلا شجاعا ممن شهدوا الحادث، سرعان ما ألقى بنفسه وانتشل هذا الغارق، بين ذهول الناس وإعجابهم. ولندع الشاعر يكمل حكاية هذا الرجل بعد سقوطه في غمرة الماء لنعلم ماخفى من أمره: (٤٧)

وإذا سابحٌ قد انقض في الماء	ء انقضاض العُقاب فوق الحَمَامِ
غاص في لجة الحتوف بعزمٍ	لم يُعوّد مواقف.. الإحجامِ
غاب فيها وعاد يحمل جسما	سلّة من يد الهلاك اللّزامِ
كافح الموج، صارع الهول، أبلى	كبلاء المهند الصمصامِ
وانثنى راجعا إلى شاطئ النهـ	ر رجوع الكميّ غبّ اغتنامِ
وقف الناس ذاهلين وصاحوا	تلك إحدى عجائب الأيامِ
أبجاة من القطار، من الجسـ	ر، من النهر، جلّ رب الأنام؟؟

وليست نجاة هذا الراكب واحدة من عجائب الأيام فقط، وإنما هي معجزة راح القاص بما يعلم من أسرار يبين سبب حدوثها، ويرد على تساؤل الناس ودهشتهم لوقوعها. وفي الأبيات التالية التي يكشف فيها عن سر هذه المعجزة تبرز غايته التي قصدها وراح يمهد نفوس الناس بهذه القصة الطريفة لها. يقول:

وإذا صيحةٌ علت من فتاةٍ	برزت من صفوف ذاك الزحامِ
وقفت موقف الخطيب ونادت	تلك عُقبى رعاية الأيتامِ
بسطت تحته أكفّا تلقّتـ	ه وحاطته رغم أنف الحِمَامِ
دعوة البائس المعذبِ سورٌ	يدفع الشر عن حياض الكرامِ
إن هذا الكريم قد صان عرضي	وحماني من عاديّات السّقامِ
عال طفلي وعالني وحباني	بكسَاءٍ وبِدرةٍ وطعامِ

..... الخ

ويوم وقف حافظ يحض المصريين على التبرع لإنشاء الجامعة، أراد أن يعرفهم أن حب الأوطان لا يقتصر على النوايا الطيبة والشعور الصادق والقول الحسن، فأسغفه خياله للتعبير عن هذا المضمون بقصة الكلب الوفى مع صاحبه الشحيح. فالكلب يتضور جوعاً ويشرف على الهلاك، وصاحبه إلى جواره، تذرف عليه عينه ولا تسمح له نفسه برغيف مما تقبض يمينه: (٤٨)

سمعتُ أن أمراً قد كان يألُفه	كلبٌ فعاشا على الإخلاص واصطحبا
فمر يوماً به والجوع ينهبه	نهباً فلم يُبق إلا الجلد والعصبا
فظل ييكي عليه حين أبصره	يزول ضعفاً ويقضى نجبهُ سغباً
ييكي عليه وفي يمناهُ أرغفةُ	لوشامها جائعٌ من فرسخٍ وثباً
فقال قوم وقد رقوا لذي ألمٍ	ييكي، وذى ألمٍ يستقبل العطباً
ماخطبُ ذا الكلبِ؟ قال: الجوعُ يخطفهُ	منى وينشبُ فيه التاب مغتصباً
قالوا وقد أبصروا الرغفانَ زاهيةً:	هذا الدواءُ فهل عاجتهُ فأبى؟!
أجابهم ودواعى الشح قد ضربتُ	بين الصديقين من قرط القلى حُجباً:
لذلك الحد لم تبلغ مودتنا	أما كفى أن يرانى اليوم متحبباً؟
هذى دموى على الخدين جاريةُ	حزنا وهذا فؤادى يرتعى لهباً

وبعد أن صور الشاعر فى حكايته هذه الخلة الزائفة، توجه إلى المصريين قائلاً:

أقسمت بالله إن كانت مودتنا	كصاحب الكلب ساء الأمر مُنقلباً
أعيذكم أن تكونوا مثله فنرى	منكم بكاءً ولأنلقى لكم دأباً
إن تقرضوا الله فى أوطانكم فلکم	أجرُ المجاهد، طوبى للذى اكتبأ

لقد تميز حافظ بهذا النهج القصصى. كان يراه وسيلة فعالة فى شحذ النفوس وحفز الهمم، فراح يطورها ويكررها. ولم يقتصر لجوؤه إلى هذا الأسلوب على شعره الاجتماعى الذى يدعو فيه إلى التكافل والتراحم، وإنما تعدى ذلك إلى شعره القومى،

فراه وقد أراد التغنى بأبجد مصر وسوريا يتجنب الطرح المباشر، ويحدثنا عن روضة معطار أرسلت أريجها فقصدها يروح عن نفسه، فكانت هذه الروضة مسرحا لحكاية راح يث من خلالها هذا المضمون: (٤٩)

زرته مؤهنا وفي طي نفسي	ذلة الصب وانكسار اليتامى
وتنقلت في خمائلها الخض	ريمينا ويسرة وأماما
فإذا زهرتان في ذلك الرو	ض تيسان تحت ريح الخزامى
جاءتا تخطران والنجم ساه	وعيون الأزهار تبغى المناما
جازتا موضعي فهب نسيم	هاج منى الأسى وأذكى الهياما
فترسمت منهما أثر الخط	و وخافت في المسير احتشاما
وتسمعت علني أطفئ الشو	ق وأروى من الفؤاد الأواما
فإذا لهجتان من لهجات الشر	ق قد شاقتا فؤادي فهاما
تلك سورية تفيض بيانا	تلك مصرية تسيل انسجاما

ومن خلال الحوار الذي سمعه الشاعر، ذكر الكثير من مفاخر القطرين والأواصر التي تجمع بينهما، ولم يكن ميسورا له التنويه بها واحدة تلو الأخرى دون إملال. ولنسمعه يكمل حكايته التي رسم مشاهدتها وأدار حوارها:

مالتا نحو دوحة ترسل الأغ	صان واختارتا لذيها مقاما
ثم ألفت قناعها بنت مصر	وأماطت بنت الشام اللثاما
فتوهمت أن قد انفلق البد	روقد كنت أنكر الأوهاما
فتواريت ثم علقت أنفا	سبي ما اسطعت وارتديت الظلاما
ظنتا ذلك المكان خلاء	لا رقيباً يخشى ولا نماما
فجرى فيه ما جرى من حديث	كان بردا على الحشا وسلاما

حين قالت لأختها بنت مصر:
صدق الشاعر الذي قال فيكم
ركبوا البحر، جاوزوا القطب، فاقوا
يمتطون الخطوب في طلب العير
فانبرت ظبية الشام وقالت:
أنتم الأسبقون في كل مرمى
إنما الشام والكتانة صنوا
أمكم أمنا وقد أرضعتنا
قد نزلنا جواركم فحمدنا
وحللنا في أرضكم فأصبنا
وشربنا من نيلكم ففسينا
وقبسنا من نوركم فكتبنا
وتلوننا آيات (شوقى وصبرى)
..... الخ.

فأشارت فتاة مصر وقالت:
أنتم الناس قدرة ومضاء
أطلعت أرضكم على كل أفق
تركب الهول لاتفادي، وتمشى
قد سمعنا (خليلكم) فسمعنا
وطمعنا في شأوه فقعدنا

إنكم أمة أبت أن تضامنا
كلماتٍ نبهن منا النياما:
موقع النيرين، خاضوا الظلاما
ش ويرون للنضال السهاما
بعض هذا، فقد رفعت الشاما
قد بلغت من كل شيء مراما
ن رغم الخطوب عاشا لزاما
من هواها ونحن نأبى الفطاما^(٥٠)
منكم الود والندى والذماما
منزلا مخصبا وأهلا كراما
ماء لبنان سلسلا والغماما
وأجدنا إثارنا والنظاما
فرأينا ما يبهر الأفهاما^(٥١)

قدك، لم تركى لمصر كلاما
ونهوضا إلى العلا واعتزاما
أنجما إثر أنجم تترامى
فوق هام الصعاب لاتحامى
شاعرا أقعد النهى وأقاما^(٥٢)
وكسرنا من عجزنا الأقلاما

وهكذا شاعت روح الإيثار في الحوار، إذ راحت كل فتاة تتنى على الأخرى
وتقدم أهلها. ثم يعلق حافظ على هذا الحوار الذي تسقطه بقوله:

صدق الغادتان ياليت قومي — لنا كما قالتا هوىً والثامنا
نحن في حاجة إلى كل ماين — مى قوانا ويربط الأرحاما

وبهذه الوسيلة الفنية تمكن الشاعر من طرق موضوعه والولوج بيسر فيه متجنباً
لهجة المنابر الزاعقة، فضلاً عن تحريكه نفوس المتلقين وخيالهم فى آن واحد.

ولايفوتنا ونحن نتحدث عن اتخاذ حافظ إطاراً قصصياً لكثير من موضوعاته، أن
نشير إلى تلك المقدمة القصصية الغزلية التى صدر بها مدحته فى البارودى، وإن كانت
نتاج خيال هازل ينم عن ظرفه وطبيعته المرحة التى تجنح به إلى الدعابة.^(٥٣)

لقد كان حافظ حريصاً على طرح كثير من أفكاره بغير لسانه، وكان الإطار
القصصى كما رأينا معنا له فى ذلك. لكنه لم يكف بهذا النهج القصصى، فرأيناه
يلجأ إلى أسلوب آخر أو إلى حيلة أخرى، فإذا أراد الحديث مثلاً عن أمجاد مصر
التليدة، لم يقف هو أمامنا ليسردها ويتغنى بها، وإنما أوقف مصر نفسها لتحدث
بلسانها ولتعدد مآثرها، وظل هو مختفياً مثل (الملقن) فى دور المسرح، يُملى على
الممثلين مايقولون ويذيعون على الناس، دون أن يراه المشاهدون أو يسمعوه^(٥٤) وهذا
ما فعله أيضاً حين أراد الحديث عن مأساة اللغة العربية وماتعرض له من كيد أعدائها،
إذ جسدها وأنطقها بمأساتها وجعلها تستصرخ قومها للأخذ بيدها ودرء الخطر
عنها.^(٥٥) وفى رثاء (عبد الحميد رمزى) الذى توفى وهو طالب بالمدرسة الثانوية، لم
يقف حافظ باكياً، وإنما أوقف أبا الفقيد يُسمع الحاضرين للجزاء أناته ويسفح أمامهم
دموعه، فبلغ الشاعر بذلك حداً بعيداً فى التأثير على الناس وتحريك الأوتار الحزينة فى
قلوبهم، ذلك أن تجاوبهم مع الأب الثاكل أشد من تجاوبهم مع الشاعر الرائى، وإذا
كان الثكالى يؤثرون فى الناس صامتين، فإنهم يكونون أشدَّ تأثيراً فيهم إذا ما كشفوا
أغطية قلوبهم الموجهة ونفوسهم الملتاعة. ولنسمع بعض ما بكى به هذا الأب ابنه
وقد جثا عند قبره:^(٥٦)

ولدى! قد طال سُهدى ونحيبي
 جئتُ أروى بدموعى مضجعا
 لا تخف من وحشة القبر ولا
 أنا لأترك شـبلى وحده
 أو حين ابتزّ دهرى قوتى
 واكتسى غصنك من أوراقه
 ورجونا فيك ما لم يرجُهِ
 ينتويك الموت فى شرخ الصِّبا
 لم يدعْ آسيك جهدا، إنما
 جئتُ أدعوك فهل أنت مجيبي
 فيه أودعتُ من الدنيا نصيبي
 تبتئس، إنى موافٍ عن قريب
 فى جديب موحشٍ غير رحيب
 وذوى عُودى ووافانى مشيبي
 تحت شمس العز والجاه الخصيب
 مُنجِبُ الأشبالِ فى الشبل النجيب
 والشباب الغض فى البردِ القشيب!؟
 غاب علم الله عن علم الطيبِ

لقد أعاد حافظ على أسماعنا فى هذه الأبيات آهات (ابن الرومى) يوم وقف
 يبكى ابنه (محمد). وما كان باستطاعته أن يذكر على لسانه هو بعض المعانى أو يث
 بعض العواطف التى أوردها على لسان الأب، لخصوصيتها، فهى ليست مما يقال عادة
 على لسان الرأى بل مما ينوح به الثاكل، ويكون ورودها على لسانه أوقع فى النفوس
 وأشد إيلاما.

لقد ظلم حافظ بأن اتهم كثيرا بقصور خياله، فكل ما ذكرناه دليل قوى على
 أنه كان يرى كثيرا من الموضوعات والأفكار بعينى خياله على هيئة مشاهد وصور،
 أى كانت صور المعانى والأفكار أسبق إلى عينيه. ولا شك فى أن استعانتة بالعنصر
 القصصى واستنطاقه الآخرين فى شعره بدلا منه، ليتحدثوا عن أنفسهم وقضاياهم،
 عمل من صنع الخيال يُحسب له. كان بعض ما أخذ عليه صائبا، وكان كثير منه ينم
 عن غلواء أصحابه أو رغبتهم الشديدة فى النيل من صنعته. وموقف (المازنى) من
 حافظ مشهور، ويكفى أن نقرأ كتابه (شعر حافظ) لنقف على طبيعة هذا النقد
 الجارح الذى تجاوز حدود الصنعة الشعرية ولم يلتزم بالموضوعية.⁽²⁷⁾ ونقدم المثالين

التالين من نقده، لنرى مدى تعسّفه وتحمّله. وصف حافظ آلام نفسه لجفاء بعض أصحابه فقال: (٥٨)

فما مطوّقةٌ قد نالها شَرَكٌ عند الغروبِ إليه ساقها القدرُ
باتت تجاهد همًّا وهى آيسبةٌ من النجاة وُجّح الليلِ معتكراً
وبات زغلولها فى وكرهٍ فزعاً مروّعاً لرجوع الأم ينتظرُ
متى بأسوأ حالاً حينَ قاطعنى هذا الصديقُ، فهلاً كان يدكرُ

فعلق المازنى على الوصف بقوله: "إن قوله فى البيت الأول (عند الغروب) لامعنى له، فهل كان فى بعض أيامه بومة أو غراباً فعلمته التجربة أن الوقوع فى الشرك عند الغروب أصعب منه فى العصر أو فى الظّهر أو فى منتصف الليل" (٥٩)

ولا أدرى كيف خان المازنى ذوقه الأدبى وحسّه النقدى، فلم يتبين قيمة توقيت الحادث بـ (الغروب)، وهو مدخل الظلام الموحش القابض للنفس، الذى يضاعف هم المهموم وكره المكروب. ولا أظن أن حديث امرئ القيس والنابغة عن مضاعفة الليل آلام النفس كان خافياً عليه. (٦٠)

فإذا أضفنا إلى ما سبق أن الغروب وقت رواح الساعين وراء أرزاقهم إلى دورهم وأهليهم، أى وقت رواح القطاة إلى فرخها الذى تركته وحيداً فى وكره، يتربّب عودتها قبل أن يدهمه الليل بأهواله ومخاوفه، لو حسبنا ذلك كله وقدّرناه، لأدركنا أن حافظاً قد وفق بإضافته هذا التوقيت على وصف المجنون، فبه استطاع تعميق إحساس المطوقة بالخطر، لاعليها فحسب، وإنما على فرخها أيضاً، وهذه هى المكابدة الحقة. وفى هذا الصدد أشير إلى دراسة أجريتها حول ظاهرة اهتمام الشعراء الرومانسيين بالليل، أوضحت فيها الجوانب النفسية المختلفة المتعلقة بالغروب خاصة والليل بعامة. (٦١)

ومن مظاهر النقد المتعسف أيضا، تهكم المازني بحافظ لقوله يصف حاجة مصر
إلى جامعة تخرّج المهندسين والأطباء وعلماء الفلك،... الخ: (٦١)

مَنْ المداوى إذا ما عِلَّةٌ عَرَضَتْ؟ مَنِ المدافعُ عن عِرْضٍ وعن نَشَبٍ؟
وَمَنْ يُطِيلُ على الأفلاك يرصدها بين المناطق عن بعد وعن كَثَبٍ؟

إذ علق على ذلك بقوله: "ليس فى العالم طفل لايعلم أن علماء الأفلاك
لا يرصدونها إلا عن بعد، فهل رأى جنابه أحدا صعد فى طيارة ورصد الأفلاك عن
قرب. إن الوقت الذى تطير فيه الناس بين الكواكب لم يأت بعد". (٦٢)

وقد صدق حدس حافظ وتحقق خياله، ولو أن المازني حتى يرزق لرأى
المركبات الفضائية تخترق ستور الفضاء الخارجى وتحوم حول الأجرام والكواكب،
وتدنو منها إلى مسافات لم تكن تخاطر ببال البشر. أفلا يُحسب ماقاله حافظ له لا
عليه، ثم أفلا يُعد من قبيل الخيال العلمى الصحيح؟!

لم يكن خيال حافظ خاييا على النحو الذى يوصف، إذ نراه ينشط كثيرا ويقدم
صورا جيدة تتم عن صحوته. ولقد أثنى نقاد كثيرون على وصفه رحلته البحرية التى
مرّ فيها بإيطاليا فى طريقه إلى فرنسا، لما أتاه فى هذا الوصف من تصوير دقيق
لاضطراب البحر وهبوب الريح، وتأرجح السفينة،... الخ.

فقد فضل (حسن كامل الصيرفى) وصف حافظ على وصف شوقى رحلته إلى
مؤتمر المستشرقين، (٦٤) كما أثنى عليه الدكتور (عبد الحميد سند الجندى)، وعلّل
تفوقه فى هذا الوصف بقوله: "يتجلى أثر هذه الرحلة فى نفس حافظ، مايدل على أنه
كان فى مكتته أن يأتى بالوصف الرائع لو أتيح له ما أتيح لشوقى من مشاهد متنوعة
اختزنها خياله فى رحلاته الكثيرة" (٦٥) ويتابع ثناءه فيقول:

"ولعل السبب فى جودة هذه القصيدة أن حافظا قد راعه ما شاهده فى أول رحلة له إلى أوربا، ولعلها كانت الأولى والأخيرة"^(٦٦)

ولو علم الدكتور عبد الحميد سند أن حافظا صاغ هذه القصيدة من محض خياله قبل أن يقوم بالرحلة، وقبل أن يجرب ركوب البحر ويختزن مشاهده، لو علم ذلك، لكان إعجابه بالشاعر أكبر. يقول (أحمد محفوظ) فى كتابه "حياة حافظ إبراهيم" وهو أحد المراجع التى اعتمد عليها الدكتور سند فى مؤلفه عن حافظ: "وقبل أن نقضى بك إلى وصف السفينة نحدثك حديثا عجبا عن هذه القصيدة. نظم حافظ قصيدته قبل أن ييارح القاهرة معتزما الرحلة إلى باريس... وهذه أول رحلة للشاعر إلى أوربا، فكان مسرورا سعيدا بهذا السفر، ورأى أن ينظم قصيدة يعبر فيها عن خلجات نفسه. فعلم أن الباخرة سترسو به فى إيطاليا، فهدها شيطانه إلى وصف إيطاليا التى عزم على ألا ينزلها"^(٦٧) كما يقول عن هذه القصيدة أيضا: "رأى حافظ أن يسجل رحلته فى قصيدة فسجلها قبل أن يرتحل... ولحافظ بعد ذلك وصف كثير، فقد وصف فى قصيدة السفينة هذه شوارع إيطاليا التى لم يرها"^(٦٨)

إذن فبإراءة حافظ فى وصفه لم تكن كما يذكر الصيرفى والجندي، لمشاهداته، إذ اتكأ تماما على خياله ومع ذلك تمكن من تقديم وصف جيد. وهذا بلا شك من دلائل قدرته الخيالية العالية، التى كانت تواتيه حينما بعد حين.



هوامش الفصل الخامس:

- (١) ديوان حافظ إبراهيم ج ١ ص ١٠.
- (٢) المرجع السابق ج ١ ص ٢٣٧.
- (٣) حياة حافظ إبراهيم ص ٢٠٧-٢٠٨.
- (٤) انظر: شعر حافظ ص ١٨ وما بعدها.
- (٥) أبو العلاء المعري (أحمد بن عبد الله بن سليمان) شروح سقط الزند، تحقيق عبد السلام هارون (بالاشتراك)، القسم الثالث (القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٧م)، ص ٩٧١.
- (٦) ديوان حافظ إبراهيم ج ٢ ص ١٣٣.
- (٧) شروح سقط الزند، القسم الثالث ص ٩٧١.
- (٨) ديوان حافظ إبراهيم ج ١ ص ١٣٩.
- (٩) أبو العلاء المعري، اللزوميات ج ٣ ص ٢٢٣.
- (١٠) ديوان حافظ إبراهيم ج ٢ ص ١٦٤.
- (١١) المرجع السابق ج ٢ ص ١٧٣.
- (١٢) المرجع نفسه ج ١ ص ٢٦٧.
- (١٣) المرجع نفسه ج ١ ص ٦.
- (١٤) المرجع نفسه ج ١ ص ١٩٥.
- (١٥) مجنون ليلى (قيس بن الملوّح): الديوان، جمع أبي بكر الوبلي (القاهرة - المطبعة الشرفية سنة ١٣٠٠ هـ) ص ٤٥.
- (١٦) ديوان حافظ إبراهيم ج ١ ص ٢٧٢.
- (١٧) الشوقيات ج ١ ص ٢٥٠ مقدمة قصيدة "رومة".
- (١٨) المرجع السابق ج ٢ ص ٧١.
- (١٩) المرجع السابق ج ٢ ص ١١٨.
- (٢٠) ديوان حافظ إبراهيم ج ١ ص ٣٣.
- (٢١) المرجع السابق ص ١ ج ١ ص ١٢١.
- (٢٢) سورة طه، الآية: ٢٤-٣٢.
- (٢٣) ديوان حافظ إبراهيم ج ٢ ص ٢٢٣.
- (٢٤) سورة طه، الآية: ٦٢-٦٤.
- (٢٥) ديوان حافظ إبراهيم ج ١ ص ١٠.
- (٢٦) سورة يوسف، الآية: ٢٣-٢٤.
- (٢٧) سورة الجن، الآية: ٨-٩.

- (٢٨) ديوان حافظ إبراهيم ج ٢ ص ٧٨.
- (٢٩) المرجع السابق ج ٢ ص ١٧٩.
- (٣٠) المرجع نفسه ج ٢ ص ٦٤، وانظر "حسرة على فائت" ج ٢ ص ١١٩.
- (٣١) المرجع نفسه ج ١ ص ٤٦.
- (٣٢) سورة الكهف الآية ٤٩.
- (٣٣) سورة فصلت، الآية: ١١.
- (٣٤) ديوان حافظ إبراهيم ج ١ ص ٢٧.
- (٣٥) المرجع السابق ج ٢ ص ١١١.
- (٣٦) المرجع نفسه ج ١ ص ٢٠٢.
- (٣٧) المرجع نفسه ج ١ ص ٢٧٥.
- (٣٨) المرجع نفسه ج ٢ ص ٢١٠.
- (٣٩) المرجع نفسه ج ١ ص ٢٥٠.
- (٤٠) المرجع نفسه ج ٢ ص ٨٠.
- (٤١) المرجع نفسه ج ٢ ص ٦٣.
- (٤٢) المرجع نفسه ج ٢ ص ٥٨.
- (٤٣) المرجع نفسه ج ٢ ص ١٧٦.
- (٤٤) انظر: السعيد محمود عبد الله "الصنعة الفنية في شعر شوقي"، رسالة ماجستير، مودعة بمكتبة كلية الآداب جامعة الإسكندرية ص ٣١٧-٣٣٠.
- (٤٥) ديوان حافظ إبراهيم ج ١ ص ٣٠٢.
- (٤٦) المرجع السابق ج ١ ص ٣٠٢.
- (٤٧) المرجع السابق ج ١ ص ٢٨٥.
- (٤٨) المرجع السابق ج ١ ص ٢٧٤.
- (٤٩) المرجع السابق ج ١ ص ٥٨.
- (٥٠) يقصد اللغة العربية الفصحى.
- (٥١) هما: أمير الشعراء أحمد شوقي والشاعر إسماعيل صبرى.
- (٥٢) هو الشاعر خليل مطران.
- (٥٣) ديوان حافظ إبراهيم ج ١ ص ٧.
- (٥٤) المرجع السابق ج ٢ ص ٨٩.
- (٥٥) المرجع نفسه ج ٢ ص ٢٥٣.
- (٥٦) المرجع نفسه ج ٢ ص ٢٠٠.

(٥٧) انظر شعر حافظ ص: ٨-١٢، ٢٧، ٣٣، ٤٥، ٥٨-٥٩.

(٥٨) ديوان حافظ إبراهيم ج ١ ص ١٩٥.

(٥٩) شعر حافظ ص ٤٠.

(٦٠) يقول امرؤ القيس في معلقته:

علّي بألسوان الهمسوم لبيتلى

وليل كموج البحر أرخى سدوله

..... الخ

ويقول النابغة:

وليل أقاسيه بطي الكواكب

كليني لهم يا أميمة ناصب

تضاعف فيه الحزن من كل جانب

وصدر أراح الليل عازب همّه

(٦١) د: السعيد محمود عبد الله، الليل في الشعر العربي الحديث، مجلة كلية الآداب جامعة المنوفية عدد أبريل

سنة ١٩٩١م.

(٦٢) ديوان حافظ إبراهيم ج ١ ص ٢٦٦.

(٦٣) شعر حافظ ص ٣٩.

(٦٤) حافظ وشوقي ص ١١-١٤.

(٦٥) حافظ إبراهيم ص ١١٩.

(٦٦) المرجع السابق ص ١٢١.

(٦٧) حياة حافظ إبراهيم ص ٢٠٧.

(٦٨) المرجع السابق ص ٢٠٨.

أهم المصادر والمراجع

- (١) إبراهيم عبد القادر المازني، شعر حافظ (القاهرة - مطبعة اليوسفور سنة ١٩١٥).
- (٢) أحمد شوقي، الشوقيات، (القاهرة - المكتبة التجارية سنة ١٩٧٠).
- (٣) أحمد محفوظ، حياة حافظ إبراهيم (القاهرة - مؤسسة نصار للنشر - بدون تاريخ).
- (٤) جمال الدين الرمادي، من أعلام الأدب المعاصر (القاهرة - دار الفكر العربي - بدون تاريخ).
- (٥) حافظ إبراهيم:
 - (١) البؤساء، (القاهرة - مطبعة الهلال سنة ١٩٥١م).
 - (٢) ديوان حافظ إبراهيم، شرح وتحقيق أحمد أمين (بالاشتراك) (القاهرة - دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٧م).
 - (٣) ليالى سطيح، (القاهرة - مطبعة محمد مطر - بدون تاريخ).
- (٦) حسن كامل الصيرفي، حافظ وشوقي (القاهرة - مطبعة المقتطف والمقطم سنة ١٩٤٩م).
- (٧) روفائيل مسيحة، حافظ إبراهيم الشاعر السياسي (القاهرة - مطبعة الاعتماد - ١٩٤٧م).
- (٨) د. طه حسين، حافظ وشوقي (القاهرة - مكتبة الخانجي سنة ١٩٦٠م).
- (٩) عباس محمود العقاد شعراء مصر وبيئاتهم... (القاهرة - مكتبة نهضة مصر سنة ١٩٦٥م).

(١٠) د. عبد الحميد الجندي، حافظ إبراهيم طء (القاهرة - دار المعارف - بدون تاريخ).

(١١) عبد الرحمن الرافي، مصطفى كامل (القاهرة، مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٥٠م).

(١٢) أبو العلاء المعري (أحمد بن عبد الله بن سليمان):

(١) شروح سقط الزند، تحقيق عبد السلام هارون (بالاشتراك) (القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٧م).

(٢) اللزوميات (بيروت - مكتبة صادر سنة ١٩٥٢م).

(١٣) د. محمد صبرى السوربونى، الشوقيات المجهولة (القاهرة - دار الكتب سنة ٦٢، سنة ١٩٦٣).

الفهرس

الصفحة	الموضوع
١	الفصل الأول: حياته
٣	نشأته
٩	ثقافته
١١	جوانب من حياته وشخصه
١٢	ازدواج شخصيته
١٩	خوفه
٢٢	غريزته للمرأة
٢٥	علاقته بالإمام محمد عبده وأحمد شوقي
٤١	هوامش الفصل الأول
٤٥	الفصل الثاني: الشكوى والنقد الاجتماعي في شعره
٤٧	الشكوى
٦٠	النقد الاجتماعي
٧١	هوامش الفصل الثاني
٧٥	الفصل الثالث: شعره الاجتماعي
٧٨	التكافل الاجتماعي في شعره
٨٣	حافظ وقضايا المجتمع:
٨٤	الوحدة الوطنية والتسامح الديني
٨٧	قضية تطوير التعليم
٩١	قضية تحرير المرأة
٩٦	هوامش الفصل الثالث

٩٩ الفصل الرابع: شعره الوطني والقومى
١٠٣ أولاً: مواقفه مع زعماء الأمة:
١٠٤ مصطفى كامل
١٠٩ سعد زغلول
١١٧ ثانياً: مواقفه من الإنجليز
١٣٦ شعوره القومى
١٤٠ هوامش الفصل الرابع
١٤٣ الفصل الخامس: ملامح فنية بارزة فى شعر حافظ
١٤٨ أولاً: استفادته من التراث الأدبى والتاريخ
١٥٣ ثانياً: تأثره بالقرآن الكريم
١٥٧ ثالثاً: الاستدعاء
١٦٠ رابعاً: بروز العنصر القصصى فى شعره
١٧٣ هوامش الفصل الخامس
١٧٧ أهم المصادر والمراجع

رقم الإيداع بدار الكتب

٩٩/١٨١٨٨

طباعة مركز الدلتا ☞ وفاكس: ٥٩٥١٩٣٣ (٠٢)

٩٩ الفصل الرابع: شعره الوطني والقومى
١٠٣ أولاً: مواقفه مع زعماء الأمة:
١٠٤ مصطفى كامل
١٠٩ سعد زغلول
١١٧ ثانياً: مواقفه من الإنجليز
١٣٦ شعوره القومى
١٤٠ هوامش الفصل الرابع
١٤٣ الفصل الخامس: ملامح فنية بارزة فى شعر حافظ
١٤٨ أولاً: استفادته من التراث الأدبى والتاريخ
١٥٣ ثانياً: تأثره بالقرآن الكريم
١٥٧ ثالثاً: الاستدعاء
١٦٠ رابعاً: بروز العنصر القصصى فى شعره
١٧٣ هوامش الفصل الخامس
١٧٧ أهم المصادر والمراجع

رقم الإيداع بدار الكتب

٩٩/١٨١٨٨

طباعة مركز الدلتا ☎ وفاكس: ٥٩٥١٩٢٣ (٠٢)